تاريخ الحركات الانفصالية
في العالم الإسلامي

د. مصطفى محمد رمضان
مقرر اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة
في التاريخ والحضارة
جامعة الأزهر

تاريخ العلاقات الاقتصادية

في العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

د. مصطفى محمد حسنين

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية

في التاريخ والحضارة

بجامعة الأزهر

المقدمة

كانت فكرة الوحدة والجماعة هي الفكرة المسيطرة على الدولة الإسلامية طوال عصر النبوة (١-١٠هـ) وعصر الخلفاء الراشدين (١٠-٤١هـ) وعصر بني أمية (٤١-١٣٢هـ) وكانت لها قوتها في أذهان المسلمين وعزائمهم في ذلك الوقت فهي التي أوحت للحسن ابن علي رضي الله عنه أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ ، ومن ثم سمي هذا العام بعام الجماعة والوحدة لأن الوحدة هي التي تغلبت في النهاية على النزاعات والأغراض الشخصية ، وهي التي تنبعث من تعاليم الإسلام التي تحض على الوحدة وعدم الفرقة كما في قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (سورة آل عمران ، آية ١٠٣) .

ثم ضعفت هذه الفكرة في أذهان المسلمين في أواخر العصر الأموي وبدأت الخلافات تدب بين البيت العربي ذاته وتضعف الدولة ، وفي العصر العباسي (١٣٢ _ ٦٥٦هـ) بدأت تسيطر فكرة المصالح المذهبية والإقليمية والشعوبية بمعنى أن كل أصحاب مذهب أو اقليم أو جماعة من الناس أو قومية بالمعنى الحديث كانت تنزع إلى الانفصال عن جسم دولة الخلافة واختيار حكومة قوية تدافع عن مصالحهم .

ويذهب البعض إلى أن هذا كان بسبب انتصار المبادئ التي نادت بها الثورة العباسية ، ومن هذه المبادئ مبدأ المساواة ، ففكرة الجماعة قد ذهبت وحل محلها فكرة جديدة هي فكرة حقوق الشعوب والقوميات ففي هذا العصر ظهرت قوميات في العالم الإسلامي ، فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الإسلامية يلتمس شخصيته القومية ويحاول أن ينميها وأن يرتفع إلى مستوى

الاستقلال بحيث أن الزمن لم يمتد إلا يسيراً حتى أصبحت كل قومية تحكم نفسها بنفسها .

ولم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية لأن المعارضة الشيعية والمعارضة الخوارجية كانت تشجع هذه النزعات ، وكانت الخلافة إذا قاومت لا تجني من وراء المقاومة إلا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها بنفسها عن طريق الإكراه[1] .

ولكننا نقول إن المساواة التي نادى بها العباسيون لم يكن معناها حق الشعوب في الانفصال عن الدولة الإسلامية وعن الجماعة ، وإنما كان معناها المساواة في الحقوق والواجبات بين كل المسلمين ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى دون التخلي عن الجماعة والتمسك بها من منطلق قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ .

وهذه المساواة هي التي أتاحت لجميع الشعوب الإسلامية أن تشترك في النهضة الإسلامية الحضارية في العصر العباسي وتبدع ، وأن يحمل أفرادها لواء الإسلام في ميدان النهضة العلمية والثقافية التي شاركت فيها شتى الجنسيات الإسلامية على اختلاف أوطانها وقومياتها وهذا هو الذي جعل المسلمين يتقدمون علمياً في هذا العصر .

وعندما تخلى المسلمون عن الوحدة كان هذا تطوراً خطيراً ينذر بضعف الخلافة وسقوطها وتفرق شمل العالم الإسلامي ومقدمة للحوادث المفجعة التي أصابت العالم الإسلامي على يد الصليبيين والمغول .

ولقد أدي ضعف الحكومة المركزية في بغداد واستبداد الأتراك بها إلى قيام حركات انفصالية في كثير من النواحي في المشرق والمغرب ، وسنتناول هذه الحركات الانفصالية مبتدئين بالجزيرة العربية وذلك لأن العناصر المعارضة في الجزيرة العربية

---

(١) د. حسن محمود وأحمد الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص٣٩٠ .

ســاعدت هذه الطموحات الانفصالية وشجعتها على الانفصال عن الدولة الإسلامية نكايــة بالعباسيين الذين أهملوا العرب ، ولذلك فإن العباسيين لم يخسروا العرب فقط وإنمــا أصــبح العرب في صفوف المعارضة فبجانب حركاتهم الانفصالية في الجزيرة العربية فإنهم خرجوا إلى الأندلس والمغرب وطبرستان وأسسوا دولاً انفصالية كدولة الأمويين في الأندلس ودولة الأدارسة بالمغرب والدولة الزيدية بطرستان .

ونســتطيع أن نقول إنه عندما شاعت الحركات الإنفصالية في كل مكان في الدولة العباسية إبان تغلب الأتراك (٢٣٢-٣٣٤هـ)والبويهيين(٣٣٤-٤٤٧هـ) والأتــراك الســلاجقة (٤٤٧ــ ٦٥٦هــ) على الخلفاء في بغداد ، فإن الدولة العباســية تكــون قد خسرت سلطانها وهيبتها قبل انقراضها بزمن طويل ، باستثناء بعض الفترات التي حاول بعض الخلفاء فيها إعادة الهيبة للدولة مثل أيام الراضي (٣٢٢-٣٢٩هــ) والمعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ) والمسترشد (٥٢٩-٥٣٠هـ) والراشد (٥٢٠-٥٥٥هـ) .

ولعــل السبب الرئيسي في ذلك راجع إلى تخلى الدولة العباسية عن العنصر العــربي وإبعاده نهائياً عن القيادة والصدارة ، وهو العنصر الذي حقق للإسلام النصر والعزة والكرامة والوحدة ، فهو عنصر مؤسس ومكون للدولة وبجهوده تمت الفتوح الإســلامية على أيام الخلفاء الراشدين والدولة الأموية فلما تم إبعاده وجد العباسيون أنفســهم مكشــوفين وحدهم منفردين أمام الأعاجم الطامحين للانفصال ، فكان من الســهل عــلى هؤلاء الأعاجم الضغط على الخلفاء لأن العصبية أصبحت لهم دون العرب ، فاستبدوا بأوضاع الدولة الإسلامية وأصبح الخليفة ليس له من الأمر شئ ، وبدأت الحركات الانفصالية تنتشر في العالم الإسلامي في المشرق والمغرب .

الباب الأول

الحركات الانفصالية في الجزيرة العربية

الفصل الأول

الوضع في الجزيرة العربية

بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية

الوضع في الجزيرة العربية بعد
تغلب الأتراك على الدولة العباسية

حدثت ردة فعل بسبب هزيمة العرب في الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون تمثل في ثورات للعرب بالشام والعراق ومصر ، ولكن الدولة العباسية استطاعت أن تخمد هذه الثورات في أيام المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) والمعتصم (٢١٨ـ ٢٢٧هـ) بكثير من العنف دون محاولة منها لإرضاء جانب العرب الذين اتضح لهم وخاصة أيام المعتصم أنهم أبعدوا تماماً من دائرة الضوء وعن الاشتراك في الجندية ، وكانت آخر المحاولات اليائسة هي محاولة قام بها العباس بن المأمون للإطاحة بالمعتصم وكبار الأتراك إعادة التوازن لصالح العرب، ولكنها كانت محاولة غير محكمة وطائشة ، وكانت نهايتها الفشل وقتل العباس والقضاء على كل أنصاره .

لكن الشيء الهام الذي يرصده المؤرخ في عصر الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) أن العرب عندما أبعدوا عن الجيش الإسلامي لم يقبلوا أن يعيشوا في قهر في العراق ، فعاد بعضهم بل معظمهم إلى جزيرتهم لأنهم لم يقبلوا أن يعيشوا في ضيم وظلم ،قال تعالى:﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ (النساء : آية ٩٧) ، وقال جل شأنه : ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ (النساء :آية ٧٥)، ذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين ، قال الله تعالى: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال . (الغزالي : إحياء علوم الدين ،ج٤، ص٣٢٧) .

وقاموا بحركات ضد الدولة العباسية ظاهرها الإغارة على من جاورهم للسلب والنهب وقطع الطريق إلى الحج وفرض إرادهم في المدينة ومكة وما جاورهما من الأماكن الحضارية بالحجاز ، لكن المدقق لهذه الأحداث يدرك أن هدفها كان مناوأة الدولة العباسية التي قدمت العجم على العرب .

وكان هذا أمراً مؤسفاً ، لأن هذه القوة العربية كانت توجه من قبل إلى ساحات الجهاد مع أعداء الإسلام ، وبفضلهم تمت الفتوح الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ، ثم ظهر الموالي في العصر العباسي وزاحموا العرب ، لأن قيام الدولة العباسية كان بجهود الموالي الأمر الذي جعل لهم شأناً عظيماً في أمور الدولة ، فكان القواد منهم وكان الوزراء منهم والكتاب منهم ، فزاحموا العرب وتقدموا عليهم في شتى المجالات ، وكان انتصار المأمون بسواعدهم مما دعم مركزهم في الدولة وأنقص من شأن العرب ، حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد ، وصار معظم الجند حتى عصر المأمون (١٩٨–٢١٨هـ) إنما هم من أهل خراسان والأبناء من الفرس ، وصار معظم الاعتماد عليهم ، وابتداء من عصر المعتصم ظهرت أسماء قواد الأتراك ، واستعان المعتصم بالأتراك كما رأينا على نطاق واسع .

ولا شك أن هذا الوضع مما أضعف العرب وأضعف الدولة العباسية تماماً وجعلها أسيرة في يد الموالي من الفرس أولاً ثم الأتراك بعد ذلك .

وكان هذا الوضع المتدهور لمركز العرب مجال اعتراض من عقلاء العرب في عصر المأمون ، فقد روى الطبري وابن الأثير أنه تعرض رجل عربي للمأمون بالشام مراراً وقال له : "يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، فقال له المأمون : أكثرت عليَّ يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت (قيساً) عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، فأما (اليمن) فو الله ما أحببتها قط ، وأما (قضاعة) فسادتها تنتظر السفياني وخروجه حتى تكون من أشياعه ،

وأما (ربيعة) فساخطة على ربها منذ بعث الله نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً أعزب فعل الله ربك " [١] .

وهذا تصريح خطير من المأمون وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه القـوة العربـية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها ويخشى الخلفاء سطوتها قد ضـعفت ، فاجـترأ خليفة المسلمين بالجهر بهذا القول في حقها على ملأ من الناس ، الأمر الذي يدل على عدم الثقة الكاملة في العرب ، ولما كان جيش الدولة هو الذي يـدل عـلى حقيقتها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة ، أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الانتهاء [٢] .

ولذلك كانت النتيجة الخطيرة هو عودة كثير من العناصر العربية إلى موطنها الأصلي بالجزيرة العربية بعد أن زاحمتها وعادتها العناصر التركية ، ونظر إليها الخلفاء العباسـيون هـذه النظرة من عدم الثقة ، فعادوا إلى الجزيرة العربية وانقطعت عنهم أرزاقهم التي كانت مرتبة لهم في ديوان الجند ، ولم يستبق هؤلاء شيئاً للزمن فلم تكن هناك يومئذ مجالات لتنمية أموالهم التي سبق أن حصلوا عليها من الفتوح الإسلامية . ولم يعـد لهـم سوى حياتهم التي ألفوها قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، فعادوا إلى عـاداتهم السـيئة فيما يتعلق بالسلب والنهب والإغارة على بعضهم البعض ، وعلى الأخص الإغارة على الأماكن الحضارية في الحجاز .

والـذي يتصفح ما كتبه الطبري وابن الأثير وغيرهما من الكتاب عن عصر الواثق (٢٢٧ـ ٢٣٢هـ) يجد كثيراً من حوادث الإغارة من قبائل (بني سليم) و (بـني هلال) و (بني نمير) و (فزارة)[٣] و (مُرَّة) و (غطفان) و (طيء) و (بني ثعلبة)

---

(١) الطبري : ج٨ ، ص٦٥٢ ، وابن الأثير : ج٥ ، ص٢٢٧-٢٢٨ . وهذا الكلام يعيد إلى الأذهان التعصب القبلي بأوضح صورة يوم أن قال رجل من بيعة لمسيلمة الكذاب : "أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر " الطبري ج٣ ، ص٢٨٦ .

(٢) الخضري ، الدولة العباسية ، ص٢٠٣ .

(٣) الذي ينتمي إليهم "يزيد بن عمر بن هبيرة" الذي قتله المنصور غدراً بعد أن أمنه .

على بعضهم ، وعلى الأخص ما قامت به قبائل بني سلَيم وبني هلال من الإغارة على المدينـة وعلى القرى والمناهل [١] ما بين مكة والمدينة مما سبب انقطاع الطريق ونشر الخـوف في هذه الأماكن بعد أن أنعم الناس فيه زمناً طويلاً بالأمن والأمان منذ صدر الإسلام حتى عصر الواثق ، ولم تكن تقع هذه الحوادث من قبل إلا في القليل النادر .

حوادث بني سليم وبني هلال :

فـيذكر الطـبري وابـن الأثير في حوادث سنة ٢٣٠هـ أن بني سليم [٢] تطاولت على مناطق حول المدينة بالفساد والشر ، وكانوا يدخلون الأسواق بالحجاز ويـأخذون مـا أرادوا ، ثم زاد شرهم عندما أوقعوا بناس من كنانة (منهم قحطانية قريـباً من مكة ، ومنهم كنانة بطن من كنانة بن خزيمة من قريش) وباهلة (من قيس عيلان عدنانية[٣]) فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ ، وكان ينتزعهم في هذه الإغارات قائد منهم يسمى "عُزيرة بن قطّاب السلمي" وكان عامل المدنـية يومئذ هو "محمد بن صالح بن العباس الهاشمي" الذي طلب المعونة من الخليفة الواثـق ، فأرسل إليه "حماد بن جرير الطبري" في جماعة من الجند حوالي ٢٠٠ فارس لكـي يحافظوا على المدينة من هجمات الأعراب ، وخرج حماد بمن معه من الرجال

---

(١)المـناهل جمـع منهل ، والمنهل هو المشرب والموضع الذي فيه المشرب والمنزل يكون في المفازة ، وعلى ذلك فالمناهل أماكن الشرب وموارد المياه بالصحراء ، والناهلة المختلفة إلى المنهل (القاموس المحيط) .

(٢) بنو سليم ينتسبون إلى سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان من مضر من العدنانية وديارهم من وادي القرى إلى عالية نجد بالقرب من خيبر إلى شرقي المدينة وحرة بني سليم وحرة ليلى ، ونفاهم عبد الملك بن مروان مـع بني هلال إلى غربي سيناء وبرزخ السويس حيث عملوا خفراء للقوافل ، وكانوا يلجأون للسلب في فترات الفوضـى ، ويفخـر بـنو سليم أنهم كانوا مع الرسول يوم (فتح مكة) ، وأنه قدم لواءهم الأحمر على الألوية ، ويفخـرون أن عمر كتب إلى الكوفة والبصرة والشام ومصر أن ابعثوا لي من كل بلد بأفضله رجلاً ، فبعث أهل البصرة بـ"مجاشع بن مسعود السلمي" ، وبعث أهل الكوفة بـ"عتبة بن فرقد السلمي" ، وبعث أهل الشام بـ"أبي الأعور السلمي" ، وبعث أهل مصر بـ"معن بن يزيد بن الأخنس السلمي" . (انظر : الفائق للزمخشري ، ج ٢ ، ص٥٧ ، وتـاج العروس للزبيدي ، ج٧ ،ص١٥٩ ، وعمر رضا كحالة : قبائل العرب ، وياقوت في معجم البلدان ، وموريس لومبارد في الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ص٣٠) .

(٣) نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ، القلقشندي .

ومن تطوع للخروج من القوات إلى الرويثة [١] ، وتقابلت بطلائع بني سليم عندها وهي على ثلاث مراحل من المدينة على الطريق بينها وبين مكة [٢] .

ومن بني سليم الخنساء الشاعرة ، وأخوها صخر بن عمرو بن الحرث ، ومنهم نصر بن حجاج الذي نفاه الفاروق عمر بن الخطاب عن المدينة لجماله خوفاً عليه من فتنة أهل المدينة به ، وخاصة بعد أن قالت (فريعة) أم الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت زوجة للمغيرة بن شعبة ، قالت في نصر شعراً تتمناه لنفسها :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ولذلك كتب عبد الملك بن مروان للحجاج في بعض كتبه الغاضبة يقول له :"يا ابن المتمنيَّة ! " [٣] .

وكانت بنو سليم يومئذ جاءوا من البادية في ستمائة وخمسين مع بعض الأعداد التي أتتهم من أعلى الرويثة فاجتاحت بنو سليم هذه القوات وقتل حماد وعامة أصحابه ، وانهزم الباقون ورجعوا واستولت بنو سليم على الغنائم التي كانت معهم ، واستباحت القرى ما بين مكة والمدينة واشتد خطرهم على طرف مكة والمدينة وأصبح هذا الطريق غير مأمون وانتشر شرهم إلى من يليهم من العرب .

فوجه إليهم الواثق قائده الكبير "بغا الكبير التركي" بقوات أكثر عدداً في شعبان ، واتجه إلى حرة بني سليم وأوقع بهم عند قرية لهم تسمى السوارقية [٤] كانوا يأوون إليها ، وقتل منهم نحواً من خمسين وأسر مثلهم ، ودعاهم بعد هزيمتهم إلى

---

(١) الرويثة : ماء لبني عجل بين طريق الكوفة والبصرة إلى مكة (ياقوت وبني عجل من بكر بن وائل عدنانية من ربيعة) (كحالة ، معجم قبائل العرب)

(٢) الطبري ، ج٩ ، ص١٢٩ ، ويذكر ياقوت أن الرويثة على ليلة من المدينة ،ج٩، ص١٠٥ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٢٦١-٢٦٣ .

(٤) السوارقية : قرية لبني سليم نجدية بها سوق لبني سليم يأتيه التجار من الأقطار ، وفي مائها بعض الملوحة ، وأهلها بادية حولها ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحج وبعضهم ثابتون وهم من ولدوا بها . (ياقوت: معجم البلدان) .

الأمان على حكم أمير المؤمنين الواثق ، وأخذ منهم جماعة ممن وصفوا بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل ، وسار بهم إلى المدينة فحبسهم بها .

وكـــان منهم بنو هلال من مضر ، كانوا يقطنون تهامة الحجاز ومناطق من نجد وحـــول مكـــة وفي بسائط الطائف ، وأجلاهم عبد الملك بن مروان إلى غرب سيناء وكـــانوا يعملون هم وبنو سليم في حماية القوافل ، وعندما غزا القرامطة الشام كانوا معهـــم واستقرت بعض بطونهم بالشام وأقاموا إلى أن غزا الفاطميون الشام وقدموا خدماتهم للفاطميين وتعاونوا معهم فانتقل بعضهم إلى مصر ، ثم خرجوا من مصر إلى أفريقيا للقضاء على المعز بن باديس الصنهاجي مع بني هلال أيام المستنصر الفاطمي (٤٣٣هـ) .

وديارهم بالحجاز بين تهامة ونجد .

منهم : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية .

ومنهم . أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بنت الحارث بن عبد الله الهلالية ماتت في حياة الرسول .

ومنهم : لبانة الصغرى أم عبد الله بن العباس ، ولبانة الكبرى أم خالد بن الوليد .

توجـــه بغا التركي إلى "بني هلال" بعد عودته من الحج ، فأخذ من أشقيائهم نحـــو ٣٠٠ رجل عند مكان يسمى "ذات عرق"[١] وحبسهم في المدينة مع من حبس مـــن بـــني سليم ثم قتل أهل المدينة المحبوسين من بني سليم وبني هلال لأنهم حاولوا الفـــرار فوقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة ، فقتلوهم عن آخرهم وفيهم زعيمهم "عزيرة بن قطاب السلمي" ، وكان (بغا) غائباً عن المدينة لمحاربة جماعة من (فزارة) و (مُرة) كانت قد هجمت بدورها على (فدك) ، لما عاد علم بقتلهم فشق ذلك عليه .

وتـــابع (بغا) هجومه على (فزارة) و (مُرة) ، فتوجه إليهم فهربوا من وجهه وظفـــر ببعضهم واستأمن البعض الآخر ، وهرب الباقون مع رئيسهم (الركاض) إلى

---

(١) ذات عرق في طريق العراق بين تهامة ونجد ، وعرق جبل مشرف على ذات عرق في طريق العراقيين إلى مكة . (ياقوت ، معجم البلدان) ، وذات عرق ميقات أهل العراق والمشرق .

البلقاء من أعمال دمشق عند أطراف البادية ، وظل (بغا) يتابع أعماله في بطون غطفان وفزارة وطيء وبني ثعلبة وبني نمير وبني كلاب ، وأخذ من هؤلاء وهؤلاء كثيراً من الأسرى الذين يشيعون الفساد في الأماكن الحضارية بالحجاز .

وظل (بغا) يقمع أهل الجزيرة حتى وفاة الواثق سنة ٢٣٢هـ ، وكانت أشد حروبه مع "بني نمير" الذين زاد عبثهم وفسادهم في الأرض وإغارتهم على الناس وخاصة أهل "اليمامة" وما قرب منها ، حيث توجه إليه بغا فلقي جماعة منهم بموضع يقال له "الشريف" (١) ، فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسر منهم أربعين رجلاً ، ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى "مرأة" (٢) وأقام بها ودعاهم إلى السمع والطاعة وعرض عليهم الأمان ، وهم يمتنعون ويشتمون رسله ، فتقدم إليهم فحملوا على (بغا) وجنده ، وكاد يهزم لولا مجيء مدد أنقذه فهزموا وولوا هاربين وأسر منهم عدداً كبيراً وقتل البعض الآخر وهرب فرسانهم وتركوا مشاتهم يلاقون حتفهم (٣) .

وكان مجموع ما أسره (بغا) من القبائل وعاد بهم إلى سامرا سوى من قتل وهرب ٢٢٠٠ رجل (٤) .

ومع إهمال العرب في شئون الدولة العباسية فإنها (أي الدولة) أهملت أيضاً الطرق المؤدية إلى الحرمين الشريفين على أيام الأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، لدرجة أن الواثق أراد أن يحج في عام ٢٣١هـ فلم يستطع ، لأن بعض عماله (عمر بن فرج) أخبره بقلة الماء في طريق الحج ، فأعرض عن الحج (٥) ، وفي سنة ٢٣٢هـ

(١) الشريف : تصغير شرف ، وهو الموضع العالي ، والشريف ماء لبني نُمَيْر ، وتنسب إليه العقبان ، ويقال إنه سرة بنجد وهو أمرأ نجد موضعاً ، وأرض بني نمير الشريف دارها كلها بالشريف إلا بطناً واحداً باليمامة يقال لهم بنو ظالم بن ربيعة بن عبد الله ، وقال آخر : الشريف : واد بنجد فما كان عن يمينه هو الشرف ، وما كان عن يساره فهو الشريف ، فما كان مشرقاً فهو الشريف وما كان مغرباً فهو الشرف . (ياقوت)

(٢) مرأة بلفظ المرأة من النساء : قرية بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة بينها وبين ذات غسل مرحلة

(٣) الطبري ، ج٩ ، ص١٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ج٩ ، ص١٤٦-١٥٠ ، وابن الأثير ،ج٥ ، ص٢٧٦

(٥) الطبري ، ج٩ ، ص١٤٠ .

أصــاب الحجاج عطش شديد لدى رجوعهم من الحج ، فبلغت الشربة الواحدة عدة دنانير ، ومات من العطش كثير من العائدين من الحجاج [١] .

وتكــررت حوادث العطش هذا في السنوات التالية بعد ذلك ، ويذكر ابن الأثــير أن الأمر بلغ إلى غاية من السوء لدرجة أن الحجاج في حج عام ٢٩٥هــ في عودهم مات منهم خلق كثير ، وحكى أن أحدهم كان يبول في كفه ثم يشربه [٢] .

وكــان يجب على الدولة الاهتمام بالآبار وأحواض المياه التي أنشأها الخلفاء المنصــور والمهدي والرشيد لاستمرار نفعها ، ولكنها أهملت وأهملت الطرق تماماً مع إهمال الدولة العرب فأصبحت الطرق غير آمنة .

قهر شخصية العرب :

ومــن ناحــية أخرى فقد كان لهذه الحوادث أثرها السيئ في نفسية العرب حيــث أضعف نفسية العرب أمام الأتراك ، ذلك لأن أخذ العرب بالآلاف أسرى في يــد الأتراك إلى سامرا من المشاهد المؤلمة التي أثرت في نفسية العرب ، ويغلب على الظن أن الأتراك كان هدفهم منها قهر شخصية العرب ، لأنهم بالغوا في الانتقام منهم في هــذه الهجمة التي لم تحدث منذ صدر الإسلام ، وعلى الرغم من أن الطبري يذكر أنها كانت بسبب اعتداءات الأعراب على غيرهم في المدينة وعلى الطريق بين المدينة ومكــة وعــلى غيرهم من القبائل ، إلا أن هذه الأخبار ربما بولغ فيها ، وخاصة أن الطبري ليس شاهد عيان لها ، وإنما نقلت إليه وسجلها عن رواية غيره .

ويغلــب عــلى الظن أيضاً أن هذه الحركات التي حدثت من بعض القبائل كانت للإعراب عن غضبتهم من هيمنة الأتراك على الخلافة ، فلما واجهتهم الدولة العباسية بالأتراك زادوا من حركاتهم وغضبوا وأعلنوا عن تمردهم ، وسوف نرى أنهم سيتضــعون أنفســهم في خدمة أي حركة أو قوة معادية للدولة العباسية وعلى سبيل

المـثال اشـتركت بنو سليم وبنو هلال مع القرامطة في غزو الشام واستقرت بعض بطونهـم في الشام ، وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هلال وبـنو سليم بالفاطميين وتعاونوا معهم وقدموا إليهم خدماتهم فنقلهم الفاطميون إلى مصـر ، وعـندما قطع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين في أفريقية قرر الفاطمـيون توجـيه قوة بني سليم وبني هلال إليه في سنة ٤٤٣هـ وكتب الوزير الـيازوري وزير المستنصر الفاطمي إلى ابن باديس يقول : "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا إليكم رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"[١] .

المسئولية :

وعلى العرب يقع جانب من المسئولية في إنهاء سلطتهم ومشاركتهم في شئون الدولة العباسية ، والمسئولية تشمل الراعي والرعية ، وأعني بالراعي الخليفة العباسي الـذي فـرط في جمع شتات هذه القوة التي سبق أن حققت بتماسكها العزة والمنعة للإسلام على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، والخليفة العباسي راعي وهو مسئول عـن رعيـته ، وبقدر ما أتاح الفرصة للعناصر الأخرى للمشاركة في أوضاع الدولة لتحقـيق المساواة التي كانوا يطلبونها كان عليه أن يحافظ على الكيان العربي والقوة العربـية التي هي الأصل وما عداها هي الفرع ، وكان عليه أن يوجه هذه القوة إلى ساحات الجهاد مع أعداء الإسلام .

وأما الرعية فهم العرب جميعاً الذين تنازعوا واختلفوا إلى عرب شمال وعرب جنوب وشامية ومضرية ، وعرب الشمال إلى مضرية وربيعية ، والمضرية إلى قرشيين وغـير قرشيين ، والقرشيين إلى أمويين وهاشميين ، والهاشميون إلى علويين وعباسيين ، والعلويـون إلى فـرق لا تحصى من الشيعة الزيدية الاثنى عشرية والإسماعيلية وهلم جرا، إلى غير ذلك من الخلافات التي قضي عليها الإسلام ، ونبه على خطورة العودة إليها والتي تؤدي إلى الفشل ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ...﴾ (الأنفال :

(١)ابن الأثير، ج٩، ص٥١٦ ، وابن خلدون : العبر ج٤ ،ص٦٢ ،والمقريزي: إتعاظ الحنفاء ج٢ ، ص٢١٦

آيــة ٤٦) ، ومن منطلق قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الأنفال: آية ٥٣) ، وقوله تعالى :﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد : آية ١١) .

عمـــان

عمان من الأقاليم الإسلامية الهامة التي لعبت دوراً في تاريخ الإسلام ، فيما يتعلق بنشره فيما وراء البحار سواء في شرقي أفريقيا أو في الهند أو في جنوب شرقي آسيا ، ودولة عمان كانت في الماضي تشمل ما يعرف اليوم بدولة الإمارات العربية المتحدة التي شغلت جزءا هاما منها الآن وهو الساحل العماني على الخليج العربي ، وانفصل عنها هذا الجزء بألاعيب الاستعمار الإنجليزي في الخليج العربي وأطلقوا على هذا الساحل الذي فصلوه من عمان (الساحل المهادن) أو (ساحل الصلح) ، فعمان قبل أن تفقد هذا الجزء كانت تقع على الخليج العربي أيام أن كانت تشمل دولة الإمارات وتكونت من هذا الجزء المنفصل مؤخراً دولة الإمارات المتحدة وهى مكونة من عدة إمارات هي: ١-أبو ظبي٢-دبي ٣-الشارقه ٤-ام القوين ٥-عجمان ٦-رأس الخيمة ٧- الفجيرة .

ويدخل فيها أيضا إقليم "ظفار" على البحر العربي في الجنوب وعاصمتها في الداخل (نزوى) وانتقلت الآن إلى مسقط على البحر العربي .

وتقع عمان في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية وتمتد شمال بحر العرب إلى أن تصل إلى قطر هذه هي حدودها في الماضي قبل اقتطاع دولة الإمارات العربية المتحدة منها ، ويحدها اليمن في الغرب والسعودية من الشمال والغرب . وسكانها خليط من عرب الشمال النزارية ويطلق عليهم في عمان (الغافرية) ، ومن عرب الجنوب القحطانيين الذين يسمون بالأزد ويطلق عليهم في عمان (الهناوية) ، وبها خليط وافد من الأفارقة والهنود والفرس .

وينقسم السكان إلى طائفتين متميزتين: هما الحضر والبدو.

فأما الحضر: فهم الذين يسكنون الساحل وبخاصة "مسقط" و"صحار" و"قريات" و"صور" وغيرها من مدن الساحل وهؤلاء هم الذين يجمعون خليط السكان الوافد من أفريقيا وإيران والهند.

أما البدو: فيعيشون في المناطق الداخلية وهم أكثر فطرة وبساطة وهم شديدو المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم.[١]

وتنقسم عمان إلى عدة مقاطعات : منها مقاطعة الباطنة: التي تطل على خليج عمان الى الشمال من مسقط وهى سهل خصيب ، ومقاطعة عمان: وهى المقاطعة الداخلية وتضم الجبل الأخضر كما تضم المناطق المحيطة بهذا الجبل والتي توجد بها العواصم القديمة والمدن الشهيرة مثل (نزوى) و (الرستاق) و (سمايل) والمقاطعة الشرقية: وأهم نواحيها المضيبي ووادى بنى خالد ومقاطعة جعلان: واسمها مشتق من اسم سكانها القدامى وأهمها بلاد بنى بوحسن وبوعلي وصور ومقاطعة ظفار الجنوبية: وتتألف من سهل ساحلي منبسط تحاذيه الجبال وتتبعها عدة جزر مواجهة للساحل في البحر العربي وهى جزر (كوريامورريا) و (مصيره) و (جزيرة الغنم) وتقع عند مدخل مضيق هرمز[٢] .

وعمان تقلب اسمها على مر الزمن بين (مسقط) و (عمان) وكان اسم عمان هو الغالب في الماضي ، ولما انتقلت عاصمة البلاد من الداخل إلى الساحل واختيرت مسقط لتكون العاصمة سميت البلاد سلطنة عمان ومسقط وكانت الإمامة في الداخل ومقرها نزوى والسلطنة على الساحل ومقرها مسقط وهذا هو الذي عرض البلاد للتقسيم في فترة من الفترات ، الإمامة في الداخل والسلطنة على الساحل ، وأخيرا قام السلطان قابوس بتوحيد البلاد فجعل اسمها سلطنة عمان وجعل العاصمة مسقط وهذا هو الوضع الذى استقر مؤخراً.

---

(١) عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص٤٤٣ ، د . أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج٧ ، ص٢٧٤ .

(٢) د. أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ج٧ ص٢٧٤ ، عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص٤٤٣

وتعد مسقط الآن أعظم الموانى على خليج عمان ، ونشاطها التجارى واسع مع الهند وأفريقيا وجنوب شرقى آسيا وبلاد فارس وغيرها من بلاد العالم ومن الموانى المهمة أيضا (صحار).

وكانت "صحار" في الماضى هى العاصمة وتقع على البحر في خليج عمان كما ذكر ذلك "الاصطخرى" و"ابن حوقل" ، كما كانت "الرستاق" في الداخل عاصمة لعمان في يوم من الايام في الفترة من (١١١٢-١١٩٧هـ)هذا بالإضافة الى (نزوى) كما سبق أن ذكرنا التى كانت عاصمة لعمان نحو ألف عام .

عمان في صدر الاسلام :

كان الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعى أهل عمان الى الاسلام فاستجابوا فأقر أبناء الجلندى من الأزد على عمان (جيفر وعبد) وهم كانوا حكامها فظل آل الجلندى في ناحيتهم على الطاعة والسكون طوال العصرين الراشدى والأموى وعقب النزاع الذى دار بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان نشأت فرقة الخوارج واتجه أكثرالخوارج الى المناطق النائية في العالم الاسلامى في اليمن وشمال أفريقيا وعمان وسجستان وكرمان ومنذ ذلك التاريخ أصبحت عمان مركزاً للخوارج فلما آل أمر الخلافة الى بنى أمية أعلن الخوارج عداءهم لمعاوية وأصبحت عمان أهم مركز لهم ووجد أهل عمان في ذلك فرصة لإعلان استقلالهم وساعدهم على ذلك أن بلادهم في الطرف الجنوبى من الجزيرة العربية .

وعلى ايام الحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق حاول الحجاج بسط سلطانه على عمان وقام صراع طويل بين جيوش الحجاج وأهل عمان وانتصر الحجاج في نهاية الامر وفر زعماء أسرة الجلندي من وجه الحجاج الى بلاد الزنج (زنجبار) واضعين أساسا لدولة في أفريقيا .

ولاشك أن سكان عمان اتخذوا مذهب الخوارج وسيلة لإعلان استقلالهم عن الدولة الاسلامية في دمشق ، وكان يقودهم في البداية (نافع بن الأزرق) و (قطرى بن

الفجاءة) و (عبد الله بن إباض) لكن أكثرهم اتباعا هو عبد الله بن إباض ولذلك نسب إليه مذهب العمانيين فقالوا عنهم (الإباضية) ، وأهل عمان يكرهون أن يطلق عليهم خوارج لأنهم لا يريدون أن يرتبطوا بجماعة خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه ويفضلون أن يرتبطوا بعبد الله بن إباض الذي خرج على عبد الملك بن مروان ، وهم معتدلون في المذهب ، ولذلك يقول الدكتور أحمد شلبى بأن المذهب الاباضى في طبيعته أقرب مذاهب الخوارج إلى أهل السنة ، وهم يعتبرون أنفسهم ورثة للفكر الاسلامى الأصيل الذى جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد شرح مذهبهم هذا بتوسع المؤرخ العمانى (عبد الله السالمى) في كتابه (تحفة الأعيان) ج١ ، ص٦٠-٦٦ .

والعمانيون يختارون الامام ممن تتوفر فيه شروط القوة والعلم والعدالة والفضل والورع ولا يشترط أن يكون من قريش ولا من العرب ، وهذا الرأى في البداية هو رأى الانصار عندما تناقشوا في ثقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخذ بهذا الرأي بعد ذلك الخوارج مثل (قطرى بن الفجاءة التميمى) ويستندون في رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن الكريم وبينتها السنة الشريفة وهى أن التقوى أساس التفاضل بين الناس قال تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام :" ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى " ، لكن القرشيين وعلى رأسهم المهاجرين تمسكوا بقول أبى بكر الصديق : " الأئمة من قريش " وشاع بين المسلمين أن هذا حديث شريف وإن كان كثير من المؤرخين يرفض هذا الحديث ويجعله قولاً من أقوال ابى بكر يقصد به الأئمة من قريش يعنى لأن قريش أقوى القبائل ، وخاصة أن هناك فريق ثالث يرى تخصيص الخلافة بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم شيعة على بن أبى طالب ويتمسكون أن الخلافة يجب أن تكون في آل البيت أى تنحصر في اسرة معينة ولا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة

ويرون أن تكون الخلافة لعلى ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة ويدعون أن رسول الله أوصى لعلى بالخلافة وهو أمر لم يثبت [١] .

عمان في العصر العباسي :

واستعاد أهل عمان سلطانهم كاملاً على أيام الدولة العباسية ، فقد انتهز خوارج عمان الثورة العباسية وانقلابها على الأمويين وخرج (الجلندي بن مسعود الأزدى على طاعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٤هـ فأرسل إليهم العباسيون جيشاً يقوده (خازم بن خزيمة) فهزمهم ودخل (نزوى) عاصمة آل الجلندى وقتل الجلندى بن مسعود الأزدى .

وبعد عودة الجيش العباسى انتهز خوارج عمان الفرصة وفرضوا سلطانهم على عمان بزعامة (محمد بن عبد الله بن أبي عفان الأزدى) حوالى سنة ١٤٥هـ واستمرت إمامتهم في هذه النواحى أربعة قرون ، ولم يبذل العباسيون أى جهد يذكر للقضاء عليها.

وحاول القرامطة إقتحام عمان سنة ٢٨٦هـ ولكن الامامة الإباضية صمدت أمامهم واستمرت كما حاول البويهيون التدخل في شئونهم ولكنهم فشلوا أيضا[٢] .

وينقسم تاريخ عمان الى خمس فترات تاريخية :

١- فترة حكم الولاة من الدولة المركزية الإسلامية على أيام الراشدين والأمويين، وامتدت حتى سنة ١٣٥هـ .

٢- فترة الأئمة الإباضية ١٤٥-٩١٣هـ (٧٥٢-١٥٠٧م) .

٣- عصر الاحتلال البرتغالى من ٩١٣هـ-١٠٣٤هـ (١٥٠٧-١٦٢٤م) .

٤- فترة الأئمة من بنى يعرب من سنة ١٠٣٤-١١٥٤هـ(١٦٢٤-١٧٤١م).

٥- فترة سلاطين البوسعيد من ١١٥٤هـ(١٧٤١م) إلى الوقت الحاضر .

---

(١) د . حسن ابراهيم وأخيه علي ، النظم الإسلامية ، ص٩ .

(٢) د . حسين مؤنس ، الأطلس الإسلامي ، ص٢٠٦ .

وقد تميزت الفترة الثانية وهى فترة الأئمة الاباضية بكثرة الصراع على الامامة وظهرت فيها أسرة (آل نبهان) الذين كونوا لهم ملكاً عدة قرون ولكن سلسلتهم لم تكن منتظمة وأحياناً تعددت الأئمة في وقت واحد وأحياناً خلت البلاد من وجود الأئمة تماماً ، وكان أول إمام لهم هو (الحوارى بن مطرف) سنة ٢٩٢هـ .

وأهم ملوك بنى نبهان هم : (أبو عبد الله محمد بن عمر بن نبهان) و (الفلاح بن المحسن النبهانى) و (عرار بن الفلاح) وظلت حركة بنى نبهان حتى القرن التاسع الهجرى ، وبعد ذلك ظهر الأئمة من اليعاربة .

الاحتلال الأجنبي :

في نهاية فترة حكم آل نبهان سادت الفوضى وكثر الأئمة من (آل نبهان) ومن غيرهم ، فضعفت بلاد عمان فأصبحت تغرى الأعداء بالهجوم عليها فحدث هجوم عليها سنة ٦٧٤هـ من بلاد فارس ، فقد هاجم أهل شيراز عمان وأحتلوا (نزوى) لكنهم لم يستطيعوا الاستقرار في البلاد ، وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادى أتى الاستعمار البرتغالى الى عمان ، وفي البداية حاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز لهم للتموين فأتجهوا الى موانى عمان التى كانت مراكز تجارية نشطة فأحتلوا (صور) و (قريات) و (مسقط) و (صحار) سنة ١٥٠٧م وكانت القوات البرتغالية بقيادة (البوكيرك) الذى دمر سفن مسقط ومبانيها وبدأوا في إقامة القواعد والقلاع لتدعيم مركزهم وسيطرتهم على هذه الموانى الاستراتيجية ذات الموقع الملاحى الممتاز ، واستولى البرتغاليون كذلك على (خليج عمان) وعلى جزيرة (هرمز) في مدخل الخليج العربى سنة ١٥٠٧م ، وبدأ الصراع الطويل بين العمانيين والبرتغاليين الذى قاده الأئمة اليعاربة الذين حكموا من سنة ١٠٣٤هـ الى سنة ١١٥١هـ (١٦٢٤ - ١٧٣٨م) .

فترة اليعاربة :

أصل اليعاربة من العرب الشماليين المعروفين بالتزارية المعروفين في عمان باسم : (الغافرية) وكانت قبيلتهم قبل ظهور الزعيم (ناصر بن مرشد) قبيلة عادية من قبائل عمان فلما حدثت النزاعات الداخلية والاستعمار الخارجي ظهر (ناصر بن مرشد) وقاد قبيلته للدفاع عن البلاد وتم تعيينه إماماً في سنة ١٠٣٤هـ(١٦٢٤م) ، وبدأ في توحيد البلاد تحت قيادته والقضاء على حكام المناطق الخارجة عن طاعته وأتجه بعد ذلك لمحاربة البرتغاليين الذين دامت سيطرتهم أكثر من مائة عام ، وساعدته ظروف خارجية وهى أن دولة البرتغال سقطت تحت سلطان أسبانيا فيما بين سنة ١٥٨٠م و ١٦٤٠م وحاولت أسبانيا أن ترث الاستعمار البرتغالى في الشرق ومن هنا ضعف حماس البرتغاليين تحت الحكم الأسبانى مما ساعد الحركات التحررية في المستعمرات البرتغالية على أن تنجح في وقت ظهرت فيه (هولندا) و (بريطانيا) كمنافس على الاستعمار ، وقام صراع طويل بين الدول الاستعمارية أضعف البرتغاليين فساعد ذلك العمانيين على التخلص من البرتغاليين وساعد عمان كل من (الانجليز) و (الفرس) ضد البرتغاليين .

وبعد هزيمة البرتغاليين في هرمز بدأ (ناصر بن مرشد) يطرد البرتغاليين من بلاده في (مسقط) و (صحار) و (مطرح) ، وبعد وفاة ناصر تولى الامامة بعده ابن عمه سلطان بن سيف ، وكان سلطان عوناً لابن عمه في أثناء حكمه ولهذا استمر النضال في عهده ضد البرتغاليين ، فتم طردهم من (مسقط) و (مطرح) سنة ١٦٥٨م ، وبدأ يتتبعهم في المراكز الاستعمارية الأخرى التى أنشأوها في شرقى أفريقيا وعلى الأخص في (زنجبار) و (الصومال) على الرغم من أنه لم يكن له مطامع في الصومال ، واتجه بعد ذلك الى تعمير بلاده وتجديد القلاع والحصون للحفاظ على استقلال البلاد واهتم بالتجارة ، وكانت عمان قوة موحدة خلال هذا الصراع .

وبعد موت سلطان سنة ١٠٧٩هـ دب الخلاف بين أبنيه (بلعرب) و (سيف) وكان (بلعرب) أكبر سناً فأخذ مكانة أبيه لكن نازعه أخوه سيف وقام صراع كبير بينهما لكن مات (بلعرب) فخلا الجو لسيف بن سلطان ، وهكذا كلما حقق العرب بعض الانتصارات وهدأت أحوالهم . على الجبهة الخارجية بدأوا في النزاعات الداخلية التى تضعفهم وتنال من قوقم أكثر مما يناله أعداؤهم منهم ولهذا يعلق الدكتور أحمد شلبى على هذه الظاهرة التى تتكرر في التاريخ العربى فيقول :

" وهذه الحادثة تكررت في التاريخ العربي في مختلف العصور ، فإن العرب تجتمع كلمتهم عند الشدائد ، فإذا حققوا نصراً بسبب وحدهم أسرعوا إلى الفرقة والخلاف ، وكان جديراً بهم أن يجنوا ثمار تعاونهم في تعاطف وابتهاج ، ولم ينل الإعداء من العرب أكثر مما نالوا هم من أنفسهم " (١) .

وأثناء الصراع بين سيف وأخيه تمكن البرتغاليون من احتلال الجزر المواجهة لساحل [illegible] قام سيف بن سلطان باسترداد هذه الجزر واستولى سنة ١٦٩٨م على (منباسا) في شرق أفريقيا التي كانت تعد عاصمة المستعمرات البرتغالية في شرق أفريقيا بعد حصار دام ٣٣ شهراً ، وبعد سقوطها انتهى تفوق البرتغاليين في شرق أفريقيا .

ولما أصبحت هناك أملاك للعمانيين في آسيا وأفريقيا كان من الواجب إنشاء أسطول كبير لحماية مستعمرهم الجديدة في شرق أفريقيا لكي يستطيعوا بهذا الأسطول أن يناوئوا الأساطيل الأخرى الإنجليزية والفرنسية والهولندية في البحار الشرقية ، ومن ثم بلغ عدد سفن الأسطول ثمانية وعشرين سفينة كبيرة يحمل بعضها ثمانين مدفعاً مما يدل على تقدم عمان في فن الملاحة وتسليح السفن (٢) .

(١) احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج٧ ، ص٣٢٨-٣٢٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص٣٢٩ .

كما أنشأ اليعاربة جيشاً جراراً ضم حوالى (٩٠ألف مقاتل) وشيدوا القلاع والحصون واهتموا بالزراعة وشقوا مجارى المياه المسماه بالأفلاج .

وهناك عدة عوامل ساعدت العمانيين في هذه الفترة ، ونجحوا بفضلها في إجلاء البرتغاليين عن سواحل عمان وشرق أفريقيا وهى : قوة عرب عمان وتفوقهم في الملاحة البحرية ، وضعف البرتغاليين في هذه الفترة ، بالإضافة الى أن البرتغاليين في هذه الفترة كانت لهم مراكز تجارية فقط ولم يتوسعوا إستعمارياً في هذه المناطق ، وإنما كان إنشاء قواعد تجارية لهم لضمان سلامة الطريق البحرى بين لشبونة والهند ، فضلاً عما أنتهجه البرتغاليون في حكمهم من أساليب عنيفة أتصفت بالاستبداد والجور فأثارت الناس عليهم .[١]

ولا شك أن العمانيين أستفادوا من تجربة البرتغاليين في الربط بين شرق أفريقيا وساحل عمان ، ونشأت لديهم فكرة إنشاء دولة في شرق أفريقيا وسواحل عمان مركزها في زنجبار وهذا المشروع هو المشروع الذى سينفذه فيما بعد (آل بوسعيد) الذين تولوا الحكم في عمان بعد اليعاربة .

البوسعيد (١١٥٤هـ = ١٧٤١م) :

يرجع أصل البوسعيد الى القحطانيين المعروفين في عمان (بالهناوية)فقبيلتهم هاجرت من اليمن الى عمان ، وأول حاكم لهم كان هو (أحمد بن سعيد) الذى كان في البداية مستشاراً لآخر حكام اليعاربة (سيف بن سلطان) وكان خبيراً بالتجارة والاقتصاد،وبذلك بدأ (أحمد بن سعيد) طريقه الى المجد والشهرة وعهد إليه(سيف بن سلطان)بإدارة ميناء (صحار)وهو الميناء الهام من الناحية التجارية ، وفي غضون ذلك تصارع (سيف بن سلطان)و(سلطان بن مرشد)على الحكم ومات الرجلان أثناء الصراع فأتيحت الفرصة لأحمد بن سعيد لكى يرث حكم اليعاربة وتصدى لأطماع الفرس في بلاده وقضى عليهم وبايعه العمانيون بالإمامة سنة ١١٥٤هـ (١٧٤١م).

---

(١) د . جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، ص٢٢ .

غير أن لقب الامامة لم يطل بقاءه في بيته وإن أكثر قادة هذه الأسرة قنعوا بلقب (السيد) بدلاً من الامام وذلك لأن العمانيين كانوا غير مقتنعين به إماماً عليهم لأنه تغلب على الأمر بعد فتنة ولم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة [١] ، وأيما كان الأمر فإن (أحمد بن سعيد) أسس أسرة حاكمة في عمان هى (أسرة البوسعيد) في سنة ١٧٤١م .

وتعرضت دولة البوسعيد للأخطار من الداخل والخارج :

فمن الداخل: كان الزعماء الإباضية غير معترفين بإمامة أحمد بن سعيد ، وقام هؤلاء الزعماء يعارضون سلطة حكام الدولة داعين الى إحياء الامامة الإباضية .

فعبد الله السالمى صاحب كتاب "تحفة الأعيان بسيرة آل عمان " يقول :" إن أهل العلم لم يروا صحة بيعته لأنها كانت على غير مشورة من المسلمين ، وأن اسم الامامة قد ثبت له عند الخاص والعام إسما دون حكم فأولاده يقال لهم أولاد الامام " كما يطعن السالمى أيضاً في عقد البيعة بقوله : " إنه كان عقداً بعد فتنة وتغلب على الأمر " ، وعلى ذلك لم يتوافر في ذلك العقد الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة[٢].

وحاول (أحمد بن سعيد) تقوية مركزه عن طريق زواجه من إبنة الامام (سيف بن سلطان) اليعربى الامام السابق له لكى يوجد صلة نسب بين الأسرة السابقة وبين أسرته التى ينحدر أغلبها من التجار الذين لم يمارسوا أى نوع من أنواع الحكم والنفوذ ، ومع ذلك ثار اليعاربة عليه ، وكان منهم (بلعرب بن حمير اليعربى) الذى أبده الغافرية (عرب الشمال).

---

(١) المرجع السابق ، ج٧ ، ص٣٣٥ .

(٢) السالمى : تحفة الأعيان ، ج٢ ص١٦٢-١٦٣ والسالمى من أهم المراجع العربية في تاريخ عمان من وجهة نظر الامامة الاباضية طبع القاهرة سنة ١٣٣٠هـ في جزءين ، جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد ، ص٤٧ .

لكن أحمد بن سعيد استطاع أن يتخلص من منافسة بلعرب كما تخلص من منافسة أحد أبناء سلطان بن مرشد الذى حاول أن يعقد الامامة لنفسه بعد وفاة أبيه[١].

ومع ذلك فإن (أحمد بن سعيد) ترك لليعاربة شيئا من النفوذ في داخل عمان ، فظلوا يمارسون سلطاتهم المحلية الاقطاعية ، في الجبل الأخضر .

وفي مطلع القرن التاسع عشر زاد اهتمام البوسعيد بالخارج وتركوا الداخل ، وركزوا سلطاتهم في (مسقط) وفي شرق أفريقيا ، ولم يهتموا بالتأييد الديني لسلطتهم ، وإنما اعتمدوا على التأييد من حلفائهم الانجليز ، وشغلوا أنفسهم بالشئون التجارية ، وتلقبوا بلقب سلطان ، الى جانب الامامة التى كانت في (الرستاق) في الداخل .

ومن هنا بدأ الصراع بين الامامة والسلطنة ، وفي عهد حامد بن سعيد (١٧٧٩ – ١٧٩٣م) تم نقل العاصمة الى (مسقط) واصبح لدولة عمان علاقاتها مع ا[illegible] الأجنبية فيما وراء البحار . وأصبح لهم دخل كبير من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية .

وفي عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦–١٨٥٦م) زادت علاقة الدولة بالإنجليز، وأصبح سعيد في تحالف معهم ويستمد منهم القوة للبقاء في الحكم ، ولا يهتم بلقب امام ، وأغدق على نفسه لقب سلطان ، ولما كان التأييد له من الداخل ضعيفا بدأ يعتمد على الجنود المرتزقة في جيشه من عناصر (البلوش)و (الزيجلوس) من السند وسواحل مكران ، وقد عرفت هذه العناصر بشجاعتها في القتال وولائها للحكام بشرط أن تجد ما يكفيها من رواتب واسلاب ولا يزال الجيش الرسمى للسلطنة يعتمد عليهم حتى الآن .

---

(١) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

وكان البوسعيد يفرضون رسوما جمركية على البضائع التى تأتى من الخارج مقدارها ٥% من قيمة البضائع الأجنبية وكانوا يجنون ٥، ١% على تجارة المرور (الترانزيت) وهى التجارة العابرة من الخليج وإليه . بالإضافة الى دخلهم من ممتلكاتهم في شرق أفريقيا ، ودخلهم الخاص من أملاكهم الخاصة في عمان . وكان لهم دخل أيضا من صيد اللؤلؤ واستخراجه .[١]

وتعرضت دولة عمان في نهاية القرن الثامن عشر للغزو الوهابى ، فقد حاول الوهابيون نشر دعوتهم السلفية في عمان وكان عرب الشمال من (الغافرية) أكثر استجابة لها من عرب الجنوب القحطانيين (الهناوية) الذين هم أكثر تمسكا بالمذهب الإباضى ، ولعبت النزعة القبلية دورا كبيرا في انقسام البلاد ، فأصبح الغافرية في الغالب من أهل السنة ، والهناوية إباضية[٢] .

لذلك عاش الزعماء الدينيون في الداخل من عمان غير معترفين بسلطة حكام البوسعيد. ولذلك حفل تاريخ الدولة بصراع عنيف بين حكامها من ناحية وبين المتمسكين بالإمامة الإباضية من ناحية أخرى ، وكانت بريطانيا تتدخل بطريق غير مباشر، وأحيانا بطريق مباشر لمساندة حلفائها من سلاطين البوسعيد [٣] الذين تحالفوا مع سلاطين الدولة .

أما في الخارج : فقد عاصرت دولة البوسعيد في سنواتها الأولى الصراع الإنجليزي الفرنسي الذي كان قد وصل إلى أقصى مدى له في البحار الشرقية بصفة عامة والبحار العربية بصفة خاصة ، ولذلك حرص حكام البوسعيد محافظة منهم على استقلالهم ، على استغلال التنافس القائم بين الدولتين تأييدا لمركزهم وضمانا لإبقاء نفوذهم .

---

(١) د . جمال زكريا ، ص٥٧ –٥٩ .

(٢) د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص٥٠ .

(٣) د . جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٧م ص المقدمة .

وظل سلاطين البوسعيد خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر يتأرجحون بين صداقتهم لفرنسا من ناحية وصداقتهم لبريطانيا من ناحية أخرى ، ومحالفة إحداهما أحيانا أخرى إلى أن حدد سقوط المستعمرة الفرنسية في جزيرة موريس في عام ١٨١٠م مستقبل دولة البوسعيد في علاقاتها بالإنجليز الذين انفردوا منذ ذلك التاريخ بالسيطرة على بحار الشرق ، وبالتالي السيطرة على حكام البوسعيد[١] .

وساعدهم على ذلك انشغال فرنسا بالحروب النابليونية في أوربا ، فتمكنوا من تحطيم النفوذ الفرنسي في تجارة الشرق وانتزعوا من فرنسا معظم مستعمراتها في الهند وبعض المراكز التي كانت لها في بحار الشرق[٢] .

بداية اتصال العرب بشرق أفريقيا :

ترجع صلة العرب بشرق أفريقيا الى النصف الثانى من القرن الأول للميلاد كما يذكر ذلك المؤرخ بطليموس (اليونانى) ومنذ هذا التاريخ كانوا بدأوا يتاجرون مع شرق أفريقيا بالعاج والعبيد ووصلوا الى حدود (موزمبيق) وبعد ظهور الاسلام إزدادت هذه التجارة في شرق إفريقيا إزدياداً عظيما حتى إنقلبت في نحو القرن الثامن الى إستعمار حقيقى ، وتأسست في أوائل القرن العاشر (مقديشيو) – (باراكا) .

وساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة بين منطقة الجزيرة العربية وبين ساحل إفريقيا الشرقي ، لأن الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى تمكن السفن الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود ، ففى فصل الخريف تدفع الرياح الموسمية السفن في إتجاه شمالى شرقى تمكنها من العودة الى قواعدها في شبه الجزيرة العربية[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، المقدمة .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٦ .

(٣) د . جمال زكريا قاسم ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢ .

ومن الملاحظ أن العرب لم يقتصر نشاطهم على شرق إفريقيا وحدها وإنما اندفعوا بفضل حركة الرياح الموسمية إلى الشرق الأقصى حيث ثبت وجود عدة مستعمرات عربية في سواحل الهند والصين وجنوب شرقي آسيا ، وكان لأولئك العرب الفضل الكبير في نشر الإسلام في تلك البقاع .

وكما استفاد العرب من الرياح الموسمية كذلك استفاد الهنود منها الذين كانوا يفدون إلى هذه البلاد ، وكان لهم شأن في التجارة أيضاً مثل العرب وظلت أسرار الرياح الموسمية مع العرب والهنود الذين احتفظوا بها لأنفسهم إلى أن عرفها الإغريق ، وأشيع خطأ فضل اكتشافها لهم .

ولما جاء البرتغاليون إلى شرق أفريقيا كان العرب هم الذين أعطوهم أسرار هذه الرياح للوصول إلى الهند وكان الملاح العربي (أحمد بن ماجد) هو الذي قاد سفينة فاسكوداجاما إلى الهند سنة ١٤٩٨م ، وكانت هذه بداية الاستعمار الأوربي للبحار الشرقية في العصر الحديث كما كان من نتائج ذلك تحول تجارة الشرق من طريق الخليج العربي والبحر الأحمر وغيرها من الطرق البرية والبحرية القديمة الى طريق رأس الرجاء الصالح ومنه إلى أوربا .(١)

وشارك الفرس أيضاً في التوغل في أفريقيا ففي سنة ٩٧٥م جاء الفرس من (شيراز) وأسسوا مركزاً لهم هناك يُسمى (كليفا) وتوغلوا في السواحل إلى (روذيسيا) طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقي ووصلوا إلى (مقديشيو) و (باراكا) و (مالیندی) و (مومباسه) و (زنجبار) و (بمبا) عند (دار السلام) الحالية وغيرها من الموانى والمدن وأصبحت هناك إمارات فارسية صغيرة بين الإمارات العربية.

ولما جاء الاستعمار إلى تلك البلاد وجدوا فيها المدنية الإسلامية مؤسسة ولها مراكز حضارية ، ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك بل

(١) المرجع السابق ، ص١٦-١٧ .

اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار الجزيرة العربية وفارس مثل المانجو والرمان والأترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندى والبهارات الهندية والأرز ، وجلبوا كثيراً من حيوانات بلدانهم .

وبقيت المدنية الاسلامية قروناً طويلة في هذه السواحل ، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل وعندما جاء البرتغاليون وضعوا حداً للدور الأول من مدنية العرب عندما إحتلوا (زنجبار) سنة ١٥٠٣م (وباراكا) سنة ١٥٠٤م و(كليفا) سنة ١٥٠٥م و (مونباسا) سنة ١٥٠٥م وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التى تأتى من الهند ووضع اليد على معادن الذهب في (سفالا) ، وأصبح البرتغاليون هم السادة في تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر .

وفي سنة ١٧٥٠م بدأ عرب سواحل عمان بقتال البرتغاليين وإجلائهم من ساحل عمان أولاً، كما ذكرنا ذلك من قبل عندما تحدثنا عن دولة اليعاربة ، فلما أجلوهم من سواحلهم في عمان هاجموهم في مستعمراتهم بالهند وفي شرق أفريقيا وأعادوا فتح مراكزهم التى أسسوها في شرق إفريقيا من جديد وهى (زنجبار) و (بمبا) و (مونباسه) وغيرها في آواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

ثم إن حروباً داخلية في عمان حملت السلطان (سعيد) على تحويل مركزه وعاصمته الى (زنجبار) ثم صار (ماجد) إبنه سلطاناً لشرقى إفريقيا وإبنه الآخر (توينى) سلطاناً في مسقط وهذا في نحو سنة ١٨٥٦م ثم توفى (ماجد) وخلفه أخوه (برغش) ، وفي أيام هذا السلطان بدأت الحوادث التى إنتهت الى تقسيم هذه السلطنة العربية وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية التى استمرت الى آخر القرن التاسع عشر قد تمكنت من التوغل في داخل إفريقيا أكثر من جميع الدول التى قبلها .

ولم تكن التجارة هى الدافع للعرب على هذا النشاط بل الزراعة أيضاً التى كان العرب يستجلبون لها العمالة من داخل البلاد ، وازدادت تجارة الرقيق بازدياد

النشاط الزراعي ونمو الزراعة في السواحل وأسس العرب في الداخل مدينة (طابورة) وغيرها ووصلوا الى الكونجو الأعلى وأسسوا فيها مدناً وقرى وكانت لهم هناك قوات عسكرية مسلحة لحماية قوافلهم ولا شك أن العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الافريقية .

وانتشر الاسلام مع المدنية العربية في تلك الأصقاع أينما ذهب العرب ، في الصومال وكينيا وأوغندا وموزمبيق والكونجو . [1]وأصبح سكان هذه الديار هم خليط من العرب والعجم والهنود والأفارقة .

ولما بدأت ألمانيا تكوين بعض الشركات الاستعمارية في شرق افريقيا كان ذلك على حساب سلطنة عمان ، ففى ٨ من أبريل سنة ١٨٨٨م أستأجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان (زنجبار) مكوس السواحل ، فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب ومعهم الأفارقة ثورة عظيمة لكراهيتهم للجنس الأوروبي وكان قائد هذه الثورة الشيخ (أبو شيرى) لحن الألمان أخمدوا هذه الثورة في سنة ١٨٩٠م ، وتمكن الجيش الألمانى بمساعدة الأسطول من غزو هذه البلاد والتمكن منها وإستعمارها [2].

عهد سعيد بن سلطان بن أحمد ١٨٠٦-١٨٥٦م:

سعيد بن سلطان هو أبرز شخصيات أسرة البوسعيد ، ويعتبره البعض [3] من الشخصيات الهامة في تاريخ العرب الحديث ، وأهم ما قام به هو أنه قام بتجربة فريدة من نوعها ، وهى إنشاء أول دولة عربية إفريقية في شرق إفريقيا ، ولم يحظ باهتمام كاف من المؤرخين العرب ، وربما كان ذلك راجعا الى بعد بلاده والمناطق التى زاول فيها نشاطه ، أو لأن الكتاب المعاصرين الآن قد يقللون من تقديره باعتبار أنه استسلم للسياسة البريطانية ، وكان في بعض الأحيان أداة لتقوية نفوذها ، هذا على

---

(١) لوثروب ، حاضر العالم الاسلامى ، من مقال للأمير شكيب أسلان بعنوان شرقى إفريقيا ، ج٣ ص٦٩-٧٧

(٢) المرجع السابق ، ج٣ ، ص٧٤ -٧٥ .

(٣) د . صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢٣ .

الرغم من اهتمام المؤرخين الغربيين بحياة السيد سعيد لمنجزاته في شرق أفريقيا ولأن الأوربيين استفادوا من تمهيد العرب لتلك المنطقة وفتحها للتجارة العالمية .

ولم تكن مشكلات السيد سعيد في عمان قاصرة على ثورات القبائل ، ووطأة الوهابيين من جهة واحات البوريمى وإقليم الظاهرة فحسب ، إنما تعرض حكمه لعصيان الحكام من أقاربه ، وأشهر حوادث العصيان هي تلك التي تزعمها (حمود بن عزان) في الثلاثينات ، وكان يحكم ميناء (صحار) الميناء الثاني في السلطنة بعد (مسقط) وهو يقع على مائة ميل شمال العاصمة ، وكان الانجليز قد قدموا تعهدا بمساعدة السيد سعيد على الاحتفاظ بممتلكاته الساحلية ، فتدخل الانجليز لمنع سقوط مسقط لكنهم لم يذهبوا الى حد اسقاط حكومة (صحار) وقد استندت هذه الحكومة الى المعارضة الإباضية المعادية للنفوذ الأجنبي .

وبدأت سياسة بريطانيا تتغير بالنسبة للتدخل في داخل الجزيرة وذلك عندما جاء التوسع المصرى الى بلاد العرب ، فاتصل الانجليز مباشرة برؤساء قبائل النعيم والظواهر للتحالف ضد المصريين ، واجتمع مع رؤسائهم المقيم الإنجليزى في (العجمان) سنة ١٨٤٠م ووعدهم بالدفاع عنهم وزودهم بالأسلحة .

وفي سنة ١٨٤٤م عهد سعيد لابنه ثويني بإدارة مسقط واصبح في معظم الوقت في (زنجبار)وعين ابنه ماجد لإدارة (زنجبار) وحاول سعيد ضم البحرية إلى ممتلكاته ولكن بريطانيا رفضت .

وشهد سعيد في نهاية حياته تقلص ممتلكاته الآسيوية وبدأت تتفكك الدولة العربية الكبرى التي أنشأها أسرة البوسعيد فقد بدأت إيران في استعادة ميناء (بندر عباس) منذ ١٨٤٦م ، والتزمت بريطانيا الحياد في هذا النزاع ، وشددت إيران الحصار عليه في سنة ١٨٥٥م . وبعد وفاة السيد سعيد سنة ١٨٥٦م أصبح مركز العمانيين ضعيف به ، واحتل الإيرانيون الميناء سنة ١٨٦٨م .

الامتيازات الأجنبية في عمان :

في ٣١ من مايو سنة ١٨٣٩م عقدت بريطانيا معاهدة مع السيد سعيد لتنظيم التجارة والملاحة وتحديد الرسوم الجمركية ، وتقديم المساعدات الى السفن البريطانية التى تمر بموانى السلطنة ، وترتب على تلك المعاهدة إمتيازات قضائية في عمان للإنجليز ، فنصت المعاهدة على أن يتولى القنصل البريطانى الفصل في المنازعات التى تحدث بين الرعايا البريطانيين المقيمين في السلطنة ويؤخذ رأيه في القضايا التى تنشأ بين البريطانيين وبين العرب ، وكان هذا يسرى على الهنود رعايا انجلترا ، وكان عددهم يصل الى خمسة آلاف في عام ١٨٣٩م في موانى السلطنة ، وكانوا يسيطرون على التجارة الخارجية للبلاد .[١]

وبذلك دخلت الامتيازات القضائية في سلطنة عمان التى كانت تعانى منها الدولة العثمانية ، وظفرت فرنسا بمعاهدة مع السيد سعيد سنة ١٨٤٤م تمنحها نفس الامتيازات التجارية والقضائية التى نصت عليها معاهدة سنة ١٨٣٩م مع انجلترا .

تقسيم السلطنة :

في سنة ١٨٥٩م حاول (ثوينى بن سعيد) الاستيلاء على زنجبار ، وتوحيد السلطنة ولكن اعترض الانجليز ، وتوسطوا في الأمر في سنة ١٨٦١م بلجنة تحكيم حكمت باستقلال زنجبار عن السلطنة .

وذكرت اللجنة في تقريرها : أن الطريقة التى يتولى بها الحكم أعضاء الأسرة الحاكمة وهى أسرة بوسعيد إنما تقوم على أساس الانتخاب ، وإنه عقب وفاة سعيد بن سلطان انتخب أهالى (زنجبار) وملحقاتها إبنه السيد ماجد حاكما عليهم ، وعلى ذلك فليس هناك مبرر لمطالبة السيد ثوينى بالسيطرة على ممتلكات أخيه وينبغى إذن أن يبقى كل منهما سلطانا مكانه[٢] ، على أن يدفع حاكم زنجبار إعانة سنوية لحاكم

---

(١) المرجع السابق ، ص١٣٦ -١٣٧ .

(٢) د . جمال زكريا قاسم ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٦ .

مسقط لتعويض الفرق بين موارد (زنجبار) الكبيرة وموارد (مسقط) ، وهذه الإعانة لا تعني التبعية ونص التحكيم على ألا يتدخل عرب عمان في شئون شرق أفريقيا .[١] وهذا التحكيم هو الذي مهد لفرض الوصاية الانجليزية على كلتا الدولتين .

ويمكن الرجوع إلى كتابنا عن اليقظة الإسلامية في العالم الإسلامي لمعرفة نهاية سلطنة زنجبار العربية المسلمة التي ضمتها تنجانيقا إليها سنة ١٩٦٣م ، بعد مذبحة مروعة قضت على العرب في زنجبار بقتل بعضهم وإجلاء البعض الآخر إلى مسقط وعمان .

السواحليون :

لما اختلط العرب والفرس والهنود والأفارقة في شرق أفريقيا كونوا عنصرا جديدا يسمى (السواحليون) وأصبحت لهم لغة جديدة هي خليط من العربي واللغات الإفريقية والأردية الهندية والفارسية وهذه اللغة الجديدة تسمى (اللغة السواحلية) ونتج عن اختلاط العرب مع السود والفرس والهنود جنس جديد سمر الوجوه تقاطيعهم لطيفة وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتسلون دائما ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج ويختتنون لأنهم مسلمون ومن عاداتهم لبس البياض ويجعلون على رؤوسهم غطاءا أبيض وقد يلبسون الطربوش الأحمر ونساؤهم لا يتنقبن ولكنهن يأتزرن بشيء اسمه (الشقة) يغطي الجسم ويجعلون على الإلحاق شيئا اسمه (كسونو) وهم إجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى لا يشبهون في شئ سكان الداخل من الزنوج وعندهم أدب وكياسة ومن صفاتهم حسن المعاشرة وقرب الألفة وسرعة العاطفة والبر بالأهل والحنو على الأولاد ويحبون السكن بعضهم بقرب بعض ، ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التي بين بيوتهم نظيفة ويبنون بيوتهم صفوفا ويغرسون أمامها صفوفا من الأشجار الكبيرة وأينما وجد السواحلي اعتنى بغرس الشجر .

---

(١) د . صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٢ .

أكثر أعمال الحقول تقوم به نساؤهم فأما الرجال فيصطادون السمك ويتاجرون بالبضائع أو يحملون الأثقال وبالإجمال تعد هذه الأمة من الأمم الموصوفة بالوداعة وعندهم ميل إلى الطرب يحبون الغناء ويعزفون بالطبول .

اللغة السواحلية :

ومن أثار التواجد العربي اللغة السواحلية التي كان أهل ساحل شرق أفريقيا يكتبونها بالحروف العربية ، وأما الآن فتكتب بالحروف اللاتينية ، والسواحلية مزيج من العربية وعدة لهجات من لغة البانتو الأفريقية .

ومع ذلك فإن المفردات العربية تصل نسبتها في اللغة السواحلية حوالي ٢٢% بينما المفردات البرتغالية والإنجليزية أو الألمانية والإيطالية بالإضافة إلى الفارسية والهندية مجتمعة لا تتعدى نسبتها في السواحلية ٦% .

ولم يكن هذا الأثر للغة العربية الذي يعادل أضعاف الأثر الذي تركته اللغات الأجنبية الأخرى إلا وليد الاتصال السلمي الهادئ للعرب بإخوانهم الأفارقة على الساحل الشرقي الإفريقي .

وقد حاولت الدوائر الاستعمارية الألمانية والبريطانية وغيرها تحريم استعمال اللغة السواحلية في دواوين الحكومات في شرق أفريقيا .

ومع ذلك أوضح إحصاء أجراه (مسترولسن) ونشرته جريدة (الفلق) الصادرة في زنجبار في عدد ٣ من رجب ١٣٥٨هـ الموافق ١٩ من أغسطس ١٩٣٩م أن ٥٥ شخصا من بين ١٠٠ في جزيرة زنجبار يكتبون بالحروف العربية ، وشخصا واحدا يكتب بالحروف اللاتينية ، وسبعة أشخاص يكتبون بكل من الحروف العربية واللاتينية وسبعة وثلاثون شخصا أميا .

ولكن جهود المنصرين الآن تتجه إلى التربص بالمفردات العربية في تلك اللغة ، وهم بصدد إسقاط الأصول العربية بحجة الوصول إلى لغة سواحلية بانتوية خالصة [١] .

(١) عادل خفاجة ، الأثر العربي في اللغة السواحلية ، مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٥هـ يناير ١٩٩٥م .

مفردات من العربية في السواحلية :

في مجال شئون المترل : سقف . غرفة . صحن .

في مجال الأسرة : عم . بنت . صديق . أهل .

في مجال التجارة : بيع . فائدة . خسارة . رهن . رخيص . غال .

الأعداد : ستة . سبعة . عشرون . ثلاثون . أربعون . خمسون . ستون . سبعون . ثمانون . تسعون . مائة .

في مجال الدين: الزكاة.التوبة.الرحمة.الفجر . الصبح . الظهر (١).

والعربي العماني بدأ يقل وجوده هناك وكانت له هيئة جميلة جداً في زنجبار وتلك السواحل وكانت على العربي سيماء الشرف حتى إلى ما بعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسي والتجاري ، فلم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم ولا يعملون بأيديهم وهم يناظرون الهنود في التجارة وكانت منهم بيوتا غنية كثيرة لكنها هوت في الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب في تلك البلاد هم أشراف البلاد لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا ويرتدون ملابس بهية منها ما يسمونه (القفطان) وهو من الجوخ الأسود المطرز مفتوح من الأمام تحته قميص أبيض طويل يسمى (كانزو) ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرا محلى بالفضة وهم طوال القامات رشاق القدود سمر الألوان ظاهروا الرصانة تجد حركاهم كلهم موزونة بدون تملق بل بشئ من الإنقباض .

ويوجد صنف آخر من العرب إسمه (شحرى) نسبة الى الشحر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأهم فقراء يتاجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرون على مزاحمة الهنود في التجارة (٢) .

(١) المرجع السابق ، ذات المقال .

(٢) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى ج٣ ص٧٦ .

وقد تعرض الحكم العربي الاسلامي في المنطقة للضعف إثر وفاة (ماجد بن سعيد) عام ١٨٧٠م فخلفه أخوه الصغير (برغش بن سعيد) وأخذت السياسة الاستعمارية تنفذ الى المنطقة وتعمل على تقسيمها بين الدول الاستعمارية الكبرى ، فأخذت ألمانيا تنجانيقا بينما كان الإنجليز أصحاب النفوذ الأكبر في (زنجبار) وكانت سلطتها ضعفت إثر وفاة (برغش بن سعيد) عام ١٨٨٨م الذى شهد تقسيم بلاده في حياته وخلفه (سيد خليفه) ولما هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وقسمت مستعمراتها على الحلفاء والمنتصرين وكانت تنجانيقا من نصيب انجلترا بعد أن وضعت تحت وصاية عصبة الأمم .

وقد استقلت تنجانيقا عام ١٩٦١م وأصبحت ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الأنجلو فونية) أما سلطنة زنجبار فقد استقلت عام ١٩٦٣ ، وكان سلطانها سيد خليفة قد توفى سنة ١٩٦٠م وخلفه ابنه (جمشيد ابن عبد الله خليفة) وما أن تم الإستقلال حتى حدث انقلاب عسكرى برئاسة (عبيد كرومى) الذى نصب نفسه رئيسا لجمهورية زنجبار وخلع (سيد جمشيد) ونكبت الأسرة العربية التى كانت تحكم زنجبار وقتل أكثر من ١٦ ألف من العرب لأن الإنقلابيين عدو الأسرة الحاكمة أسرة دخيلة مستعمرة وقتل معهم ٥٤ ألف من المسلمين .

ولم تنته دسائس الاستعمار عند هذا الحد وإنما ضمت تنجانيقا اليها زنجبار في سنة ١٩٦٤م في إتحاد عرف بإسم (تانزانيا) تحت رئاسة (يوليوس نيريرى) الشيوعى رئيسا للجمهورية الاتحادية وعين (عبيد كرومى) نائبا للرئيس وأعلنت الحكومة أنها كشفت محاولة لفصل زنجبار عن تنجانيقا وادعت أن بعض المتآمرين كانوا من زنجبار وبعضهم الآخر من عرب كينيا ونفذت أحكام الإعدام فيمن أرادت التخلص منهم ممن وقعوا تحت قبضتها وبعد ذلك بقليل تم اغتيال (عبيد كرومى) نفسه [١] .

(١) د . محمد السيد غلاب وآخرون . البلدان الاسلامية والاقليات المسلمة في العالم المعاصر ص٥٤٢ -٥٤٥ .

البحرين

البحرين مصطلح تاريخي كان يشمل في صدر الإسلام كل المناطق في شرقي الجزيرة العربية والتي تقع بين البصرة وعمان بما فيها هجر المعروفة الآن بالإحساء ولهذا يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان عن البحرين : " البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند (الخليج) بين البصرة وعمان " [١] ، وعندما انتشر الإسلام في الحجاز والجهات المجاورة لها تقدم الإسلام إلى البحرين وكان يحكم البحرين (المنذر بن ساوى العبدي التميمي) الذي كان يحكم البحرين من قبل الفرس آنذاك بعد انقضاء اللخميين وكان المنذر على النصرانية ومعه قليل من عرب البحرين وكانت غالبية الشعب من الوثنيين مع قليل من المجوس واليهود.

وقد أرسل النبي عليه الصلاة والسلام رسالة إلى المنذر بحملها العلاء بن الحضرمي يدعوه إلى الإسلام هو وقومه ، وقد استجاب المنذر للإسلام وتبعه معظم جماعته ، وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أرتد أهل البحرين ما عدا "قبيلة عبد القيس" فأرسل أبو بكر خليفةِ رسول الله الى أهل البحرين لواء عليه "العلاء بن الحضرمي" لردهم إلى الإسلام ، وقد قيض الله لعبد القيس رجلا صالحا منهم هو "الجارود بن بشر العبدي" ، فقد محضهم النصح بقوله :

" إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتم ولا تجيبوني إن لم تعلموا"

قالوا : سل عما بدا لك .

قال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟

قالوا : نعم.

قال : فما فعلوا ؟

قالوا : ماتوا .

---

(١) معجم البلدان ، مادة " بحرين " .

قال : فإن محمداً صلوات الله عليه مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

فقالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنك سيدنا وأفضلنا .

وثبتوا على إسلامهم أما المرتدون هناك من بنى بكر وغيرهم فقد أتفقت كلمتهم على تمليك (المنذر بن النعمان) ، ثم قاموا لاستباحة حمى المسلمين من "عبد القيس" ، ونزل المرتدون بالقطيف وهجر ، وأشتد الأمر على المسلمين حتى جاءهم العلاء بن الحضرمى في جيش من المسلمين كما سبق أن أشرنا ، ولحق به جماعة ممن عادوا الى الاسلام من بنى حنيفة وبنى تميم.

ودارت الحرب بين الفريقين ، وخندق كل منهما على نفسه واستمرت المناوشات شهرا كاملا دون أن يتمكن أحد من الفريقين من التغلب على الآخر.

وفي ليلة شرب المرتدون فيها الخمر حتى سكروا وسمع جيش المسلمين لهم جلبة في معسكرهم فأرسل العلاء إليهم من يسطلع الخبر فعلموا أنهم شربوا الخمر وأن نشوة السكر هى التى دفعتهم الى ذلك الصياح ، وانتهز العلاء الفرصة وأصدر أمره لرجاله باقتحام خطوط الاعداء ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم الكثيرين ، وفر الباقون الى جزيرة في الخليج تسمى (دارين) وهى جزيرة البحرين الآن ، فخاض المسلمون الماء وراءهم يقتلون ويأسرون ، وأمتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، وكان المنذر بن النعمان ملك القوم وقائدهم من جملة الأسرى ، وكتب العلاء بن الحضرمى الى الخليفة أبي بكر الصديق يخبره بذلك النصر العظيم[١] .

وبذلك عادت البحرين الى الاسلام ولكن ظلت منطقة البحرين وبمعنى آخر شرقى الجزيرة العربية الإحساء وساحل الخليج والقطيف وقاعدته(هجر) والتى كانت تسمى قديما (الخطّ) وهو ما بين عمان والبصرة ظلت مكانا للخارجين على الدولة

(١) د . أحمد مجاهد مصباح ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٥٦ – ٥٧ .

الاسلامية وموطنا للزنادقة والنزاعين الى الفرقة الخارجين عن الجماعة وكان يسكنها جماعات من عرب ربيعة موتورين من الدولة الاسلامية ، ومعهم جماعات مهاجرة من السند منهم " الزط " وغيرهم خرجت من موطنها الأصلي إثر مجاعات أصابتها وذكرها الطبرى في معرض حديثه عن الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق [١] .

الخوارج في البحرين :

عندما ظهر الخوارج في الدولة الاسلامية على أيام الخليفة الرابع على بن أبي طالب كانت منطقة شرقى الجزيرة العربية ، البحرين مكانا ملائما لنشاطهم لبعدها عن مركز الدولة في العراق وفي الشام في العصر الأموى (٤١ - ١٣٢هـ) ، وفي بغداد في العصر العباسى ، ما بعد سنة ١٣٢هـ ولعدم أهميتها البشرية والاقتصادية ، ومن ثم أصبحت تموج بالفتن والاضطرابات ويلجأ إليها كل خارج عن الدولة .

ولهذا جذبت هذه المنطقة فرقة عاتية من فرق الخوارج وهى فرقة النجدات نسبه الى زعيمهم (نجدة بن عامر الحنفى) وقد نزل نجدة البحرين قادما من البصرة سنة ٦٧هـ فسالمته الأزد ، وحاربته قبائل عبد القيس فهزمهم وأقام نجدة بالقطيف ثم انتقل الى البحرين (الجزيرة) بعد أن دانت له المنطقة بأسرها .

وعندما أراد (عبد الله بن الزبير) أن يناوئ الدولة الأموية وينتزع الخلافة منها أرسل جيشا الى البحرين لإخضاع نجدة وأتباعه من الخوارج لكن نجدة هزم هذا الجيش سنة ٦٩هـ واستطاع نجدة أن يفرض نفوذه على مناطق الخليج بأسرها ، وعلى عمان وأخذ من أهلها الصدقة وكذلك على اليمامة والقطيف وصنعاء وحضرموت وغيرها .

واستطاع (نجدة) أن يصالح (عبد الله بن الزبير) سنة ٦٩هـ على أن يحج (نجدة) وأصحابه الى بيت الله الحرام في نفس السنة وأن يصلى كل واحد منهما بأصحابه ، لكن عندما عاد نجدة الى البحرين قطع الميرة عن أهل الحجاز.

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

وعندما سيطر (عبد الملك بن مروان) على الدولة الاسلامية وقضى على عبد الله بن الزبير اتصل بنجدة ومن معه من الخوارج وطلب منهم عبد الملك بن مروان أن يذعنوا بالطاعة للدولة الأموية ويوليه عبد الملك في مقابل ذلك على اليمامة ، ويهدر له ما سفك من دماء المسلمين ، لكن عارض أصحاب نجدة هذه العروض من عبد الملك وتمردوا على نجدة وولوا أمرهم (أبافديك) وقتلوا نجدة سنة ٧٢هـ وكان هذا الزعيم الجديد للخوارج من "بنى قيس بن ثعلبه" فسيطر على البحرين [١] واحتل مكانة نجدة الى أن تغلب عليه جيش لعبد الملك بن مروان بعد أن تغلب عبد الملك على عبد الله بن الزبير سنة ٧٢هـ .

وكان قتل (أبي.فديك الخارجى) سنة ٧٣هـ في معركة حامية قتل فيها معه أعداد كبيرة من أنصاره يذكر ابن الأثير أنهم ٦٠٠٠ مقاتل وتم أسر عدد كبير يذكر بن الأثير أيضا أنهم ٨٠٠ [٢] مقاتل .

ومع ذلك فإن أمر الخوارج لم ينته بالبحرين ، فقد خرج بها (المسعود بن أبي زينب العبدى) من زعماء الخوارج الأقوياء سنة ١٠٥هـ فغلب على المنطقة ، وظل له النصر بضع عشرة سنة وسار مسعود الى اليمامة فتصدى له (سفيان بن عمر العقيلى) ، فقتل سفيان مسعودا ومعه كثير من أصحابه ، واضطرب أمر الخوارج من بعده .

وفي العصر العباسى حاول العباسيون الهيمنة على البحرين فأرسلوا الولاة من طرفهم إليها ، ففى عهد المنصور(١٣٦– ١٥٨هـ)ثار في البحرين (سليمان بن حكيم العبدى) فوجه إليه المنصور جيشا بقيادة (عقبة بن مسلم) من البصرة فانتصر عقبة على ثورة سليمان بن حكيم وقتله هو وجماعته ، لكن ظل الخوارج

---

(١) انظر:الطبري ، مرجع سبق ذكره ج٦ ، ص ١٧٤ ، وانظر : أحمد شلبى ، ج٧ ، ص٥٥١ – ٥٥٤.

(٢) ابن الأثير ،الكامل في التاريخ ، ج٤ ، ص٢٨ .

يخرجون في البحرين في عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) .

وفي نهاية العصر العباسي الأول ضعفت قوة الخلفاء العباسيين وانتقلت السلطة الى الأتراك الذين استجلبهم المعتصم لمساندة الدولة العباسية ضد نفوذ الفرس ، وقويت حركات التمرد والثورات العنيفة ، وجذبت منطقة البحرين كثيرا من الحركات الارهابية العنيفة وأهم هذه الحركات حركة صاحب الزنج ، وحركة القرامطة .

حركة صاحب الزنج :

من الأحداث الخطيرة التي هددت الدولة العباسية على أيام (المعتمد) ثورة الزنج فقد ظهر في البحرين قبل عصر المعتمد سنة ٢٤٩هـ رجل مغامر يقال له (على بن محمد) واستقر في هجر [١] قاعدة البحرين .

وكان هذا الجزء يسمى قديما الخَطّ وهو ما بين عمان والبصرة ، وكان يسكنه من العرب جماعات هاجرت من السند منهم الزط والسيابجية خرجت من موطنها أثر مجاعات أصابتها وذكرها الطبري في معرض حديثه عن الردة في عصر أبي بكر ، (ج٣ ، ص٣٠٣) ، واختلف في أصل صاحب الزنج ، فهو يدعى أنه ينتسب إلى على بن أبي طالب ، ويذكر بعض المؤرخين أنه من أصل فارسي[٢] ، وأكثر المؤرخين يرون أنه من (قبيلة عبد القيس) التي تنتمي إلى ربيعة [٣] ومن ا(لعجيب أن الطبرى وابن

---

(١) هَجَرُ : تستعمل في [illegible] البدوي من باديته إلى المدن وهى من الهجران كأنهم يهجرون ديارهم وينتقلون عنها إلى قرى جديدة ، وهجر بلغة حمير والعزب العاربة القرية فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان ، وهجر هنا كانت قاعدة البحرين ، وربما قيل هجر في البحرين كلها (ياقوت ، معجم البلدان) وفي القاموس المحيط اسم لجميع أرض البحرين ، وعندما بنى الملك عبد العزيز آل سعود قرى القبائل العربية للاستقرار بها أطلق عليها " هجَرُ " .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

(٣) الطبري ، ج٩ ، ص٤١٠ ، وابن الأثير .

الاثير يقولان أن أهل البحرين أحلوا هذا الدعى من أنفسهم محل النبى وجمعوا له الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا الدولة بسببه .

ولكن بعد فترة اختلف أهل البحرين بشأنه وتقاتلوا فانتقل عنهم الى الأحساء ، وولى قيادة رجاله رجل من البحرين يقال له (سليمان بن جامع) وهو رجل أسود كان مولى لبنى حنظلة جعله قائداً لرجاله ، وفي البداية كان يجهر بانتمائه الى البيت العلوى ثم تخلى بعد فترة عن انتمائه الى العلويين ، ويظهر أنه لم يكن على علم بعقائد المذهب الشيعى ، وبدأ يجهر بعقائد مذهب الخوارج وتظاهر به لأنه يتلاءم مع ميول أتباعه الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة الذى يقوم على التوريث والحق المقدس .

وعندما ذهب الى البصرة دارت في ذهنه فكرة خطيرة وهى أن يستغل العبيد السود في منطقة (البصرة) و(واسط) فقد كانت هذه المنطقة تعج بآلاف الزنوج الأفارقة الأرقاء والأجراء لدى كبار الملاك ، وكانوا يعملون في إصلاح الأراضى التى تحـ ـن الى اصلاح وفي نقل السباخ وفي مزارع القصب [1] في خوزستان وبصفة عامة يعملون في الأعمال الشاقة ، فلوح لهم بالحرية وأنه سوف يخلصهم من آلامهم ويتولاهم بالرعاية ، وادعى أنه رسول العناية الإلهية لتحرير العبيد السود .

واتصل بعبد توسم فيه الذكاء يسمى (ريحان بن صالح) وعده بالقيادة ليجمع له كثيرا من الأرقاء ممن يتوسم فيهم القوة والاستجابة لدعوته ونجحت فكرته في تجميع آلاف من الأرقاء الآبقين حوله وصل عددهم ١٥٠٠٠ من الرقيق السود الذين حررهم من أسيادهم وخطب فيهم ووعدهم بالحصول على المال والجاه ، وأقسم لهم ألا يغدر بهم أبداً وذكر أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت ، وأمر بكتابة الآية الآتية على رايته :

---

(١) كانت خوزستان منتجة لقصب السكر ، وقد أتى هؤلاء الزنوج من سكان الساحل الشرقى الأفريقى الذين قدموا الى خوزستان وجنوب العراق عن طريق جنوب جزيرة العرب وعمان ومكران وكرمان على الساحل الفارسى (موريس ولومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، ص٤٠ – ٤٢).

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة : ١١١) .

وأول هذه الآية بأنهم المؤمنون ، وأنهم قد اشتروا أنفسهم ولن يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية .

وقد استغل الزنوج الثائرون منطقة البطائح أو المستنقعات في العراق الأدنى قرب البصرة وهى ظاهرة تكثر في العراق في عصور الفوضى وإهمال مشاريع الرى وحفر الأنهار الصغيرة فتسيل المياه وتكثر المستنقعات التى تسمى البطائح بلغة أهل العراق ، وتنموا فيها غابات صغيرة من نبات البوص والغاب أو ما يسمى أحياناً بالقصب ، ويطلق على هذه الغابات الصغيرة المحاطة بالمياة الكثيرة " الأهوار" [١] وهى عبارة عن بحيرات صغيرة بها ممرات صالحة لملاحة القوارب الصغيرة الخفيفة الحاملة للأفراد .

وقد استغل الزنوج الثائرون هذه الأهوار والتجأوا إليها أثناء ثورتهم وتمردهم ، وحاربوا من فوق قواربهم المسطحة ومن أكواخهم المستترة بين دغيلات الغاب وبنى لهم عاصمة بداخلها تسمى " المختارة " على نهر أبي الخصيب[٢] ومن العجيب أنهم كانوا إذا أسروا بعض الأشخاص كانوا يسترقونهم ويوزعونهم على بعضهم ، ولم يتحرر هؤلاء من أيديهم الى بعد انتهاء حركتهم ، ولم تستطع قوات الدولة أن تنال منهم في البداية بسبب استطاعتهم في المناورة وقدرتهم على المراوغة في هذه المستنقعات .

وقد أرسلت الدولة إليهم بعض قواتها فهزموها واتجهوا نحو (البصرة) في سنة ٢٥٥هـ فاقتحموها ونهبوها ثم خربوها واتجهوا الى (الأبلة) المقابلة لها فاحرقوها

(١) الأهوار جمع هور ، والهَوْرُ : بحيرة يفيض فيها ماء غياض فتتسع ويكثر ماؤها. (ياقوت معجم البلدان).
(٢) سمى بذلك نسبة إلى مولى من موالى الخليفة المنصور يسمى أبو الخصيب .انظر بلدان الخلافة ،ص ٦٩

واستولوا على (عبَّادان)[1] والأهوار سنة ٢٥٦هـ ، ثم أوقعوا بأهل البصرة مرة أخرى سنة ٢٥٨هـ فأرسل إليه الخليفة جيشاً آخر بقيادة " موسى بن بغا " سنة ٢٥٩هـ فلم يستطع أن يفعل شيئا أيضا .

ولم تتغلب عليهم الدولة إلا في عام ٢٧٠هـ بعد أن قاد " الموفق " جيوش الدولة عدة مرات ، وذلك بعد أن نشروا الخراب في كثير من النواحي بالبحرين والإحساء وجنوب العراق واستمرت ثورة الزنج ما يقرب من خمسة عشر عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ)وسقط فيها من الضحايا مليونان ونصف في رواية ابن طباطبا في الفخري ومليون ونصف في رواية السيوطي في تاريخ الخلفاء [2] .

وصفوة القول أن الدولة تخلصت من شر هذه الجماعة المدمرة التي استغلت سيطرة الأتراك على الدولة وعبثت بالأمن وقطعت الطرق وأحرقت الأخضر واليابس في البحرين وجنوب العراق ، فنجح الموفق في القضاء عليهم وقتل زعماءهم .

لكن لابد من كلمة حق تقال بشأن هذه الثورة ، وهي تفشي الظلم للعبيد السود في هذه الفترة واستغلالهم دون الرقيق الأبيض في أخس الأعمال وهي نقل السباخ إلى مزارع القصب وإصلاح الأراضي وكانوا يلاقون من الإرهاق والتعب ما يقضي على إنسانيتهم ولا ينالون في المقابل إلا القوت الضروري أي أنها كانت أعمال سخرة لحساب أسيادهم .

وبمجرد أن لوح لهم (على بن محمد) بالتحرر استجابوا لدعوته لشدة ما يعانون من ظلم ، وظهرت عليهم علامات الانتقام من أسيادهم فكانوا كلما أسروا أحدا من الجيوش التي تهاجمهم كانوا يسترقونهم انتقاما منهم ، ولذلك فإن ظلم أسيادهم هو الذي دفع الزنوج العبيد إلى الثورة ولو أعطى الأسياد الأرقاء حقوقهم التي فرضها الإسلام لهم لما وقع مثل هذه الثورة .

---

(١) عبّادان : تنسب إلى رجل أيام الحجاج يسمى عبّاد ، وعلى طريقة أهل البصرة يزاد ألف ونون عند النسب إلى شخص فيقال : زيادان في زياد وبلالان في بلال (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٢) انظر أخبار الانتصار عليهم في : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٩ ، ص٦٥٤ – ٦٦٧ .

حركة القرامطة :

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن حركة القرامطة بالبحرين وشرقي الجزيرة العربية أن نشير في عجالة سريعة إلى أصول الحركة الباطنية لأن حركة القرامطة جزء من الحركة الباطنية .

أصول الباطنية :

يعد تاريخ الحركة الباطنية من الموضوعات الشائكة في التاريخ الإسلامي بسبب قيام الدعوة الباطنية على السرية التامة بسبب خوفهم على أنفسهم من رجال الدولة العباسية ، وهذا ما اضطرهم أيضا إلى تغيير أسمائهم عدة مرات خوفا من انكشاف أمرهم ، ومن ثم نجد اختلافا كبيراً في أسمائهم في شتى المصادر، وبصفة عامة فإنهم لجأوا الى التخفى في أعمالهم كلها بسبب ما نالهم من مطاردة وحاربوا أعداءهم سراً في غالب الأحيان ولا يحاربون جهراً إلا إذا كانوا قادرين .

وهم بذلك يختلفون عن الخوارج فقد كانوا ظاهرين في حروبهم ، وغلبت على الخوارج الطبيعة البدوية في الصراحة ، ومن ثم كان أكثرهم لا يقول بالتقية أما الباطنية فقد قالوا بالتقية وكانت أساساً في عقيدتهم وعقيدة غيرهم من الشيعة، والتقية هي النفاق السياسي والمداراة للأعداء وقت قوتهم ، وهى أن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، وقال الخوارج إن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب العقيدة .

أما أهل السنة فقالوا : من خاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده ، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه [1] – مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

---

(١) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٤ .

ومن السمـ ـ البارزة للحركة الباطنية في مرحلة الستر أن كل إمام كان يحمل أسمين : اسما حقيقيا وآخر سريا أو حركيا [١] .

ونظم الدعوة الباطنية في البداية جماعة من الخارجين الفرس على الدولة العباسية الذين آذاهم ما حدث من الدولة العباسية لزعمائهم مثل أبى سلمة وأبى مسلم ، وفشلت حركاتهم العلنية في النيل منها ، ومن ثم فكروا في الاتصال بالعرب الشيعة الغاضبين على العباسيين وقاموا بتعزيز حركاتهم سراً للنيل من الدولة العباسية وكان ذلك أيام أبى جعفر المنصور ، ووجد الشيعة في الموالى الفرس المتذمرين والحاقدين على الدولة مفكرين أقوياء قادرين على التنظيمات السرية بنفس الدرجة التى كانت عليها سرية الدعوة العباسية عندما واجهت الدولة الأموية ، ودخل كثير من الفرس الحاقدين على العباسيين الى هذه الحركة السرية الشيعية التى أطلق عليها فيما بعد الحركة الباطنية لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سراً ، ولأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أى المستور ، ولقولهم فيما بعد " إن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويل " كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعاتهم بإمامة (إسماعيل بن جعفر الصادق) وهو الإمام السابع في نظرهم وليس هو (موسى الكاظم) كما يرى الاثنى عشرية .وقام بالدعوة الباطنية في البداية (أبو الخطاب الأسدي) بالولاء واسمه محمد بن أبي زينب وكنيته أبو الخطاب فارسي الأصل ، وكان نشاطه بالكوفة فقتله عيسى بن موسى والى الكوفة سنة ١٤٣هـ وقال عنه أنه ادعى أن جعفر الصادق إله.

وكان معه في الدعوة منذ قامت رجل فارسي آخر هو (ميمون القداح) المكنى بأبي شاكر ، وكان متفنناً في درس الأساطير الدينية والبحوث الكلامية والجدل ـسفي ومتآمراً جريئاً ، وكان ميمون في الأصل مجوسيا من سبي الأ ـاز[٢] أظهر إسلامه وبدأ حياته الإسلامية مولى (لجعفر الصادق) ، وكان داعيا لآل البيت ، ثم

---

(١) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص ٣٥٣ .

(٢) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٩٣ .

قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة في أواخر عهد المنصور ، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبهم الشهير بمذهب الباطنية أو الإسماعيلية ، وخرج ميمون من السجن وانتشرت دعوته في جنوب فارس وجنوب العراق وتوفى ميمون سنة ١٧٠هـ وترجع المصادر الإسماعيلية نسبه إلى سلمان الفارسي [١] والواقع أن تاريخ نشأته يكتنفها الغموض والإبهام .

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده (عبد الله) الذى كان على غرار أبيه في الذكاء والبراعة فنظم الدعوة ويقال إن هذه الجماعة اتخذت من بلدة(ساباط)[٢] من أعمال المدائن القديمة مركزاً لدعوتها حينا من الدهر ، وعلمت به الدولة العباسية فطاردتهم فانتقلوا الى (البصرة) .

وكانت (البصرة) مركزاً لالتقاء الفكر الاسلامى بهذه الأفكار لأنها أدنى مدينة عربية الى فارس وتقع على باب الصحراء التى يفر إليها ويتخذها حمى له كل خارج مخالف للخليفة . فقد كانت البصرة بحكم موقعها الجغرافى ملتقى رجال الشرق الوثنى من فرس وهنود وديلم بمفكرى الاسلام . فيها التقت المانوية والزرادشتية والمزدكية والبرهمية وغيرها من تلك النحل القديمة التى جاء الاسلام يغزوها بدينه الفطرى السهل[٣] .

كانت البصرة مأوى لكل من يكيد للاسلام والخلافة لقربها من بلاد الفرس، فتجمعت فيها أخلاط من الفرس والديلم والعرب وغيرهم ولم ينس الفرس والديلم ما كان لهم من ديانات فتآمروا على الإسلام ووجدوا الأنصار قريبا منهم في الأهواز وفارس ، وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية أو البحر الخليج حتى تتاح لهم فرصة أخرى.

---

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص ١٣٩ .

(٢) قيل إنه أى ميمون جاء أولا من مكة وانتقل الى الأهواز ، وقيل إنه جاء من محل الأهواز يدعى قورج العباس ونزل عسكر مكرم ثم ذهب الى ساباط أبي نوح . المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) عمر الدسوقي ، اخوان الصفا ، ص٨٩ .

في هذه [illegible] التي تتصارع فيها الأجناس والأفكار والعقائد ظهرت قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية :

أحدهما : **قوة الفاطميين** التي انتقلت فيما بعد إلى مقر سري بالشام هو قرية (سَلمْيَة) من أعمال حمص التي أضحت موئل الإسماعيلية ومجمع أسرارهم في فترة الدعوة السرية حتى ظهورهم باليمن والمغرب .

الأخرى : **قوة القرامطة** ، وهى منظمة عاتية من قطاع الطرق ظلت بالبصرة ، وانتقل رجالها الى شرقي الجزيرة العربية بالبحرين والأحساء واليمامة عندما أصبحت لهم قوة تقف معهم من القبائل العربية ، وكان لهم فرع بالشام .

فبعد وفاة (عبد الله ميمون القداح[1])قام ابنه أحمد بترتيب الدعوة ، فبعث بالحسين الأهوازي داعية له بالعراق فالتقى (بحمدان بن الأشعث) المعروف (بقرمط) في سواد الكوفة فدعاه إلى مذهبه فأجابه وقام حمدان بأمر الدعوة بالكوفة وإليه تنسب القرامطة[2] .

ويذكر البغدادى في كتابه الفرق بين الفرق : " أن الذين راجت عليهم أفكار الباطنية أصناف ثلاث :

أحدهما : العامة الذين قلت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والأكراد وأولاد المجوس .

---

(١) تــوفى عــبد الله بن ميمون القداح بعد سنة ١٨٠هـــ وكان مولى لمحمد الباقر كما كان والده مولى لجعفر الصادق وتقول المصادر الشيعية بأن معنى القداح [illegible] الذى ينشر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . وهناك تناقض في السنين فبعض المصادر تجعل ميمون وابنه معاصرين لجعفر الصادق واسماعيل ، وبعضها تقول إن عبد الله عاش في آواخر القرن الثالث الهجرى (الفهرست طبعة طهران ، ص٢٣٨) فيذكر الفهرست أن عبد الله كان حياً سنة ٢٦١هـــ .

(٢) حمــدان قـــرمط أصله من خوزستان ، واختلف في اسمه قيل : حمدان وقيل الفرج بن عثمان وقيل الفرج بن يحيى، أما (قرمط) فهو لقبه لحمرة في عينه ، أو لقرمطة في شكله أو مشيته توفى سنة ٢٩٣هـــ (الزركلى الأعلام) وانظر : احسان الهى ظهير ، الإسماعيلية ، ص٩٧ . ومصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ،ص٢٨ — ٢٩.

ثانيهما : الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عودة الملك إلى العجم .

ثالثهما : إغتام بنى ربيعة من أجل غيظهم على مضر لخروج النبي منهم ، ومن أجل حسد ربيعة لمضر بايعت بنو حنيفة (مسيلمة الكذاب) طمعاً في أن يكون في بنى ربيعة نبي كما في بنى مضر نبي [1](ولهذا قال قائلهم لمسيلمة : والله إنى أعلم أنك لكاذب ومحمد الصادق ولكن كاذب ربيعة أفضل عندنا من صادق مضر) .

وكان دعاة الباطنية يدخلون إلى المدعوين من مدخل سهل تبع ميولهم وعلى العموم فقد كان مدخل "محبة آل البيت" والأخذ بيدهم لأنهم ظلموا هو المدخل السهل ، ويذكر البعض[2] أن التشيع لآل البيت أصبح مأوى يلجأ إليه من أراد هدم الإسلام لعداوة وحقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم .ويُرْوى أن أبا طاهر بعد سفكه الدماء بمكة وعودته إلى البحرين " جمع الناس بالبحرين ، وقال : يا معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم ، مرة بمحمد ، ومرة بعلي ، ومرة بإسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد بن إسماعيل ، وبالمهدى " ثم أشار الى الداعى زكريا الطامى وقال " وهذا إلهنا وإلهكم ، وربنا وربكم "[3]
ومع ذلك فإن أبا طاهر لم يلبث أن قتل إلهه هذا (زكريا الطامى) عندما حاول زكريا الأنفراد بالأمر .

---

(١) البغدادى الفرق بين الفرق ، ص٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص٢٧٦ .

(٣) أخبار القرامطة ، لسهيل زكار . ص١٥٣ ، طبعة دار الكوثر الرياض ١٩٨٩ .

انتقال الحركة الباطنية الى سَلَمْيَة :

ليس معروفا باليقين متى انتقلت الحركة الباطنية الى سلمية ، وإن كانت المصادر الإسماعيلية تنص على أن الانتقال تم في سنة ١٩٤هـ[١] ، وعلى كل حال فعندما انتقل نشاط الباطنية الى سلمية بالشام بدأ نشاط مكثف للدعوة الباطنية في دور الستر الذى استمر حتى سنة ٢٩٦هـ فيما يتعلق بإعداد الدعاة وتوجيههم وإرسالهم الى شتى النواحى .

وسَلَمْية تقع على حافة بادية الشام تلتقى عندها الطرق الآتية من البادية ومن العراق وهى تابعة لحمص بينها وبين حمص ٣٥ ميلاً ، وينطقها أهل الشام " سَلَمِيَّة " ويضبطها ياقوت في معجم البلدان " سَلَمْيَة "[٢] .

وأنشأت الحركة في سلمية مدرسة سرية لتخريج الدعاة الذين تمرسوا في فنون المناظرة والجدل ، وتذكر المصادر الإسماعيلية التي ظهرت مؤخراً بأن الأموال والذخائر كانت تنقل إلى سلمية بواسطة الدعاة ، وتم حفر سرداب في الصحراء حتى داخل بيت الإمام طوله خمسة عشر ميلاً ، وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل وتنزل فيه بأحمالها عليها حتى تحط في داخ الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرادب بالتراب فلا يدرى به أحد وقيل إن الأموال التي كانت تصل إليها عظيمة جداً ، وهكذا أصبحت (سلمية) مركزاً رئيسياً للدعوة الباطنية مما ساعد على إنتشارها بسرعة في الشام والجزيرة العربية والعراق والمغرب نظراً لسرعة وسهولة تحرك الدعاة منها إلى هذه الأماكن، وكان المخطط الكبير لهذه الدعوة هو (عبد الله بن ميمون القداح) وأبناؤه من بعده .

---

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، ص١٤٩ .

(٢) معجم البلدان ، مادة سلمية .

حركة القرامطة بالبحرين :

كانت حركة القرامطة هى التى ظهرت أولاً في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى على يد ثلاثة رجال هم :

١. الرجل الأول : هو حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط وأصله من خوزستان واختلف في اسمه ، فقيل (حمدان) ، وقيل (الفرج بن عثمان) وقيل (الفرج بن يحيى) وقرمط لقبه لقرمطة في شكله أو دقة في مشيته أو لحمرة في عينيه ، وكان مركز نشاط حمدان في (بلاد السواد الكوفة) وما حولها ، وهو الذى نسبت إليه حركة القرامطة كلها بشتى فصائلها في شرقى الجزيرة العربية وبادية الشام .

٢. الرجل الثانى : هو (أبو سعيد الجنابي) داعى (البحرين) في شرقى الجزيرة العربية ، وهو منسوب الى (جنابة) على الشاطىء الفارسى للخليج [1] ، وهو مؤسس دولة القرامطة في البحرين وسميت دولته بالقرامطة لأنه أخذ الدعوة الباطنية من حمدان قرمط .

٣. الرجل الثالث : هو (زكرويه بن مهرويه) الذى تولى الدعوة في بادية الشام وبعض بلاد الشام ، وهو بذلك مؤسس حركة القرامطة في هذه الجهات وأخذت لقب القرمطى لأنه هو الذى اختاره للدعوة الباطنية .

وصادفت حركة القرامطة نجاحاً كبيرا بين القبائل العربية وعلى الأخص في شرقى الجزيرة العربية وبادية الشام ، وذلك لأن القبائل العربية كانت ناقمة على الدولة العباسية بسبب موقفها من العرب فلم تشركهم في جيوش الدولة وشئونها فقلت هجرتهم الى خار[illegible] في القرن الثالث الهجرى بالإضافة الى قلة الخيرات في الصحراء ، كل هذه الظروف ساعدت حركة القرامطة والنفوذ الفاطمى في التغلغل بين القبائل العربية التى قلت بصائرهم بمرامى الحركة الباطنية وخطورتها على الاسلام.

---

(١) جنابة : بلدة صغيرة على سواحل فارس بينها وبين سيراف أربعة وعشرون فرسخا أنظر ياقوت معجم البلدان مادة جنابة .

ولم يلبث أن أختفى (حمدان قرمط) في تاريخ مجهول ، وقد اشتدت حركة القرامطة عنفاً بعده ولا سيما عندما نجحت في استمالة بعض القبائل القوية والعنيفة مثل (بنى هلال) و(بنى سُليم) و (طيئ) و (بنى عقيل) ، وتمكن الجنابيون من أن يهجروا معهم بنى هلال وبنى سليم الى البحرين ، وكانت الخلافة العباسية هى المركز الذى تنصب عليه نقمة القرامطة ، فقد وصفوها بأنها مصدراً لكل شر ومنبعاً للظلم ورمزاً للطغيان والفساد ولذلك تعاون الجميع على إسقاطها وتدميرها وتحطيم كل ما قام بها وارتبط بها وتفرع منها ودعمها وساندها[1] وهذا الموقف النفسى هو الذى يفسر لنا موجة العنف العارمة التى بدأ بها القرامطة مسيرة الإرهاب أو الثورة ضد الدولة العباسية وتطاير شرهم فنال الآمنين في الأراضى المقدسة في مكة والمدينة وطريق الحجاج ، وعلى الأخص في عصر المقتدر (٥٩٢-٣٢٠هـ) .

فقد شهدت سنوات حكم المقتدر هجمات قادها (أبو طاهر الجنابي) خليفة (أبي سعيد الجنابي) حيث وجه ضرباته الى أماكن حساسة بالنسبة للسلطة في بغداد ، ففى سنة ٣١٧هـ دخلوا مكة بزعامة (أبي طاهر الجنابى) وقتلوا من الحجاج وأهل مكة أعداداً لا يتناولها الحصر قيل في بعض الروايات أنها بلغت ثلاثين ألفاً ، وأخذوا الحجر الأسود وفروا به الى مركزهم في البحرين وتوسط الفاطميون لديهم فردوا الحجر الأسود الى مكة سنة ٣٣٩هـ .

وحدث انشقاق بين القرامطة وإمام الإسماعيلية حتى قبل قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧هـ وتمرد جماعة زكرويه بن مهرويه ببادية الشام على أوامر الخليفة الفاطمى ، وبدأوا يعملون لحسابهم في بلاد الشام وتصادموا مع الفاطميين والجنابيين .

وبعد وفاة أبي طاهر القرمطي (٣٣٢هـ) خلفه ابن أخيه (الحسن الأعصم) وفي عهده حدثت حروب بين القرامطة والفاطميين للنزاع على الشام سنة ٣٥٨هـ

(١) انظر : مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٨٧ ، مقال بعنوان القرامطة .

وهاجم الحسن الأعصم دمشق سنة ٣٦٠هـ واستولى عليها وهاجم مصر واقترب من القاهرة ومعهم جماعة من (طيئ) على رأسهم (حسان بن الجراح) ، وجماعة من (بنى عقيل) على رأسهم (ظالم بن موهوب) العقيلى سنة ٣٦٣هـ [١] لكن المعز فرق جموعهم بعد أن استمال زعماء بني طيئ والعقيليين بالمال والمناصب في دولته .

عقائدهم :

ويحدثنا ناصر خسرو الذى زارهم في مركزهم بالأحساء عن عقائدهم فيقول : "وسلطانهم أبو سعيد ردهم عن الاسلام وقال : إني أعفيتكم من الصلاة والصوم ودعاهم الى مرجعهم لا يكون إلا إليه ، ... وهم لا يصلون ولا يصومون ولكنهم يقرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته ، ... وليس في مدينة الحسا مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة أو خطبة ، وإذا صلى أحد فإنه لا يُمنع ، ولكنهم أنفسهم لا يصلون ، ويجيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع ولا يشربون (يعنى الخمر) مطلقا "

" وفي الحسا تباع لحوم الحيوانات كلها : من قطط وكلاب ، وحمير وبقر وخراف وغيرها " ويقول ناصر خسرو عن البدو :

" وعندى أن كل البدو يشبهون أهل الحسا ، فلا دين لهم ومنهم أناس لم يمس الماء أيديهم مدة سنة ، أقول هذا عن بصيرة ، لا شيئ فيه من المغالاة ، فقد عشت في وسطهم تسعة أشهر دفعة واحدة لا انقطاع بينهما[٢] " .

ولقد ظهرت في الآونة الأخيرة دراسات تحاول أن تتناول تاريخ القرامطة من جديد وإلقاء الضوء عليهم بطريقة محايده وخاصة أن الذين كتبوا تاريخهم هم أعداء القرامطة ونقلت الكتب ما قاله أعداؤهم .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٦٤ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص٣٣٤ ، ٣٣٥ من أخبار القرامطة لسهيل زكار .

ويذكر هؤلاء أن القرامطة كانت لهم نظم سياسية واقتصادية وعسكرية و اجتماعية لا بأس بها وجديرة بالدراسة ، وأن ما قاموا به من حب للتدمير وسفك للدماء كان جديرا بأن يقضى على دولتهم في وقت قصير كما حدث لحركة الزنج لولا هذه النظم التى حمت الدولة وأطالت عمرها إلى حوالي القرنين[1] .

ويتحدث الدكتور أحمد شلبى عن نظمهم فيقول :

" ففي مجال النظام السياسى كان هناك مجلس شورى هو الذى يدرس أمور الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويتخذ فيها القرارات التى يراها ن وكان هذا المجلس يسمى مجلس " القعدانية " ويتكون من أبرز الشخصيات في النواحى السياسية والعسكرية والإدارية ، وكان عدد أعضائه أثنى عشر عضوا . أو ستة في بعض الروايات .

ومن الناحية الاقتصادية وضع القرامطة نظاما أقرب الى ما يسمى الآن بالنظام الاشتراكى ، أو حتى النظام الشيوعى . إذ جعلوا الدولة تملك كل شئ ، وتنفق على الرعايا حسب حاجتهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة جمعوا أموال كل قرية في موضع واحد منها ، وأقاموا على الأموال رجلا من الثقات ، يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم ، حتى لم يبقى في البلاد فقير ولا محتاج .

ويذكر عارف تامر أن القرامطة لم يكن عندهم ضرائب ولا أعشار ، وإذا احتاج أحدهم أعانة الآخرون ، وكل غريب ينزل أرض القرامطة وله صناعة كان يعطى ما يكفيه من المال ليشترى ما يلزم لإنهاض صناعته من مال وآلات ، وكانت عندهم بيوت لسكنى الغرباء على حساب المجموع .

---

(١) أحمد شلبى ، مرجع سبق ذكره ، ج٧ ، ص ٦١١ .

وفي الناحية العسكرية أدرك القرامطة أن إخلاص الجند يرتبط بمدى إغداق الأموال عليهم ، ومن هنا كان سخاؤهم الواسع على رجال جيشهم ، وعلى البدو الذين كانوا يساعدونهم في الحروب .

أما الجيش القرمطى ، فقد عنى أبو سعيد بوضع الأسس التي توفر له جيشا يجمع بين الإخلاص والولاء وحسن التدريب ، وعلى هذا كان يختار من سن الرابعة من تبدو عليه الصحة والعافية ، ويجمعهم في دور مخصصة لذلك ، ويعين لهم المشرفين والمعلمين ، وكان يَسِمُ هؤلاء الأطفال بسمة على الخدود حتى لا يختلطوا بغيرهم ، فإذا شبوا قدم لهم دراسات في ركوب الخيل والطعان ، فكان هذا النظام أشبه بما أسماه الأتراك فيما بعد بالجيش الانكشارى ، ولم يكن جيش القرامطة على هذا النمط يعرف إلا الولاء الكامل للدولة وللزعيم .

وفي الناحية الاجتماعية عرف المجتمع القرمطى نظام الطبقات ، وكان يتكون من طبقة الحكام ، ولهم السيطرة على النظم الادارية وقياده الجيش ، " وطبقة العرب " وكانوا يكونون العنصر العسكرى في الدولة ، وطبقة العمال والفلاحين ، وهؤلاء يزاولون التجارة وبعض الحرف ، ومن أهمها الزراعة .[1]

ولا شك أن انحراف القرامطة الدينى جعل كثيرا من الكتاب يتناول تاريخهم من الناحية الدينية ولا يتناول تاريخهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى والعسكرى وما الى ذلك من أوضاع داخلية لهم ، ومن الكتاب الذين بدأوا يلقون الضوء على هذه الجوانب المؤرخ السورى المعاصر (سهيل زكار) في كتابه " أخبار القرامطة " .

ثم لم تلبث أن فقدت حركة القرامطة قوتها ، فقد هاجمهم البويهيون في عقر دارهم في الأحساء بمعاونة زعيم من بنى المنتفق الذين كانوا ينزلون جنوب العراق

---

(١) أحمد شلبى ، مرجع سبق ذكره ، ج٧ ، ص٦١٢ – ٦١٣ .

يعرف بالأصفر سنة ٣٧٨هـ ونهبوا القطيف وبذلك انتهت حركتهم عملياً في أواخر القرن الرابع الهجرى [١] .

ويعدها البعض في عداد الدول لأنها سيطرت على المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية نحو قرنين من الزمان ، إلا أننا نعتبرها منظمة إرهابية أشاعت الخراب والفوضى والدمار في شتى أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ، وما فعلته بالأراضى المقدسة لا يقوم به مسلم ينتمى الى الاسلام ، فهم جماعة من قطاع الطرق تحللوا من جميع الحدود والقيود الإسلامية .

نهاية القرامطة :

عندما ضعفت حركة القرامطة قضى عليها بعض الزعماء العرب في منطقة البحرين ، أمثال (عبد الله بن على العيونى) الذى ينسب الى منطقة العيون بالأحساء وهو من بنى عبد القيس ، فثار على القرامطة في الأحساء واستطاع أن يقضى عليهم فيها سنة ٤٦٩هـ .

وفي جزر البحرين ظهر (البهلول محمد بن يوسف) وكان في بدايته عاملا للقرامطة في جزر البحرين يؤدى إليهم المكوس ، فلما ضعف أمر القرامطة بسبب صراعهم مع الأحساء تمكن البهلول من الاستقلال بهذه الجزر .

وخرج على القرامطة في القطيف (يحيى بن عباش) ، وطرد منها عمال القرامطة واستولى عليها ، ولم يعد للقرامطة بها نفوذ ، وكون كل واحد من هؤلاء لنفسه إمارة بعيدا عن نفوذ الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وانتهت بذلك دولة القرامطة في ٤٦٩هـ بعد حوالى قرنين من الزمان [٢] .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٣٧٨هـ .
(٢) أحمد شلبى ، ج٧ ، ص٦١٠ - ٦١١ .

ثم حدث تنافس شديد بين هؤلاء الزعماء انتهى بسيطرة العيونيين على المناطق الثلاث الجزر والأحساء والقطيف وكونوا دولة العيونيين وهى إمارة وراثية دامت أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان (٤٧٠ - ٦٣٠هـ) .

النفوذ الفارسى :

عندما ضعف أمر العيونيون تدخل ملوك الفرس في أمر البحرين واستولوا على البحرين والأحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج وكان ملوك الفرس يولون أمراء من العرب .

النفوذ المصرى :

وبدأت منطقة البحرين الواسعة في التفكك والانقسام بعد عصر العيونيين وفي غضون ذلك كان الزحف المغولى المدمر لشرقى العالم الاسلامى ودخولهم بغداد سنة ٦٥٦هـ وخضعت منطقة البحرين للمغول في عهد هولاكو ، ولكن مصر أنقذت العالم العربى من شر المغول وتمت هزيمتهم في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٩هـ على يد القائد سيف الدين قطز والقائد الظاهر بيبرس المملوكين .

وبدأ حكام منطقة البحرين يعترفون بالولاء لحكومة مصر طيلة عهد المماليك حتى جاء القرن العاشر الهجرى (١٦م) ومعه الزحف العثمانى والزحف الاوربى .

النفوذ العثمانى والأوربى :

عندما نجح البرتغاليون في الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح بدأوا في دخول الخليج العربى في سنة ٩١٣هـ لإحكام السيطرة عليه وغزو المراكز التجارية وأهمها من الجنوب الى الشمال (قلهات) وقريات ، ومسقط ، وصحار ، وخورفكان ، وهرمز ، والبحرين ، والقطيف ، والبصرة ، وقضوا على مملكة هرمز الاسلامية التى كانت تتحكم في مدخل الخليج طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالى . وتخضع لها غالب الامارات الممتدة من البحرين والقطيف حتى الساحل العمانى .[1] وحول

(١) العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص٩-١٠ .

البرتغاليون التجارة عن مجراها التقليدى ، فحرمت منطقة الخليج من مصدر أساسي من مصادر ثروتها .

وفي نفس الفترة زحف العثمانيون على العالم فاحتلوا الشام في ٩٢٢هـ (١٥١٦م) واحتلوا مصر في سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وضموا الحرمين والحجاز واليمن إليهم في سنة ٩٢٣هـ واحتلوا العراق سنة ٩٤١هـ واتصلوا بالخليج عن طريق (البصرة) وأصبح وجود البرتغاليين يهدد سلامتهم . وتقدمت الدولة العثمانية فاحتلت الإحساء قبل وصول البرتغاليين إليها في سنة٩٤٣هـ .

وبدأ العثمانيون يهتمون بمنطقة الخليج بعد أن كان البرتغاليون قد أكدوا سيطرتهم عليها ، وحاولت الدولة العثمانية الدفاع عن العالم الاسلامى في هذه المنطقة، وذلك مثل الدور الذى لعبته الدولة العثمانية في وجه الغزو الأسبانى لحوض المتوسط .

غير أن الشاطئ العربى كان خلوا من الكيانات القوية أو أى تنظيم سياسى يشبه الدولة حتى تعتمد الدولة العثمانية عليه في حماية المنطقة من التدخل الأجنبى وذلك مثلما فعلت في شمال أفريقيا .

وكان هدف البرتغاليون في الخليج الهيمنة العسكرية في كلا الشاطئين الفارسى والعربى ، وعندما أتى الانجليز والهولنديون كانوا يبغون أصلا التوسع في الأعمال التجارية مع فارس والعراق وهى الأقطار التى ينتشر فيها العمران ، أما الشاطئ العربى من عمان الى العراق فكان يخضع لحياة قبلية وكانت هذه الحياة لا تحقق شيئا من مصالح الشركات الاحتكارية ، وفي القرنين ١٧،١٨ بدأت تظهر قوى وطنية هامة في الساحل العربى كالسعوديين في الأحساء وآل الصباح في الكويت وآل خليفة في قطر والبحرين واليعاربة والقواسم في ساحل عمان .

ويرجع أصل هذه الأسر الى قبائل العتوب التى خرجت من نجد الى ساحل الخليج فاستقر فرع من العتوب في ميناء الكويت تحت زعامة (أسرة الصباح) ،

وفرع آخر في الزبارة المواجهة للبحرين تحت زعامة (آل خليفة) بينما فرع ثالث هو (الجلاهمة) سكن قطر .[١]

وكانت أسرة اليعاربة في عمان هى القوة التى ظهرت أولا في الخليج لمقاومة البرتغاليين في مطلع القرن السابع عشر الميلادى ، وارتبط قيام أسرة اليعاربة بإحياء نظام الامامة الإباضية ، وتمت البيعة للامام (ناصر بن مرشد اليعربى) سنة ١٦٢٤م فوحد عمان وبدأ مقاومة الوجود البرتغالي حتى تم لليعاربة إجلاء البرتغاليين من الخليج وفي سنة ١٦٥٠م أخرجوهم من (مسقط) وتتبعوهم في الهند وشرق أفريقيا ، وتمكنوا من إقامة دولة لهم في شرق أفريقيا وقد تناولنا ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن عمان .

(١) صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص٥٦-٥٧ .

اليمن

نقصد باليمن هنا اليمن بمعناه الواسع قبل أن يتم تقسيمه إلى شمالي وجنوبي بعد دخول الاستعمار البريطاني إلى عدن سنة ١٨٣٩م . وبهذا المعنى يحتل اليمن الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ويقع بين خطي عرض ١٢-١٨ شمالاً وتحيط به المسطحات المائية العريضة فيحده من الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب البحر العربي وخليج عدن . ويغلب على تضاريس اليمن الطابع الجبلي وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام تمتد موازية للبحر الأحمر تقريبا [١].

١ - إقليم تهامة اليمن :

وهو أمتداد لتهامة الحجاز وهى منطقة سهلة ساحلية منخفضة يتراوح ارتفاعها فوق سطح البحر من ١٥٠-٢٠٠م ويمتد من حدود المملكة العربية السعودية شمالاً الى باب المندب جنوبا بين ساحل البحر الأحمر والمرتفعات الجبلية ، ويتراوح عرضها بين ٤٠-٦٠كم وتحتوى على تربة خصبة صالحة للزراعة وتتوفر فيها المياه الجوفية الى جانب مياه الأودية المنحدرة من الجبال نحو البحر الأحمر ، ويتميز مناخ هذا الاقليم بارتفاع درجة الحرارة لقربه من خط الاستواء كما ترتفع في نفس الوقت درجة الرطوبة، وتتراوح معدلات الحرارة صيفاً بين ٤٠-٤٥ْم وشتاء بين ٢٥-٣٠ْم أما الأمطار فهي قليلة .

وتعتبر تهامة أهم منطقة زراعية متصلة في اليمن ، حيث تجود بها زراعة التبغ والقطن ، ولذلك اشتهرت مدينة زبيد أهم مدن تهامة بصناعة المنسوجات ، وأحيانا يكثر النخيل ببعض أجزائها .

---

(١) ويذكر أحمد حسين شرف الدين أن اليمن من الناحية الطبيعية يشمل أيضاً : عُمان والعروض واليمامة والبحرين وعسير ونجران والمخلاف السليماني . أنظر : اليمن عبر التاريخ ، ص١٤ .

٢- المرتفعات الجبلية :

وهى تلى تهامة شرقا وهى امتداد لجبال السراة التى تبدأ في فلسطين وتنتهى في اليمن موازية لتهامة والبحر الأحمر ، وتنقسم من حيث الارتفاع الى قسمين : القسم الجنوبي : ويبلغ ارتفاعه من ٦٠٠-١٥٠٠م فوق سطح البحر ، والقسم الشمالى : ويبلغ ارتفاعه من ١٥٠٠-٣٥٠٠م وتكثر المرتفعات بهذا القسم كما توجد به أعلى جبال شبة الجزيرة العربية على الإطلاق وهى قمة جبل النبي شعيب (٣٧٦٠م) وتقع غربى صنعاء والمرتفعات الجنوبية طقسها معتل ولا يوجد بها فرق كبير بين النهايتين الصغرى والكبرى لدرجة الحرارة ، وتغزر الأمطار بهذه المنطقة مما يترتب عليه وفرة في النباتات ويزرع بها البن والقات وغيرهما من المزروعات وخاصة في الأراضى التى ترتفع فوق ٨٠٠م ، حيث تبدأ زراعة المدرجات التى اشتهر اليمنيون بزراعتها طوال التاريخ.

أما القسم الشمالى . فتشتد به البرودة وتنخفض درجة حرارته أحيانا تحت الصفر وخاصة في الليل مثلما يحدث في صنعاء وتغزر الأمطار في هذه المنطقة فتصل الى ١٠٠٠مم في السنة في بعض الجهات ، ومنطقة المرتفعات ليست جبلية وعرة بوجه عام بل هى هضبة عالية يتخلل جبالها كثير من الوديان والسهول التى تجود بها الزراعة مثل : الحبوب والفواكه والخضر .

٣- المنطقة الشرقية:

وهى تمتد بشكل موازى لمنطقة تهامة وتبدأ الى الشرق من صنعاء بحوالى ١٠كم ويقل ارتفاعها عن سطح البحر كلما اتجهنا شرقاً حتى تنتهى الى صحراء الربع الخالى ، ومناخ هذه المنطقة معتدل بوجه عام وتقل المياه والنباتات بها كلما اتجهنا شرقاً ، ويمكن زراعة كثير من الأراضى بهذه المنطقة إذا توفرت المياه اللازمة فهذه المنطقة هى التى أقيم بها سد مأرب المعروف في تاريخ اليمن القديم وتسمة منطقة الجوف . (١)

---

(١) الجوف وتعنى الداخل .

واليمن غنى بنباتاته وبالحياة الزراعية ، فهو أكثر جهات شبه الجزيرة العربية اخضراراً ولذلك أطلق عليه اليونانيون القدماء (العربية السعيدة) أو اليمن السعيد[١] ، ويرجع ذلك الى وفرة أمطاره ووفرة مياهه الجوفية ثم خصوبة تربته البركانية ، ويضاف الى ذلك نشاط شعبه واتقانه زراعة المدرجات الجبلية .

وينقسم أهالى اليمن الى :

سهليين وجبليين ، وقد أدى هذا الانقسام إلى وجود اختلافات طبيعية وسلوكية بين السكان هناك ، فقد عرف الجبلى بالنحافة وكثرة الحركة و شدة الحيوية ، كما اتصف بالذكاء والحذر من الغرباء والشك فيهم ، وذلك على عكس السهلى الذي يميل إلى البدانه والاسترخاء والركون والراحة والمسالمة ولين العريكة . ولا يقتصر وجود السهليين على مناطق تهامة أو أكثر مناطق الشرق أو الجوف بل يمكن أن نعتبر أن أغلب أهالى جهات جنوب الهضبة من السهليين أيضا ففي هذه الجهات لا ترتفع الجبال كثيراً، كما أنها مناطق تشتهر باعتدال مناخها ووفرة أمطارها ونباتاتها .

وقد كانت الجبال الشمالية المرتفعة ملجأ حصيناً يلجأ إليه العصبيات السياسية والدينية ، كما هو الحال بالنسبة للمناطق الجبلية دائما في الجهات المختلفة من العالم ، ولذلك لم يكن غريباً أن يبدأ ظهور المذهب الزيدى في اليمن في مدينة (صعدة) في أقصى الشمال ثم ينتشر بعد ذلك فوق المناطق الجبلية الشمالية فقط ، كما ظهر الصليحيون [٢] وهم كذلك من الشيعة من غير الزيديين في جبال (حراز) الشامخة الارتفاع إلى الغرب من صنعاء .

وكان لوقوع اليمن على الطريق التجاري القديم أثر في تاريخه ، فقد كان البحر الأحمر منذ القدم هو طريق الاتصال بين الشرق والغرب تجاريا وثقافيا وحضاريا ،

---

(١) وقد اشتق اسمها من (اليُمن) وهو الرخاء والبركة . المصدر السابق ، ص١٤ .

(٢) تمكن هؤلاء من إقامة دولة قوية لهم في أغلب جهات اليمن في القرن الخامس الهجري واتصلوا بالفاطميين في مصر ودانوا لهم بالطاعة والتبعية .

الأمر الذى جعل أبناء اليمن يتفوقون في مجال التجارة البحرية ، وكان اليمنيون القدماء يترحون باستمرار وراء التجارة في جماعات صغيرة لتكوين الجاليات أو المستعمرات على طول طريق القوافل القديم إلى شمال الجزيرة ، و إلى شرقي أفريقية و إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، ولم يحد من نشاطهم البحري خارج الجزيرة العربية سوى الهجمة الأوربية حول العالم الإسلامي التي بدأها البرتغاليون وغزوهم للبحار الشرقية عندما نجحوا في اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول أفريقيا في مطلع القرن العاشر الهجري (١٦م) . كما ارتبط نتيجة موقعه أيضا بمصر والحبشة والحجاز سواء عن طريق العلاقات التجارية الودية أو عن طريق الخضوع والولاء .

والشعب في أغلبه عربي قحطانى مسلم مع وجود بعض العناصر الزنجية والصومالية في إقليم تهامة ، ويبلغ الزيديون في اليمن ما يقرب من نصف السكان يتركزون في المنطقة الشمالية والجبلية ومنهم كان أئمة اليمن قبل قيام الحكم الجمهوري . ويتركز السنيون الشافعية في الجنوب والغرب ، وقد أدى تمركز السنة في الجنوب والزيديون في الشمال إلى ازدياد التقسيم في البلاد والذي أصبح واضحا بعد احتلال البريطانيين لعدن سنة ١٨٣٩م . ويعتبر القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي بداية لتاريخ اليمن الحديث بسبب تحول التجارة العالمية الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين وما ترتب على ذلك من صراع بين القوى الأوربية الذين جاسوا خلال الديار وبين القوى الإسلامية وتصدع البناء الاقتصادي في اليمن والذي كان يعتمد على اشتغال أهالي اليمن بالتجارة العالمية بين الشرق والغرب [١] .

اليمن في صدر الإسلام :

كانت بلاد اليمن في مقدمة بلاد الجزيرة العربية استجابة للإسلام ، فما كاد صوت الدعوة الإسلامية يبلغ إلى اليمن حتى توافدت وفود اليمن على رسول الله

---

(١) د . السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، ص٩ .

صلى الله عليه وسلم ودخل أهل اليمن في دين الله أفواجا حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام في حقهم : " الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة ، الايمان يمانٍ والحكمة يمانية " .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى اليمن (على بن أبي طالب) كرم الله وجهه الى صنعاء وبعث (معاذ بن جبل) إلى الجند للدعوة إلى الإسلام وقد استجاب لهما أهل اليمن ودخلوا الاسلام جميعا .

وقد قسم اليمن اداريا في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد الأمويين والعباسيين حتى القرن الثالث الهجري إلى ثلاثة أقسام أو مخاليف حسب تعبير ذلك العصر ، والمخلاف : مثل المحافظة في مصر وهي :

مخلاف صنعاء : ويشمل المناطق اليمنية الجبلية الشمالية .

مخلاف الجند : ويشمل المناطق الجنوبية بما في ذلك تهامة وعدن .

مخلاف حضرموت : ويشمل منطقة حضرموت في الجنوب الشرقي من اليمن .

وفي عهد الخلفاء الراشدين استمرت مسيرة أهل اليمن في الاسلام وحين دعاهم أبو بكر الصديق الى الجهاد نهضوا معه وأشتركوا في طلائع المجاهدين الذين فتحوا الاصقاع الاسلامية في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا ووصل عدد هؤلاء المجاهدين على أيام أبي بكر ما يزيد على العشرين ألفا بكامل سلاحهم وعتادهم.[1]

وفي عهد الدولة الأموية كان لهم جهاد واضح على أيام (عبد الملك بن مروان) وبنيه حيث ذهب المجاهدون من اليمن إلى إسبانيا وجنوب فرنسا والى تخوم الصين شرقا ،وكانوا أهم أنصار الدولة الأموية ومن قادتهم المشهورين (عبد الرحمن الغافقي) بطل الفتح الإسلامي في إسبانيا سنة ١١٢هـ وأمير الأندلس (السمح بن مالك الخولاني) فاتح قرطبة ومؤسس الإمارة فيها سنة ٩٨هـ .

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ١٧١ –١٧٢ .

وكان لليمنيين دور كبير في تدعيم ملك (عبد الرحمن الداخل) الأموي في الأندلس سنة ١٣٨هـ الذي فر عقب قيام الدولة العباسية إلى الأندلس فأنشأ فيها دولة مستقلة وأتخذ قرطبة مركزا لخلافته التي استمرت حتى سنة ١٧٢هـ[1] .

وظلت اليمن تابعة للدولة الأموية وكان الأمويون يرسلون الحكام إليها منذ عام أربعين هجرية حتى سنة ١٣٢هـ حينما سقطت الدولة الأموية وعندما قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ ظلت اليمن تابعة للدولة الإسلامية في العصر العباسي ، وبلغ عمال العباسيين الذين تعاقبوا على اليمن من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢٠٢هـ ما يزيد على أربعين عاملا وكان آخر هؤلاء العمال على تهامة (محمد بن عبد الله بن زياد) الذي بعثه المأمون إلى اليمن سنة ٢٠٢هـ على إثر تمرد قبيلة الأشاعرة فتمكن من القضاء على تمردهم وإرجاع الأمور إلى مجراها الأصلي وقد استقر بتهامة وأسس مدينة (زبيد) وجعلها عاصمة له وأسس دولة مستقلة باليمن تسمى دولة بنى زياد التي استمرت تحكم في اليمن من ٢٠٥هـ إلى ٤٠٢هـ ، ومحمد بن عبد الله بن زياد من نسل زياد بن أبيه الذي خدم الأمويين من قبل .

وقد ظهرت الدول المستقلة في اليمن نتيجة ضعف الخلافة العباسية وتفككها في القرن الثالث الهجري وذلك كما حدث في باقي جهات العالم الإسلامي وأولى هذه الدول في الظهور هي دولة بنى زياد الذي أسسها (محمد بن عد الله بن زياد) سالف الذكر .

دولة بنى زياد :

وعلى ذلك تعتبر أول دولة انفصالية نشأت في اليمن هي (دولة بنى زياد) خلال حكم الخليفة المأمون ، وحاول (محمد بن عبد الله بن زياد) أن يحكم اليمن كله سواء في منطقة الجبال أو في تهامة ، وقد استطاع بن زياد أن يمد نفوذه في تهامة إلى ما يلي جيزان شمالاً كما استولى على عدن وحضرموت إلى الشحر شرقاً ، ثم أتجه إلى

---

(١) المرجع السابق ، ص١٧٣ .

الجبال فاستولى على " الجند " و " صنعاء " و" صعده " و " نجران " شمالا ، ولم يستمر نفوذ بن زياد في المنطقة الجبلية إلا حوالي عشرين عاما فقط ، إذ تمكن (بنو يعفر) من إقامة دولة لهم في هذه المنطقة في سنة ٢٢٥هـ .

دولة بنى يعفر :

وكانت الدولة الثانية هي دولة (بنى يعفر) وهى ثانى دولة نشأت في اليمن خلال حكم الدولة العباسية ، وبنو يعفر ينسبون أنفسهم إلى التبابعة من ملوك حمير الذين أنشأوا دولة في هضاب اليمن ، وقد استولى بنو يعفر على صنعاء سنة ٢٢٥ هـ بزعامة (ابراهيم بن يعفر) واتخذوا صنعاء عاصمة لهم ، وقد استمر حكم إبراهيم بن يعفر حتى سنة ٢٦٠هـ ، وكان أطول سلاطين بنى يعفر مدة في الحكم هو (أسعد بن أبي يعفر) الذى استمر حكمه من ٢٨٢هـ الى ٣٣١هـ ، واستمر حكم بنى يعفر حتى سنة ٣٩٣هـ وكان آخرهم (أسعد بن عبد الله بن محمد بن قحطان) ، وقد مد بنو يعفر نفوذهم الى (الجند) جنوبا والى (صعده) و(نجران) شمالا وتحاربوا مع الولاة العباسيين مدة طويلة حتى إضطر الخلفاء العباسيون إلى الاعتراف بنفوذهم في اليمن فجعلوا لهم الولاية في صنعاء وقد امتد حكم هذه الدولة أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان .

دولة بنى نجاح من (٤٠٣ - ٥٥٥هـ) :

كان بنو نجاح ينتمون الى الأحباش فقد كان نجاح جدهم مولى لبنى زياد وبعد موت آخر حكام بنى زياد وهو (الحسن بن سلامه) قام بأمر الدولة الأمير نجاح وأعلن نفسه سلطانا على تهامة وراسل الخليفة العباسى ببغداد معلنا ولاءه وطاعته للدولة العباسية فأجازه والياً على تهامة باليمن .

دولة بنى صليح الشيعية باليمن:

تنتمى هذه الدولة الى مؤسسها (على بن محمد الصليحى) وكانت هذه الدولة همها إرساء قواعد مذهب الباطنية الذى أرساها من قبل في اليمن (على بن الفضل

القرمطى) و (منصور بن فرج بن حوشب) الذى جاء الى اليمن للدعوة لعبد الله المهدى وبعث معه على بن الفضل فخرجا معا الى مكة ثم افترقا فقصد منصور (عدن لاعه) في جهة (حجه) باليمن .

وسبب توجه الباطنية الى اليمن التضييق عليهم في الشام والعراق وصعوبة محاربة الدولة العباسية في عقر دارها فرأوا في اليمن أماكن مناسبة لأنتشار الدعوة الباطنية وذلك لمناعة جبالها من ناحية ومن ناحية أخرى لبعدها عن مركز الدولة العباسية ومراقبتها.

ويرجع الفضل في قيام هذه الدولة الشيعية في اليمن إلى رجلين : الأول: هو (بن حوشب) وهو الحسين بن فرج بن حوشب وهو المشهور في تاريخ الحركة الفاطمية بلقب (منصور اليمن) ويرجع إليه الفضل في النجاح الذي حققته الدعوة الفاطمية في اليمن فقد قام بمهمتة في سنة ٢٦١هـ وكان يقود الحركة الفاطمية في إقليم اليمن ويشرف على تنظيمها في أقاليم أخرى ، فهو الذي أشرف على إرسال الداعى المشهور (أبو عبد الله الشيعي) إلى المغرب وأرسل بعض أتباعه إلى السند وذلك بعد أن شك الإمام في سلوك القرامطة من بنى الجنابى وذكرويه بالشام [١] .

وكان أول نزول ابن حوشب في (عدن لاعه) وهى قرية من أعمال صنعاء بجبل يسمى جبل صبر ، وحقق نجاحاً في هذه المناطق الجبلية التى كانت تابعة لبنى يعفر سادة هذه المناطق والذين كانوا يعلنون ولاءهم للعباسيين ، وكلف بن حوشب من طرفه داعيا يمنيا هو (على بن الفضل) لكى يقوم بالدعاية الفاطمية في تهامة اليمن واستطاع الرجلان تحقيق إعلان دولة فاطمية باليمن سنة ٢٩٤هـ قبل إعلانها بالمغرب [٢] .

---

(١) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص٣٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٠٧ - [illegible] .

والرجل الثاني: الذي يرجع إليه الفضل الأوفر في أنتشار المذهب الفاطمى باليمن والمغرب هو رجل يسمى (الحسن بن أحمد بن محمد بن ذكرويه الشيعى) ويعرف بأبي عبد الله الشيعى الصنعائى [1] ، كان في بداية حياته يعلم الناس المذهب الاسماعيلي بالبصرة فطلبه إمامه (عبيد الله المهدى) الموجود في مخبئه في سَلَمْيَة بالشام ، لكي يذهب الى الداعية بن حوشب باليمن ليدرس عليه ويساعده في حركته ثم يذهب بعد فراغه من الدراسة الى المغرب ، وبعد أن أتم (أبو عبد الله الشيعى) مهمته باليمن ألتقى في موسم حج سنة ٢٨٨هـ ببعض الحجاج من البربر من قبيلة "كتامة" فصاحبهم الى المغرب ومن هنا أنتقل جناح من الحركة الفاطمية من اليمن الى المغرب ، لكن يعتبر نشاط (ابن حوشب) باليمن أقوى نشاط باليمن .

وكان نشاط (على بن الفضل) قويا أيضا في أرض اليمن حيث قصد أرض يافع فاشتدت وطأته باليمن واستولى على أكثر مخاليفه ولا شك أنه أرسى قواعد المذهب الفاطمى باليمن وكان يطلق عليه أهل اليمن عبارة الزندقة ، ولا يزال باليمن بقايا الاسماعيلية ولا سيما في (حراز) وهم الذين صدروا هذا المذهب الى الهند ومن اتباعهم جماعة (البهرة) الذين هاجروا الى الهند .

وقد حكمت دولة بنى صليح باسم الفاطميين من سنة ٤٣٩هـ حتى سنة ٥٣٢هـ وكان آخر حكامهم الملكة (أروى بنت أحمد بن جعفر الصليحى) والتى كان يقال لها (بلقيس الصغرى) لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك وحكمت من سنة ٤٩٢هـ حتى سنة ٥٣٢هـ وانتقلت من صنعاء الى مدينة (ذى جبله) التى تبعد عن (تعز) ٨٠كم في جهة الشمال الشرقى وجعلت جبلة مقرا لها ويمكن القول أن السيدة الملكة أروى حكمت معظم البلاد اليمنية وقبضت على ازمة الأمور بيد من حديد منذ سنة ٤٨٤هـ حتى سنة ٥٣٢هـ والفترة التى تقع بين ٤٨٤حتى سنة ٤٩٢هـ كانت تشارك فيها زوجها (المكرم الصليحى) أى أنها

---

(١) يذكر ابن خلكان عنه أنه من أهل صنعاء وكان من الدهاة .

حكمت ما يقرب من نصف قرن ضربت فيها أروع الأمثال من الحزم والثبات والحكمة والعدل وسداد الرأى .

وللملكة أروى أعمال كثيرة في اليمن منها بناء جامع (ذى جبله) وعمارة الجناح الشرقى للجامع الكبير بصنعاء وتبليط مدينة ذى جبله بالأحجار ، وغير ذلك من المساجد ومعاهد العلم وحبست عليها الأوقاف الكبيرة التى أوقفتها على هذا المساجد والمعاهد وكذلك على الخيرات والصدقات ورواتب العلماء والمرشدين والمدرسين [١].

دول أخرى باليمن :

ومن الدويلات التى انتشرت باليمن في هذه الفترة العباسية دولة (بنى زريع) التى حكمت في عدن وما حولها في الفترة من ٤٧٠الى ٥٦٩هـ ، ودولة (بنى حاتم) التى أنشأها (حاتم بن على الهمدانى) في صنعاء وما جاورها ، وحكمت هذه الدولة في الفترة من ٤٩٤-٥٦٩هـ ، ودولة (بنى مهدى) التى تنسب الى مؤسسها (على بن مهدى الحميرى) واستمرت هذه الدولة التى حكمت في "زبيد" وما حولها في الفترة من ٥٥٣ حتى ٥٩٦هـ .

ودولة بنى أيوب :

في الفترة من ٥٩٦الى ٦٢٦هـ وكان صلاح الدين الأيوبى الذى قضى على الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ قد انتشر نفوذه في الحجاز واليمن وحاول إحلال المذهب السنى بدلا من المذهب الاسماعيلى وإدخال مصر تحت حكم الدولة العباسية ، وكان صلاح الدين قد أرسل أخاه (توران شاه) الملقب بشمس الدين الى اليمن ومعه قوة كبيرة ووصل الى (زبيد) في سنة ٥٦٩هـ وقضى على دولة بنى زريع في عدن وأنهى حكم من تبقى من الصليحيين في جبلة وقضى على دولة بنى حاتم وهكذا أنتهت بالأيوبيين كل دولة في اليمن .

---

(١) أحمد شرف الدين ، مصدر سبق ذكره ، ص٢٠٦ - ٢٠٧ .

ولم يلبث توران شاه في اليمن أكثر من عام حتى كتب الى أخيه السلطان صلاح الدين يؤيد العودة الى مصر فعاد إليها سنة ٥٧٠هـ بعد أن أناب مكانه نواب في "زبيد" و"تعز" و"الجند" و"عدن" .

ولم يرسل صلاح الدين بعد ذلك أحدا الى اليمن لمدة تسع سنوات فكان ذلك سبباً في خروج الكثير من النواب عن الطاعة للسلطان صلاح الدين فلما علم بذلك أرسل أخاه (طغطكين ابن أيوب)سنة ٥٧٩هـ فأستعاد كثيراً من المقاطعات في جنوب اليمن وشماله وكان طغطكين عالماً يحب العلماء والفضلاء ويحترمهم ويبالغ في إكرامهم وهو الذى أنشأ مدينة المنصورة التى تبعد ١٢كم عن مدينة الجند شمالا وتوفى سنة ٥٩٠هـ وتولى بعده ابنه (المعز اسماعيل)الذى استمر في الحكم حتى سنة ٥٩٩هـ ثم تولى من بعده أخاه (الناصر بن طغطكين) من سنة ٥٩٩ الى ٦١١هـ ، وكان آخرهم (المسعود يوسف بن الكامل) الذي حكم حتى سنة ٥٢٦هـ ، وقد استعانت الدولة الأيوبية بالعنصر الكردى في حكم اليمن نظراً لأصل الأيوبيين الكردي .

دولة بنى رسول :

وهى الدولة التى ملكت في اليمن من سنة ٦٢٦هـ حتى سنة ٨٥٨هـ ، وأول سلطان للدولة الرسولية باليمن هو (المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول) مؤسس الدولة الرسولية بتعز وكان جدهم الأعلى (محمد بن هارون) أحد وزراء الأيوبيين بمصر وكانت له حظوة عند الخليفة العباسى وكان يرسله الى مصر والشام في مهام ومناسبات وبهذا أطلق عليه اسم رسول ، وكان (المسعود الأيوبى) آخر حكام الأيوبيين في اليمن قد أناب (المنصور نور الدين بن رسول) على اليمن مكانه سنة ٦١٥هـ عندما توجه الى مصر وعمل المنصور على تمهيد الملك لنفسه فعين في الحصون والأماكن الحساسة في البلاد أفراداً يثق بهم تمهيدا لنشر نفوذه ولما بلغه خبر وفاة المسعود بمصر سنة ٦٢٦هـ استقل بالأمر لنفسه وضرب السكة بأسمه وأمر

الخطباء بذكره على المنابر وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد وأرسل يستمد النيابة من الخليفة الظاهر العباسى فثبته في الحكم وبدأ يحارب الامام (المهدى أحمد بن الحسين الزيدى) في المناطق الشمالية التى انتشر بها المذهب الزيدى وقد استمرت الحروب بين سلاطين بنى رسول وبين أئمة الشمال من بداية الدولة الرسولية الى نهايتها ، وقد انتشر نفوذ الدولة الرسولية في عهد (المظفر يوسف بن عمر بن رسول) (٦٤٧-٦٩٤هـ) إلى (مكة) وقام بضبط الحرمين الشريفين ، وقد تحارب المظفر أيضا مع (الإمام المهدى أحمد بن الحسين) ثم مع الإمام (يحيى بن محمد السراجي) [١]. ثم واصل الفتح حتى بلغت جيوشه الظفار بحضرموت .

اليمن في مطلع القرن العاشر الهجري :

في مطلع القرن العاشر الهجري (١٦م) كان اليمن يتوزع بين قوى عديدة ، فمنطقة الشمال الجبلي كانت موزعة بين عدد من الأئمة الزيديين حول (صعدة) و (صنعاء) و (ذمار) وبعض الأشراف في منطقة الجوف الشرقية .

وفي الجنوب كانت هناك سيادة سنية شافعية تركز نفوذها في مناطق (عدن وحضرموت وزبيد) ، ونتيجة لذلك وُجد في اليمن نظامان : نظام الإمامة الزيدية في الشمال ، ونظام الملك السني في الجنوب .

وكان هذان النظامان في عراك مستمر منذ أن ظهر المذهب الزيدي باليمن ، وكاد السنيون ينتصرون في مطلع القرن العاشر الهجري على يد السلطان (عامر بن عبد الوهاب الطاهري) لولا ما حدث من انقلاب في موازين القوى العالمية نتج عن ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية واستيلاء العثمانيين على العالم العربي .

[١] المرجع السابق ، ص٢٢٥-٢٢٧ .

ويجب علينا بادئ ذي بدء أن نتناول بشيء من التفصيل العوامل التي ساعدت على ظهور المذهب الزيدى في اليمن لكي نستعين بها على فهم أوضاع اليمن في العصر الحديث .

بدأ ظهور المذهب الزيدى[١] في اليمن في أواخر القرن الثالث الهجري ، ففي سنة ٢٨٠هـ ظهر الإمام الهادي [٢] الرسي [٣] في (صعدة) في شمال اليمن ووضع بذلك الأسس لقيام الامامة الزيدية في اليمن ، وبدأ الزيديون منذ ذلك الحين يشاركون مشاركة فعالة في تاريخ اليمن طوال العصور الوسطى ، وكان لظهور الامام الهادى في صعدة في أقصى الشمال الجبلي عاملا حاسما في حماية هذا المذهب بعيدا عن متناول أيدي الدول القوية التي ظهرت في اليمن طوال العصور الوسطى ، فقد كان أئمة هذا المذهب ورجالاته يفرون هاربين إلى قمم الجبال وشعابها مؤقتا للتحصن بها .

وكانت ظروف اليمن البشرية من العوامل الهامة التي ساعدت على نمو المذهب الزيدي هناك وذلك لإنقسام الأهالي إلى قبائل تخضع لرؤسائها خضوعا كبيراً ، وكان الأئمة يتقربون إلى رؤساء القبائل ويستميلونهم إليهم لنشر الدعوة بين قبائلهم ، وقد ساعدت ظروف المنطقة الجبلية الشمانية على انتشار هذا المذهب هناك فكانت بعض القبائل تشترك في حروب الأئمة من أجل الحصول على الأسلاب والغنائم وكانت قبائل أخرى تدخل في طاعة الإمام حتى يشتد ساعدها في حروبها مع جيرانها ، وفي

---

(١) ينتسب المذهب الزيدى الى الامام زيد بن على بن الحسين بن على ابن على ابن أبي طالب ، والامام زيد لا يشترط ان يكون الامام من ذرية الحسين كما يقول بذلك الشيعة الامامية بل يشترط فقط أن يكون من ذرية فاطمة (أبو زهرة ، الامام زيد ، ص٤٩٥) .

(٢) الامام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن بن على بن ابى طالب فهو حسني وليس بالحسيني وهو بهذا إمام على مذهب الامام زيد وليس بإمام على مذهب الامامية . ذهب الى اليمن أولاً سنة ٢٨٠ في رحلة ثم سنة ٢٨٤ للإقامة الدائمة ثم بويع سنة ٢٨٨هـ .

(٣) لقب بالرسي لأنه ولد سنة ٢٤٥هـ بجبل الرس من جبال منطقة الرس بالحجاز شرقى المدينة قرب ذى الحليفة .

بعض الأحيان كانت إحدى القبائل تغرى الأئمة على إعلان دعوتهم في إقليمها حتى تكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة .

وازدادت قوة الأئمة بعد ذلك على مر العصور الإسلامية وذلك لضعف حكام اليمن بوجه عام في أغلب الأحيان ، ورغم ما حققه الزيديون أحيانا من نجاح في مد نفوذهم الى جهات واسعة في شمال اليمن فقد ظل نفوذهم محصورا فوق الجبال الشمالية طوال العصور الوسطى حيث كانوا في العصور الوسطى قوة ثانوية في اليمن . وفي العصر الحديث لعبوا الدور الرئيس في تاريخ اليمن وأصبحوا القوة الرئيسية في البلاد. ويرجع عجز الزيديين عن بسط نفوذهم الى جهات اليمن الجنوبية والسهلية الى قوة الدول التى ظهرت في هذه الجهات والى محاربتها المستمرة للزيديين ، وكانت قوة هذه الدول تستند على ثروة مناطقها الزراعية بالنسبة للمنطقة الجبلية الشمالية وعلى ضخامة إيراداتها المالية ولسيطرتها على الحياة التجارية في اليمن ، ولذلك كانت هذه الدول أقدر على تعبئة الجيوش ضد الزيديين ، كما كانت أقدر على دفع الأموال أحياناً الى القبائل الشمالية لتتخلى عن الأئمة أو لتقف أمام توسعهم الى الجنوب [1] .

وانتهى الأمر في مطلع القرن العاشر الهجرى الى أن كان هناك أكثر من ثلاثة أئمة في وقت واحد ، إمام في (صنعاء) وما حولها هو : (محمد بن الناصر) وإمام في (صعده) هو : (الهادى عز الدين) وإمام في (ذمار) يدعى (المطهَّر بن محمد بن سليمان) وكان محالفا للطاهريين ضد آل الناصر في صنعاء ، بالإضافة إلى هذه الكيانات الزيدية المتناثرة في شمال اليمن فقد كان هناك الأشراف من آل المنصور والإمام الوشلي يقتسمون النفوذ في منطقتي (الشرق) و (الظاهر) إلى الجنوب من صعدة .

---

(١) أباح المذهب الزيدى ظهور إمامين في قطرين مختلفين في وقت واحد ، وقد ساعد هذا المبدأ على ظهور أكثر من إمام في اليمن في وقت واحد . فأدى هذا الى قيام كثير من الفتن والاضطرابات هناك ، وتشتيت القوى الزيدية أمام القوى السنية في اليمن الأمر الذى أضعفها أمام أعدائها .

الدولة الطاهرية :

أما في جنوب اليمن فقد كانت هناك (الدولة الطاهرية) التي بدأت في سنة ٨٥٨هـ (١٤٥٤م) وتعتبر آخر الدول السنية التي كانت تتوالى الحكم في اليمن ، وكان بنو طاهر في أول أمرهم عمال الدولة الرسولية [1] في (عدن) و (لحج) فخرجوا عليها وأسسوا دولة لهم على أنقاضها ، وقد حاول ملوك هذه الأسرة منذ البداية توحيد اليمن تحت سيادتهم فلم يتمكنوا من ذلك لاصطدامهم بالأئمة الزيديين في المنطقة الجبلية الشمالية ، وظلت البلاد مقسمة بين الطاهريين والزيديين حتى مطلع العصر العثماني وقد اعتمد الطاهريون في صراعهم على قوة مواردهم الإقتصادية التي كانوا يجنونها من التجارة التي كانت تمر بموانئ اليمن الجنوبي . وعلى الأخص ميناء عدن الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر .

وقبيل العصر العثماني تولى آخر سلاطين آل طاهر وهو السلطان (عامر بن عبد الوهاب) في سنة ٨٩٤هـ فعمل على توسيع رقعة أملاكه . فقد ورث حوالي ثلثي اليمن عند توليته الحكم ، أما الثلث الباقي فقد كان موزعاً بين عدد من الأئمة الزيديين كما سبق أن ذكرنا ، وقد بدأ السلطان عامر يصطدم مع هذه السيادات المتناثرة في المنطقة الشمالية في سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٧/٦م) وتمكنت قواته من أن تحرز الانتصارات المتتالية التي أدت الى تدعيم سلطة الطاهريين في جميع الجهات والحصون المشرفة على (صنعاء) وأغرت هذه الانتصارات السلطان عامر أن يمد نفوذه الى صنعاء وباقي جهات المنطقة الشمالية وأن يخضع هؤلاء الأئمة لسيادته ، فزحف الى هناك على رأس جيش كبير سنة ٩٠٧هـ وفشل في احتلال صنعاء عندما تكاتفت القوى الزيدية ضده في باقي جهات المنطقة الشمالية لفك الحصار حول صنعاء ونجحت في صده عنها.

---

(١) أقام بنو رسول دولة قوية لهم في اليمن تمكنت من أن تحكم أكثر من مائتين وثلاثين عاماً (٦٢٦-٨٥٨هـ) وقامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الأيوبية في اليمن .كما ذكرنا من قبل . (سيد مصطفى كامل ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٢) .

وهنا يلاحظ أنه على الرغم من اختلاف الزيديين فيما بينهم فقد كانوا يتكاتفون دائماً للدفاع عن صنعاء لأهميتها الاستراتيجية للمنطقة الشمالية فضلاً عن أهميتها التاريخية .

وعلى الرغم من هذه المقاومة الزيدية فقد تمكن السلطان عامر من احتلال صنعاء في عام ٩١٠هـ وكان استيلاؤه عليها فاتحة لامتداد نفوذه في المنطقة الشمالية، فقد أخذت قواته تستولى على المناطق والحصون الواحد تلو الآخر ، وكانت وعورة مسالك المنطقة الشمالية وارتفاع جبالها تقف عائقا طبيعيا ضد بسط نفوذ الطاهريين في هذه المنطقة بالاضافة الى أن انتشار المذهب الزيدى هناك وصمود أتباعه كان يمثل عائقاً آخر له أهميته ، وهذا ما سيواجهه العثمانيون بعد قليل .

وبينما كانت قوات السلطان عامر تواصل جهودها لتوحيد اليمن قام إمام جديد له شأنه هو الامام (المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين) وأعلم إمامته في مدينة (حجة) [١] سنة ٩١٢هـ ، فجددت الزيدية قوتها بظهوره ،ويعتبر الامام شرف الدين من أبرز الشخصيات اليمنية التى لعبت دوراً هاماً عند بداية تاريخ اليمن الحديث، فقد تمكن أن يمد نفوذه الى جهات عديدة باليمن حتى وصل الى عدن جنوباً .

وظل السلطان عامر طوال فترة حكمه يرسل الحملات الى جهات اليمن المختلفة للقضاء على مقاومة الزيديين وتدعيم سلطانه في المنطقة الشمالية وكاد ينجح في القضاء على مقاومتهم لولا ما حدث من ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية وأدى الحصار البحرى الذى فرضه هؤلاء على السواحل العربية الجنوبية ومطاردتهم للسفن اليمنية الى ضعف إيرادات عامر بن عبد الوهاب الضخمة التى كانت ترد عليه من الموانى اليمنية المختلفة فلم يستطع الوقوف أمام خصومه من ناحية ، ولم يستطع الدفاع عن المصالح التجارية اليمنية أمام الأطماع البرتغالية من ناحية أخرى .

---

(١) حجة مدينة تقع في الشمال الغربي من صنعاء .

الزحف البرتغالى على البحار الشرقية :

نجح البرتغاليون في عامى ٩٠٣/٩٠٤هـ (١٤٩٨/٩٧م) في الالتفاف حول أفريقيا مروراً برأس الرجاء الصالح وتمكنوا بذلك من الالتفاف حول العالم الاسلامى تحدوهم رغبة انتقامية إمتزجت فيها الدوافع الاقتصادية بالعوامل الدينية التى كانت تدفعها روح صليبية جارفة جعلت المسيحيين البرتغاليين أكثر تحمسا وشراسة في مطاردة المسلمين والانتقام منهم في عقر دارهم ، وازدادت هذه الرغبة تأججاً وضراوة وعنفا عندما نجحوا في الوصول الى الهند سنة ١٤٩٨م (٩٠٤هـ).

وشجعت البابوية في روما هذا المخطط الصليبى لغزو الاسلام في عقر داره وتورط بعض البابوات فوصفوا الاسلام في مراسيمهم بأنه طاعون ، وباركت البابوية عملية الانخراط في الحملات البرتغالية ، فكان البابا يعد المشتركين في تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب وكانت سفنهم تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها [١] .

وبعد أن ثبتت أقدام البرتغاليين في الهند بدأوا يقومون بأشنع أعمال القرصنة في المحيط الهندى ومدخلى البحر الأحمر والخليج العربى ويناوئون التجارة الاسلامية التى كانت في يد الحكومة المصرية ، فعملوا على مهاجمة السفن الاسلامية وإغراقها والاستيلاء عليها .

وكان يراود البرتغاليين أمل يرجون تحقيقه في أسرع وقت وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحي للتحالف معه لرسم مخطط لضرب القوى الاسلامية في البحر الأحمر والاستيلاء على (عدن) و (جدة) مركز المقاومة الاسلامية والولوج منها الى مكة لضرب العالم الاسلامى في أغلى مقدساته .

---

(١) عبر عمانويل ملك البرتغال (١٤٩٥-١٥٢١م) عن أغراض الحملة الأولى في خطبة طويلة جاء فيها : (إن الغـرض مـن اكتشـاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق) . د .سيد مصطفى سالم،مرجع سبق ذكره ، ص٤٦-٤٧ .

وقد قام (فاسكوداجاما) أثناء رحلته الأولى إلى الهند بمهاجمة إحدى السفن التجارية الاسلامية واستولى على ما بها من بضائع ثم أمر بإغراقها بما تحمل من ركاب[١] وعندما قام (داجاما) برحلته الثانية (١٥٠٢م) ٩٠٨هـ إلى الهند كلف أحد قادته بالإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر ومعه خمس سفن لمهاجمة السفن الإسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة في مياه المحيط الهندى إلا بتصريح خاص من البرتغاليين ، ونجح هذا القائد في مهمته إلى حد كبير فقد قام في رجب سنة ٩٠٨هـ (يناير ١٥٠٣م) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها كما قتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر .

وحاول البرتغاليون من ناحية أخرى إضعاف مركز المسلمين التجارى لدى الهنود فأثاروا الحكام الهنود ضد رعاياهم المسلمين وحاولوا دفع الحكام إلى طردهم من بلادهم بيد أن الأمراء الهنود كانوا يرفضون وذلك لأهمية التجار المسلمين وسمعتهم الطيبة في تلك الجهات ، وأدى التحول التجاري على النحو السالف إلى انهيار اقتصاديات البلدان العربية المشتغلة بهذه التجارة وحاولوا استرداد السيطرة على التجارة الشرقية .

الموقف اليمنى :

كان من المفروض أن تتعاون مصر واليمن وهما الدولتان المتضررتان بالوضع الجديد ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إلا أن سلطان اليمن (عامر بن عبد الوهاب) كان مشغولا بحروبه الداخلية من أجل توحيد البلاد تحت سيطرته كما سلف أن أوضحنا . ومن ناحية أخرى فقد كان اليمن يفتقر الى أسطول حربى قوى مزود بالأسلحة النارية كما هو الأمر بالنسبة الى الأساطيل البرتغالية .

وعلى الرغم من أوضاع عامر بن عبد الوهاب الداخلية وضعف قدرته الحربية البحرية إلا أنه أمر بتجهيز حملة بحرية سنة ٩١٢هـ(١٥٠٧م) لمحاربة البرتغاليين في

---

(١) بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ص٤٠–٤١ ؛ أنجلو بيس ، جدة ، ص٣٧ .

الهند ، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبر عن حقيقة الأوضاع لدى السلطان عامر وإمكاناته ، كما كانت تعبر أيضاً عن عدم إدراكه لقوة الغازى الجديد الذى جاء يغزو الشرق كله بأسلحة حديثة فتاكة ، إذ كان قوام الحملة (أربع عشرة سفينة) من سفن النقل العادية تحمل ستمائة مقاتل يمنى بالاضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين ، وأبحرت هذه الحملة من ميناء (عدن) في ١١ من مارس سنة ١٥٠٧م (٢٧من شوال سنة ٩١٢هـ) ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين على ما نرجحه نظراً لأن المصادر اليمنية صمتت حينئذ عن ذكر أنباء تلك الحملة التى كانت أضعف بكثير من القيام بمثل مهمتها الصعبة .[١]

وترتب على فقدان هذه الحملة تماما أن السلطان عامر بن عبد الوهاب لم يفكر في إرسال حملة أخرى الى الهند بعد تجربته الأولى هذه ، كما أنه عجز من ناحية أخرى عن حماية سواحله أمام هجوم البرتغاليين عليها .

وفي غضون ذلك تنبه المماليك في مصر لخطورة الغزو البرتغالى الذى استهدف حرمانهم من التجارة العالمية وبدأ يهددهم في مقدساتهم وأملاكهم ، وتركزت خطتهم تجاه هذا الغزو في تقوية حكمهم في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله وعلى الأخص ثغر جدة لأهميته في حماية الأراضى المقدسة الاسلامية فأعد الأشرف (قانصوة الغورى) (٩٠٦-٩٢٢هـ) حملة مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة [٢] . بقيادة الأمير (حسين الكردى) سنة ٩١١هـ مهمتها تحصين جدة لتكون على استعداد لصد أى هجوم مفاجئ تتعرض له كما قامت بالاستيلاء على سواكن وأقامت فيها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها لتحصين سواحل البحر الأحمر قبل أن تتوجه الى الهند ، وخرجت من البحر الاحمر ومرت بعدن وتزودت منها ، وقد أوضح حسين الكردى لوالى عدن من قبل الطاهريين أن غرض الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين

---

(١) لم يشر الى هذه الحملة سوى ابن الديبع في كتابه : (الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد).
(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، الجزء ٤ ، ص٨٥ .

كما طلب منه أن يمده بالطعام والمؤن اللازمة فسمح له الوالى بأن يأخذ من عدن ما يشاء [(١)] .

ثم توجهت الحملة الى الهند وتمكنت من إحراز نصر جزئى أمام الأسطول البرتغالى في مياه ديو في خريف عام ١٥٠٨م (٩١٤هـ) بالتعاون مع المسلمين الهنود إلا أن البرتغاليين سارعوا في تجميع قوتهم البحرية لمواجهة التحالف المصرى الهندى وأحرزوا نصراً حاسماً في ٣ من فبراير سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ) وهى المعركة المعروفة في التاريخ بمعركة (ديو) البحرية ، تلك المعركة التى أنهت عهداً من السيطرة الاسلامية على طريق التجارة البحرى الى الهند.

وقد تضاءلت بعد (معركة ديو) البحرية الأهمية التجارية للبحر الأحمر الى حد بعيد تلك الأهمية التى ظل يتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل منه الى طريق رأس الرجاء الصالح وساحلى افريقيا الشرقى والغربى ذلك الطريق الذى غدا يزخر بخطوط ملاحية لأول مرة في التاريخ بين أوربا وافريقيا الشرقية والهند وغيرها من بلدان الشرق الأقصى حتى فتح قناة السويس للملاحة الدولية سنة ١٨٦٩ ، وعودة النشاط التجارى الى البحر الأحمر وموانيه من جديد .

وبعد معركة ديو تمكن البرتغاليون من السيطرة الكاملة على البوابات البحرية الثلاث الموصّلة للمحيط الهندى وهى : مضايق هرمز – وباب المندب وملقا (الواقع عند طرف شبه جزيرة الملايو) كما بسطو نفوذهم على الساحل الشرقى لأفريقيا واستولوا على جميع المراكز الاسلامية به واحتلوا سقطرة [(٢)] في مدخل خليج عدن .

الظروف التى أدت الى إستيلاء المماليك على اليمن :

بعد انتصار البرتغاليين على المماليك في معركة ديو السالفة واصلوا الزحف داخل البحر الأحمر وهاجموا (عدن) في المحرم من عام ٩١٩هـ (١٥١٣م) بقيادة

---

(١) عيسى بن لطف الله ، روح الروح مخطوطة ج١ ، ص٥٨ ب .

(٢) كان انبوكيرك نائب الملك في الهند بعد معركة ديو قد احتل سقطرة وهو في طريقه الى الهند سنة ١٥٠٧م .

القائد البرتغالى (البوكيرك) واستولوا على البضائع التى في السفن الراسية في الميناء ولما لم يستطع النزول الى البر عندما صده العدنيون بقى في الميناء أياماً يقوم بأعماله التخريبية التى اشتهر بها فاحرق حوالى أربعين سفينة كانت راسية هناك ثم اتجه البرتغاليون بعد ذلك الى باب المندب ودخلوا البحر الأحمر فمروا بالموانىء اليمنية واستولوا على جزيرة (كمران[1]) في أوائل صفر ٩١٩هـ (١٥١٣م) وضربوا كل ما فيها من مظاهر الحياة كمّا ردموا آبارها وذلك حتى لا يستفاد بالجزيرة بعد مغادرتهم لها لأنها تعتبر محطة هامة بين جدة وعدن .

وحاول البوكيرك مواصلة مشروعه الكبير وهو مهاجمة (جدة) فترك كمران واتجه شمالاً قاصدا جدة ، وكانت خطته ترتكز على التقدم نحو ميناء (مصوع) التابع للحبشه ليتمكن من الاستيلاء على (جزر دهلك) المواجهة لجدة ثم يُعد منها لمهاجمة جدة ويمهد منها أيضا لإقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع إمبراطور الحبشة للقضاء على قوة مصر في البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة الاسلامية .

وحاول البوكيرك مواصلة مشروعه الكبير وهو مهاجمة (جدة) فاتجه لذلك شمالاً ولكنه جوبه بريح صرصر عاتيه أجبرته على الرجوع قبل أن يصل الى جدة ، فعاد يباشر القرصنة والتخريب في موانى البحر الأحمر فأحرق السفن الراسية في زيلع وعاد الى عدن فضربها بالمدافع نحو أسبوعين .

وكانت القوات المصرية قد عادت أدراجها الى مصر بعد أن ترك (حسين الكردى) بعضها في جده وذهب الى ميناء السويس لبناء قوة بحرية يستطيع بها مجابهة الأسطول البرتغالى المتفوق واتجه الغورى الى العثمانيين يطلب مساعدتهم في صناعة السفن فأمدوه ببعض الأخشاب والمعدات ونحو ألفين من البحارة العثمانيين للمساعدة في إعداد الأسطول في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة على الهند

---

(١) كمران : جزيرة بالبحر الأحمر تجاه زبيد باليمن وهى حصن لمن ملك تهامة اليمن كما أنها محطة هامة بين عدن وجدة .

برئاسة (سلمان الريس) الذى أطلق عليه ابن اياس (سلمان الرومى) والذى أصبح قبطانا للأسطول المملوكى بعد اعداده .

وبينما كان المصريون يعدون لبناء قوة بحرية في السويس وصلتهم الأخبار بأن البرتغاليين غادروا الهند بقيادة البوكيرك بحملة في فبراير عام ١٥١٥م متوجهين الى البحر الأحمر وكان هدفهم من هذه الحملة هو تخريب جدة ومكة فأرسل الغورى على الفور قوة بقيادة الأمير حسين الكردى نائب جده (والذى كان يباشر عملية إعداد الأسطول الكبير بالسويس) فهم الى جدة فأعاد تقوية دفاعاتها .

وبينما كانت الحملة البرتغالية في طريقها الى البحر الأحمر لتحقيق غرضها وصلها خبر بقيام ثورة في (هرمز) التى سيطر البرتغاليون عليها في مدخل الخليج العربى ، فاتجه البوكيرك إليها ، وما أن سيطر على الأوضاع فيها حتى اشتد به المرض وعاد الى مركزه في الهند حيث توفى بعد وصوله مباشرة ونجت جدة ومكة من التخريب المنتظر مرة أخرى .

وواصل المماليك في مصر الاستعداد للدفاع عن كيانهم بعد أن غدا الخطر البرتغالى يهددهم في عقر دارهم ، وبعد أن أتموا الاستعدادات البحرية في السويس خرجت الحملة من الشواطئ المصرية سنة ٩٢١هـ وقامت بعملية تحصينات في موانئ البحر الأحمر وخاصة في الثغور اليمنية التى كانت في حاجة الى تحصينات على غرار التحصينات التى أقيمت في جدة وغيرها من موانئ البحر الأحمر من قبل وذلك لإغلاق البحر الأحمر أمام البرتغاليين وتأمين خط الرجعة للقوات المصرية . وقد قدر لهذه الحملة البحرية ألا تصل الى هدفها النهائى في الهند بل أجبرتها الظروف التى واجهتها أمام السواحل اليمنية بالاضافة الى بعض الظروف الأخرى على التوقف عند عدن .

وتفصيل ذلك أن السلطان (عامر بن عبد الوهاب) كان قد وافق في البداية على أن يقيم الغورى قواعد بحرية على السواحل اليمنية وذلك عندما استنجد

بالمماليك بعد هجوم البوكيرك على عدن سنة ١٥١٣م (٩١٩هـ) ولما فشل الهجوم المذكور دون أية مساعدة خارجية بسبب تأخر الأسطول المصرى الى اليمن تراجع السلطان (عامر) عن الوفاء بوعده فأدى هذا الى أن قام الأمير حسين الكردى بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة .

وقد انتهزت بعض العناصر اليمنية الساخطة فرصة العداء الصريح بين الحملة المملوكية وبين السلطان (عامر بن عبد الوهاب) فعملت على استغلال هذه الحملة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وقامت بالاتصال بالمماليك لتشجيعهم على النزول الى الساحل للقضاء على حكم السلطان (عامر بن عبد الوهاب) ورحب (حسين الكردى) بدوره بهذه الاتصالات حتى يتمكن من النزول الى السواحل اليمنية لتحقيق غرض الحملة بالقوة ، وهو إقامة القواعد البحرية اللازمة هناك ، وذلك بعد أن اتضح له أن السلطان عامر يرفض التعاون معه والسماح له سلميا بالنزول الى السواحل اليمنية .

وكان على رأس تلك العناصر اليمنية الامام (شرف الدين يحيى) الذى كان قد سبق أن أعلن إمامته في مدينة (حجة) في سنة ٩١٢هـ (١٥٠٦م) كما سلف أن ذكرنا ، والذى ظل ضعيفا هناك منذ ذلك الحين نظراً لقوة قبضة (عامر بن عبد الوهاب) على زمام الأمور في اليمن ، وقام الامام شرف الدين بالكتابة الى الكردى يطلب منه مده بالجنود ليتمكن من محاربة السلطان عامر وتعهد بأن يتكفل بمرتبات واحتياجات هؤلاء الجنود طوال مدة إقامتهم معه [1] وكان الامام يدرك أن العدو الحقيقى للمماليك هم البرتغاليين ولذلك ألصق بالسلطان عامر تهمة التعاون مع هؤلاء حتى يثير المماليك ضده[2] ومن ثم تعاون المماليك معه .

---

(١) عيسى بن لطف الله ، روح الروح ، ج١ ، ص٦٠ .

(٢) يحيى بن الحسين ، أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن مخطوطة ص١١٥ .

وسيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ، ص٨٤ .

ومن ناحية أخرى فقد كانت وطأة السلطان عامر قد اشتدت على أهالى اليمن لجمع الخراج منهم حتى يعوض النقص الذي أصاب إيراداته من جراء تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم فقد تعاون مع المماليك كثير من التيارات السياسية الأخرى مثل (أشراف جيزان) ، وكان السلطان عامر يعترف بحكم هؤلاء الأشراف مقابل أن يدفعوا له خراجاً سنوياً ورغب هؤلاء في التخلص من مظاهر التبعية له ووطأة دفع الخراج ، فأرسل أمير جيزان أخاه (عز الدين بن أحمد بن دريب) لمشاركة المماليك في توغلهم داخل اليمن (حتى استيلائهم على زبيد) .

كما تعاون بعض الساخطين من أهالي تهامة والجنوب مع المماليك ، هذا الى جانب استعمال المماليك للبنادق والمدفعية التى لم تكن معروفة باليمن ، كل هذه الأمور كانت من العوامل المساعدة على سرعة استيلاء المماليك على جزء كبير من اليمن .

ففى ذى القعدة من عام ٩٢١هـ (ديسمبر ١٥١٥م) قام المماليك بضرب ميناء (الحديدة) بالمدافع عندما تعرض حاكمها لبعض السفن المحملة بالمؤن للمماليك والتى كانت قادمة من (زيلع) وتمكن المماليك من النزول الى (الحديدة) ثم استولوا على (اللحية) و (الزيدية) بمساعدة الأهالى ، وقد سارت الأحداث في تهامة اليمن سريعة بعد ذلك ، إذ كان سقوط بعض المدن التهامية في أيدى المماليك قد أثار (عامر بن عبد الوهاب) فأرسل أخاه على رأس قوة كبيرة الى زبيد في ١١ من ربيع الأول ٩٢٢هـ للدفاع عنها فأسرع (حسين الكردى) وبصحبته الشريف (عز الدين) سالف الذكر وتقدم الى (زبيد) بتشجيع من حلفائه اليمنيين وحاصرها وسرعان ما استولى عليها بعد أن فر الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب وفلول جيشه الى (تعز) في ١٩ من جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ (٢١يونيو١٥١٦م) . [١]

---

(١) د . سيد مصطفى سالم . مرجع سبق ذكره ، ص٨٦ - ٨٧ .

وعين حسين الكردى الأمير (برسباى) حاكماً لزبيد وقائداً للمماليك في تهامة وعاد مسرعاً إلى الساحل ليقوم بمواصلة مهمته في جنوب البحر الأحمر فتوجه إلى (زيلع) ومنها إلى عدن في ١٣ من رجب ٩٢٢هـ (١٢أغسطس ١٥١٦م) وحاصروها وصمدت المدينة الحصينة أمامهم لأنها محاطة بالجبال العالية وفشل المماليك في الاستيلاء عليها ، وأدى ذلك الفشل الى تعطيل حملتهم عن الذهاب الى الهند ، وقرر المملوك اتخاذ سواحل تهامة اليمن خط دفاع أول عن البحر الأحمر ، على أن تكون (جدة) خط الدفاع الثاني [١] .

وعاد حسين الكردى الى (جدة) لتركيز الدفاع بها بدلاً من عدن ، وللاستعداد للهجوم على عدن مرة أخرى ولكن الظروف لم تمهله فبعد وصوله الى جده بقليل سقطت مصر في يد العثمانيين وسارع شريف مكة الشريف بركات بالدخول في طاعة العثمانيين وارسل سليم برسم قتل (حسين الكردى) غرقاً في مياه البحر الأحمر أمام ميناء جدة .

أما المماليك الذين استقروا في تهامة اليمن تحت قيادة برسباى فقد شغلوا في حروب داخلية مع الظاهريين واستولوا على (تعز) و (المقرانة) التى كان السلطان عامر يتخذها مقراً له في صفر ٩٢٣هـ وفي هذه الأثناء غدرت إحدى القبائل بالأمير برسباى فقتلوه وتولى إمارة المماليك الأمير (اسكندر) المملوكى الذى اطلق عليه لقب اسكندر المخضرم .

وقد بدأ اسكندر الزحف الى صنعاء مباشرة وتقابل مع السلطان عامر بالقرب من صنعاء حيث قامت معركة عنيفة بين المماليك والطاهريين انتهت بمقتل (عامر بن عبد الوهاب) وأخيه في ٢٣ من ربيع الآخر سنة ٩٢٣هـ (١٥من مايو ١٥١٧ م) وقد استولى المماليك بعدها على صنعاء وقتلوا كثيرا من أهلها وقاموا بكثير من

---

(١) د . سيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص٨٨ .

أعمال السلب والنهب وفي النهاية يمكننا القول بأن نجاح المماليك في اليمن يرجع الى عاملين : —

انضمام كثير من اليمنيين الى المماليك لتحقيق أطماعهم كما حدث من شريف جيزان والامام شرف الدين ، بالاضافة آلى قوة تسليح المماليك الذين كانوا أحدث سلاحا من الطاهريين .

وبعد استيلاء المماليك على صنعاء كان الموقف العسكرى قد تغير في الشرق الأوسط فقد وصل الى المماليك نبأ غزو العثمانيين للشام ومصر وضم الحجاز إليهم سلمياً [١] .

اعلان مماليك اليمن الولاء للعثمانيين :

عندما وصل الى المماليك باليمن نبا سقوط دولتهم في قبضة العثمانيين شاع بينهم الاضطراب وثار بينهم جدل طويل بشأن اتخاذ موقف حاسم من السيادة العثمانية الجديدة في مصر ، وأخيراً استقر رأى الأمير (اسكندر) على الاعتراف بهذه السيادة حتى يقوى جانب الحملة في اليمن وحتى يقضى على الخلافات التى ثارت بين صفوف جيشه ، وقام الأمير اسكندر بجمع أهالى صنعاء في الجامع الكبير بها وأعلن بينهم استيلاء السلطان سليم العثمانى على مصر وخضوع المماليك في اليمن للسيادة العثمانية [٢]

ولقد اصطدم المماليك بعد ذلك بقوة أخرى هى قوة الامام (شرف الدين) حليف الأمس ، ذلك أنه بعد انتصار المماليك واستيلائهم على صنعاء رفض الامام التوجه إليها لمقابلة المماليك كما رفض عقد أى اتفاق معهم ، وكان الامام شرف الدين قد انتقل من (حجة) الى (ثلاء) وتحالف مع أحد الطاهريين فكان هذا بداية لارتفاع شأنه وكان اصطدام الامام بالمماليك أمراً متوقعاً في الحقيقة فالامام لم يطلب

---

(١) انظر للمؤلف كتاب " العالم الاسلامى في التاريخ الحديث والمعاصر ، ج١ ، ص٩٠ .

(٢) د . سيد سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص٩٥ .

من المماليك مده ببعض الجنود كما ذكرنا إلا لتحقيق أغراضه في اليمن ، أما توسع المماليك داخل اليمن* واستيلائهم على صنعاء فكان يتعارض مع تحقيق أغراض الإمام، وهنا بدأ صراع طويل بين الزيدية في اليمن بزعامة الإمام شرف الدين وبين قوى المماليك العثمانيين استمر زمناً طويلا .

وهكذا نستطيع القول بأن القوى الإسلامية في الوقت الذي كان يجب عليها أن تتحد أمام الأطماع البرتغالية أخذت تتصارع مع بعضها وتكيل الطعنات لبعضها البعض حتى انتهى بها الأمر الى الضعف والتخاذل أمام العدو المتربص الذى خلا له الجو فتمكن من البحار الشرقية [1] .

اما العثمانيون فقد قابلوا لأول لحظة مشاكل البحر الأحمر التى كانت بين المماليك والبرتغاليين حول السيادة عليه والسيطرة على التجارة الشرقية وبرزت أمام العثمانيين بمجرد ظهورهم في المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر واصبحت إحدى القضايا الاسلامية الملحة التى تحتاج الى عمل حربى حاسم منهم ، وقد اثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك .

بيد أن خطوات العثمانيين ظلت بطيئة في هذا المجال واتسمت سياستهم العسكرية تجاه البحر الأحمر والبحار الشرقية بالاسترخاء العسكرى تلك الحالة التى استمرت حتى سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) وكان ذلك على ما يبدو بسبب انشغالهم بكثير من المشاريع الحربية في أوربا فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم في كثير من المناطق الأوربية منتهزين فرصة الحروب الايطالية التى شغلت الأوربيين زمنا طويلا (١٥١٥-١٥٥٩م) كما كانوا يعملون من ناحية أخرى على مد نفوذهم الى العراق وفارس وتكملة الاستيلاء على العالم العربى لتوحيد العالم الاسلامى .

أما البرتغاليون فقد شنوا هجوما عاماً على البحر الأحمر في عام ١٥١٧م (٩٢٣هـ) بقيادة نائب الملك في الهند (لوبوسوريز) الذى تولى بعد (البوكيرك)

---

(١) انظر للمؤلف كتاب " العالم الاسلامى في التاريخ الحديث والمعاصر " ج ١ ، ص٨٨ .

وكانت هذه الحملة تتكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الجنود المسلحين ، ونظراً لأن هدف هذه الحملة هو الهجوم على (جدة) وتدميرها والقضاء على الأسطول المملوكي في البحر الأحمر ، فإنها لم تتعرض (لعدن) وخاصة أن أميرها (مرجان) قد أمد الحملة البرتغالية بالمؤن اللازمة لها وببعض المرشدين من بحارة اليمن لإرشادها داخل البحر الأحمر للوصول إلى جدة بعيداً عن مخاطر الشُعَب المرجانية ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل البرتغاليون أمام جدة بسبب مناعة حصونها وقوة استحكاماتها التي أقامها المماليك من قبل ، كما فوجئ البرتغاليون من ناحية أخرى بتغير السلطة فواجهوا العثمانيين لأول مرة فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم كي يعيدوا حساباتهم قبل مجابهة العثمانيين ، ووصلت القوات البرتغالية المرتدة الى (عدن) حيث حصلت على الإمدادات اللازمة من أميرها مرجان وعادوا قافلين الى مركزهم في هرمز.

الأوضاع اليمنية من ٩٢٣ حتى ٩٤٥هـ :

ظلت باليمن من سنة ٩٢٣ حتى سنة ٩٤٥هـ ثلاث قوى متصارعة على السيطرة والنفوذ فيما بينها وهى القوى : الطاهرية والزيدية والمملوكية ، ولم يمتد نظرها الى خارج البلاد حيث الأخطار التي كانت محدقة بها والمتمثلة في الوجود البرتغالي الذي انتزع منهم السيطرة على التجارة البحرية الشرقية ، واصبح بأسهم بينهم شديد ، فأجهضوا قوتهم وفاز عدوهم بالسيطرة على التجارة البحرية وورث العثمانيون النفوذ والسيطرة الطويلة على العرب .

الطاهريون :

كان الطاهريون يمثلون الامتداد التاريخى للدول السنية التى تعاقب حكمها في اليمن منذ الفتح الاسلامى وعلى الرغم من محاولة الطاهريين (بعد وفاة عامر بن عبد الوهاب) الاحتفاظ بما كان لهم من سيادة اليمن ولكن دون جدوى فقد توالت هزائمهم وانحصر نفوذهم في النهاية في عدن ولم تظهر بعد (عامر بن عبد الوهاب

شخصية قوية ، وضاعت مقومات قوتهم بضياع التجارة وانهيار البناء الاقتصادى باليمن ، بالإضافة إلى عدم تنازلهم عن ثرواتهم الضخمة ، ورفضهم التعاون مع المماليك ضد الغزو البرتغالي كما رأينا مما يدل على عدم إدراك للمسؤلية في فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي حرجاً .

والأدهى من ذلك أنهم (تحالفوا مع البرتغاليين) ، ومنحوهم تسهيلات بحرية ، وقد مر بنا التسهيلات التى أعطاها أمير عدن (مرجان) الطاهرى في عام ٩٢٣هـ وذكرت بعض المراجع الأوربية أن الأمير مرجان قدم مفاتيح عدن الى القائد البرتغالى (لوبوسوريز) للتعبير عن خضوعه لهم ، وإن كان لم يصل الى حد تسليم المدينة لهم .

ومن ناحية أخرى حاول (مرجان) [١] أن يقوى جانبه بالاتصال بالعثمانيين وأرسل الى شريف مكة لمساعدته في ذلك وعلى الرغم من ذلك فقد حاول البرتغاليون إخضاع عدن لسيطرتهم خوفاً من وقوعها في يد العثمانيين ونجحوا في اجبار الطاهريين على عقد معاهدة سنة ١٥٢٤م (٩٣٠هـ) معهم بمقتضاها تدفع عدن أموالاً على سبيل الإتاوة لهم [٢] سنوياً وتفتح ميناءها أمام السفن البرتغالية ، وعلى الرغم من هذا الخضوع الذى سلم به الطاهريون إلا أن البرتغاليين لم يقنعوا بذلك ، ولذلك قامت حملة في سنة ٩٣١هـ ١٥٢٥م بضرب (عدن) بالمدافع ، وفرضوا (معاهدة) جديدة عليها في فبراير سنة ١٥٣٠م (٩٣٦هـ) واعترفت عدن بمقتضى هذه المعاهدة بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الأموال السنوية إليهم واعترف البرتغاليون بحرية الملاحة للعدنيين ولكن بشرط عدم توجه سفنهم الى جدة ، وترك البرتغاليون بعدن إحدى سفنهم وأربعين برتغالياً لضمان تنفيذ المعاهدة . وللإشراف على الميناء وعلى إيراداته المالية .

---

(١) توفى مرجان في سنة ٩٢٧ هـ .

(٢) سيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ، ص ١١٠

وقد أثار موقف حاكم عدن غضب الأهالى وتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه، ولكن كانت حجته دائما خوفه من هجوم أفراد الحملة المملوكية على عدن من داخل اليمن أو من البحر ، غير أن حاكم عدن حاول التخلص من المعاهدة البرتغالية واتصل بالسلطان (سليمان المشرع) يخبره بالدخول في طاعته ، وانتهى الأمر بفتح العثمانيين لعدن عام ٩٤٥هـ .

الزيديون :

تمكن الزيديون من أن يمدوا نفوذهم الى جهات كثيرة من اليمن بعد سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب ، ونجحوا بزعامة الامام شرف الدين أن يوحدوا جهودهم ويمدوا سلطانهم الى جنوب اليمن حتى أضحوا في سنة ٩٤٥هـ القوة الرئيسية التى واجهت العثمانيين .

ويعتبر عصر الامام (شرف الدين) إنبلاج لعهد جديد من تاريخ الزيدية في اليمن ، فالإمام شرف الدين من أهم الشخصيات التى ظهرت في اليمن ، وقد ولد في ١٧ من رمضان ٨٧٩هـ وبويع في سنة ٩١٢هـ في حجه كما ذكرنا [١] ، وتلقب بالامام المتوكل على الله واسمه (يحيى بن أحمد) ويرجع نسبه الى الحسين بن على بن أبي طالب ، وكان عالماً مجدداً في المذهب الزيدى ، كما كان من الأئمة المعتدلين بالنسبة لموقفه من المذاهب السنية ، فقد كان يعترف بهذه المذاهب ويعتبر المذهب الزيدى مذهباً خامساً ، ويقرب إليه العلماء والفقهاء من أهل هذه المذاهب [٢] .

وبدأ يلعب دوراً في تاريخ اليمن بعد موت عامر بن عبد الوهاب واستنجد أهالى صنعاء به بعد دخول المماليك إليها ، فهم إليهم وحاصرهم حتى سلموا أنفسهم وغادروا صنعاء سالمين بعد أن أمن حياتهم ، وتحالف المماليك مع أشراف الجوف بعد خروجهم من صنعاء ضد الامام شرف الدين ، واستولى الامام بعد ذلك على مدينة

(١) توفى الامام شرف الدين سنة ٩٦٥هـ .

(٢) قطب الدين النهر والى ، البرق اليمانى ، ص١٢ (من المخطوط) .

(عمران) مركز أشراف الجوف سنة ٩٢٨هـ بعد حروب عنيفة وتركها أطلالاً دارسة ، كما سقطت (صعدة) في يده سنة ٩٤٠هـ وتمكن ابنه (شمس الدين) من اخضاع مناطق غرب صنعاء في نفس السنة.

ومن ناحية أخرى توجهت جيوش شرف الدين لمحاربة الطاهريين في جنوب اليمن في نفس الوقت الذى كان الصدام دائراً فيه بينه وبين القوى الزيدية في الشمال وأحرز إبنه المطهَّر نصراً حاسماً على الطاهريين في جنوب (ذمار) في سنة ٩٤١هـ وعامل المنهزمين بقسوة بالغة ، حيث قتل نحو نصف الأسرى وجعل الباقين يحملون رؤوس القتلى ودخلوا في موكب غريب الى صنعاءتقشعر لهوله الأبدان معلناً إنتصاره على الطاهريين ليخيف المعارضين لحكم والده .

واستولى على (تعز) في شعبان سنة ٩٤١هـ ولم يبق أمامه من المراكز الطاهرية سوى عدن التى اعتصم بها (عامر بن داود الطاهرى) وتمكنت عدن من صد هجوم المطهر عليها أكثر من مرة ، وحاول الاستيلاء على (زبيد) من يد المماليك ولكنه فشل ، وكانت هذه الأعمال الحربية هى آخر خطوات الامام شرف الدين في الجنوب وبدأ يهتم بتنظيم شئون هذه الممتلكات .

وهكذا نجح الزيديون لأول مرة في تاريخهم أن يمدوا نفوذهم في جهات اليمن المختلفة حتى أسوار عدن جنوبا وزبيد غرباً ، وهكذا تمكن الشمال الجبلى بقوة عصبية المذهب الزيدى من الوقوف على قدميه أمام الجنوب السهلى السنى الذى كان له السيطرة طوال العصور الوسطى ، والذى فقد أسباب قوته السياسية والاقتصادية في مطلع القرن العاشر الهجرى (١٦م) ولم يتمكن من الصمود والذى مكن الطاهريون من الاستمرار كقوة سياسية في اليمن بعد موت السلطان (عامر) بنحو عشرين سنة هو عامل الاندفاع الذاتى حيث كان للدولة الطاهرية عمق تاريخى جعل اليمنيين يتمسكون بهم أطول مدة ممكنة وخاصة أنه لم يظهر في اليمن بعد سقوط عامر من يستطيع القضاء على باقى القوى السياسية بصورة حاسمة وسريعة .

المماليك :

تحول المماليك في اليمن الى مغامرين حربيين بعد سقوط السلطان عامر ، وخاصة بعد سقوط دولتهم في مصر الذى أصابهم بنوع من الدوار واليأس وانصرفوا الى أعمال السلب والنهب كما أشرنا من قبل ، وعلى الرغم من اعترافهم الاسمي بالسيادة العثمانية إلا أنهم حافظوا على كيانهم الخاص باليمن والواقع أنهم كانوا مجبرين على الاعتراف بهذه السيادة لصعوبة موقفهم حينئذ ، ومع ذلك فقد انقسموا فيما بينهم في اليمن الى شيع وأحزاب .

وعندما عين العثمانيون (حسين الرومى) نائبا لجدة سنة ٩٢٦هـ وضموا إليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولاية جدة وتقدم على رأس قوة لدخول اليمن رفض (اسكندر المخضرم) السماح له بدخول اليمن وأظهر استعداده للحرب فعاد حسين الرومى حقناً للدماء ، وكان لهذا رد فعل في صفوف المماليك فقام (كمال الرومى) بقتل اسكندر سنة ٩٢٧هـ وتولى الحكم في زبيد بدلا منه بحجة أنه خان السلطنة العثمانية ، وانقسم المماليك الى عثمانية وجراكسة ، وقام أنصار الجراكسة بقتل كمال الرومى زعيم العثمانية سنة ٩٣٠هـ واقاموا بدلا منه (اسكندر القرمانى) في زبيد وقتلوا رمضان الرومى واقاموا (على الطويل) بدلاً منه في تعز .

وفي غضون ذلك عاد (حسين الرومى) الى اليمن مرة اخرى سنة ٩٣٠هـ وتمكن من الاستيلاء على زبيد وتوفى بها سنة ٩٣٢هـ وفي هذه السنة أرسل العثمانيون حملة بقيادة (خير الدين حمزة) من عشرين سفينة وأربعة آلاف جندى ومعها (سلمان الريس) قبطاناً عليها وتمكنت من النزول الى تهامة واشتبكت مع (مصطفى الرومى) خليفة حسين الرومى وتمكنت من الانتصار عليه .

وخلاصة الأمر أن هذه الحروب هى التى مكنت لحملة (سلمان باشا العثمانى) سنة ٩٤٥هـ من بسط نفوذ العثمانيين في اليمن .

أشراف الحجاز

كان الحجاز مقر الخلفاء الراشدين من سنة ١١هـ إلى سنة ٣٦هـ وبقى الحجاز بعد ذلك حوالي ثلاثة قرون تحت الحكم المباشر للأمويين والعباسيين ، وطارد كل من الأمويين والعباسيين الأشراف من آل على بن أبي طالب سواء من فرع الحسن أو الحسين .

وفي سنة ٢٥١هـ قامت ثورة حسنية في مكة قادها إسماعيل بن يوسف الأُخَيْضِر مع أخيه محمد وأنشأ إمارة في مكة ، ولما طاردهم العباسيون نقلوا قاعدتهم إلى اليمامة ، وظلت هذه الإمارة باليمامة حتى قضى عليها القرامطة في أواخر القرن الثالث الهجري .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري قامت إمارة الأشراف في مكة والمدينة من الأشراف الحسنيين ، وفي سنة ٤٠٢هـ حاول أحد هؤلاء الأشراف واسمه (محمد شاكر بن أبي الفتوح الحسنى) أن يعلن نفسه خليفة ولكن الفاطميين أصحاب السلطة الرسمية في الحجاز لم يُمكنوه من ذلك .

وفي نفس الوقت قام نفر من أشراف المدينة الحُسَينيون الذين ينحدرون من نسل الحسين بن على بإنشاء أسرة مالكة بالمدينة عرفت باسم (بنى مهنا) ظلت تحكم المدينة حتى القرن التاسع الهجرى ، وبعدها ضم أشراف مكة الحسنيون المدينة وبقية الحجاز إليهم وهؤلاء استمروا حتى قضى على إمارتهم عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٤٥هـ .

وكانوا خلال هذه الفترات خاضعين لغيرهم وليسوا مستقلين سواء في العصر الفاطمي أو الأيوبي أو عصر المماليك أو العثمانيين .

وفي العصر المملوكي تطلع سلاطين المماليك في مصر إلى الاهتمام بحماية الحرمين الشريفين وتأمين سبل الحج والعناية بثغر جدة لأهميته ، فتدخلوا لتوطيد

حكمهم في الحجاز ، ففي سنة ٦٦٧هـ حج السلطان الظاهر بيبرس وعين نائبا له بمكة يرجع إليه أشراف مكة في المهمات " ويكون الحل والعقد على يديه" [١] وهو شمس الدين مروان ، ومن تلك السنة استمرت هذه الولاية بمكة إلى آخر دولة قانصوه الغوري ، وكان يطلق على نائب السلطان المملوكي بمكة اسم " باش مكة " أو "باشا الترك " [٢] .

أما جدة فقد عين المماليك بها حاكما عاما كان يسمى " نائب جدة " ويقيم في مقر يطلق عليه " دار النيابة " أو " فرضة السلطان " [٣] يطل على ميناء جدة مباشرة لكي يشرف منه على الحركة التجارية العالمية .

انضمام الحجاز الى العثمانيين :

لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الانعزال عن الحجاز ، فان حجاجها كانوا يأتون كل عام في موسم الحج ، وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا الى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على ابلاغ شريف مكة بانتصاراتهم في أوربا ، وعندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م أرسل الى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء كما أرسل إليه بعض من الهدايا من غنائم الفتح [٤] ، وفي عام ٨٨٦هـ، أدى السلطان بايزيد الثاني (والد سليم فاتح مصر) فريضة الحج وتوثقت عرى المودة بينه وبين شريف مكة .

وكان العثمانيون يطمحون إلى مد نفوذهم إلى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم إلى ينعتوا بلقب خادم الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذي اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم ، وذلك لإعلاء مكانتهم في العالم الإسلامي ، وقد عبر السلطان

---

(١) أنظر : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ ، ص٢٨٣ .

(٢) بطل منصب " باش مكة " منذ الفتح العثمانى ، وصارت بعض اختصاصاته يقوم بها نائب جدة .

(٣) أنظر . عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، مصدر سبق ذكره ص٢١ .

(٤) أنظر : ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٢٦-٢٧ .

سليم عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢هـ ودخوله حلب ، فقد حضر صلاة الجمعة في مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب " خادم الحرمين الشريفين " وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعا متعددة وأحسن إليه إحسانا زائدا (١).

وعندما أتم السلطان سليم فتح مصر أظهر حسن نواياه تجاه جماعة من الحجازيين كانوا بمصر إبان فتحها ، منهم من مكة الخطيب (محيى الدين العراقى) الذى أنعم عليه بالإنعام الجزيل ، واستقبل قاضى قضاة مكة (صلاح الدين محمد بن ظهيرة) وكان من المعتلقين في مصر (٢) فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن اليه.

ولما أراد سليم أن يجهز جيشا إلى الحجاز اتصل قاضى قضاة مكة (صلاح الدين بن ظهيرة) برجال السلطان سليم وأقنعهم بعدم إرسال هذا الجيش وأن الرأي عنده " إرسال مكتوب إلى (شريف مكة) ولا تبدو منه مخالفة أبداً " ولا يحتاج الأمر الى تجهيز جيش ، فأخذ السلطان سليم برأيه ، وكتب القاضى صلاح الدين رسالة من طرفه الى الشريف يعرفه بما وقع ويطلب منه إرسال ابنه محمد أبو نمى الى السلطان سليم (٣) .

ونظر شريف مكة إلى الظروف والملابسات الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني بعين الخوف من المجهول ، فمن ناحية كان الحجاز يمر بظروف صعبة حيث تعرضت موانيه وعلى الأخص (جدة) لكثير من

---

(١) أنظر : قطب الدين النهروالى ، الاعلام بإعلام بيت الله الحرام ، ص١٨٧-١٨٨ .

(٢) كان السلطان الغورى قد طلب من قاضى قضاة مكة ابن ظهيرة عشرة آلاف دينار فعجز القاضى عن سدادها فأمر الغورى بالقبض عليه وحمله الى مصر واعتقله بها وعقب هزيمة الغورى في موقعة مرج دابق أخرجه طومان باى من السجن وظل في مصر حتى قابل السلطان سليم .

انظر : أحمد بن زينى دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، ص٥٠ .

(٣) المصدر السابق نفس المكان .

هجمات البرتغاليين الشرسة ، وهدد البرتغاليون بمهاجمة الأراضي المقدسة الإسلامية والعبث بمقدسات المسلمين ، ولم تكن لدى شريف مكة القوات والعتاد التي يستطيع بها صد المعتدين البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى فقد كان الحجاز يعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابتة التي كانت تأتيه من مصر نظرا لندرة الزراعة به وقلة موارده، فإن دولة المماليك ومن سبقها من الدول الإسلامية التي ضمت الحجاز إليها قد عملت كل منها على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية على سكان الحرمين الشريفين فكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنويا كل ما يحتاجه من غلال إلى جانب مرتبات الأشراف والعاملين على خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والتي كانت ترسل سنويا صحبة أمير الحج المصري .

هذه الظروف الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز إبان الزحف العثماني هي التي أملت على شريف مكة (الشريف بركات) قبول السيادة العثمانية ورد على رسالة ابن ظهيرة بإرسال وفد برياسة ابنه (أبو نمى) لتقديم الولاء والاستعداد بدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وذلك لكي يضمن استمرار تدفق ورود الموارد التي كانت تصل إليه من مصر ، ويضمن وجود قوة إسلامية كبرى تقف أمام الزحف البرتغالي على الأراضي المقدسة الإسلامية.

واستقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات في القاهرة في ١٦من جمادى الثانية ٩٢٣هـــ (٦من يوليو ١٥١٧م) استقبالا حافلا وقدم (أبو نمى) إلى سليم بعض الهدايا ، وبعض الآثار النبوية الشريفة التي كانت موجودة في مكة والمدينة ثم سلمه مفاتيح الحرمين ، وهكذا تم إقرار شريف مكة بقبول السيادة العثمانية ومنحه سليم تفويضا بحكم " مكة المشرفة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها

ولواحقها المعطراب ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكما وضابطا فيه بمراسيم السلاطين القديمة "[١] ثم أمر بقتل حسين الكردى نائب جدة من طرف المماليك .

وعقب عودة وفد الشريف الى مكة قرئ التفويض على الأهالى وأمر الشريف بالقبض على (حسين الكردى) فأخذ مقيدا الى جدة وقتلوه غرقا في ميناء جدة في تلك المياه التى سبق له أن دافع عنها ضد الغزو البرتغالى .

مهام شريف مكة في العصر العثمانى :

وبذلك دخل الحجاز تحت السيادة العثمانية دخولا سلميا وكان سلطان شريف مكة يمتد الى جميع بلاد الحجاز ، ومن مهامه الرئيسية العمل على تأمين قوافل الحج الوافدة الى الحرمين الشريفين من جميع بقاع العالم الاسلامى ، وكان يعتمد في ذلك على صلاته بالقبائل الضاربة في الحجاز والقريبة من طرق قوافل الحج كما يعتمد على عصبيته ونفوذه الدينى الواسع ، وكان شريف مكة يتمتع في التشريفات العثمانية بأسمى مقام في صف " الصدر الأعظم " في الاستانة و " الخديوى " في مصر[٢] .

أما (ثغر جدة) فان السلطان سليم ولّى عليه نائبا جديدا بعد مقتل نائبه المملوكى ، وهذا النائب الجديد هو التاجر (قاسم الشروانى) الذى كان من تجار مكة وسافر قبل الفتح العثمانى الى مصر وصادف وجوده دخول السلطان سليم مصر ، فاتصل قاسم بالسلطان سليم وتقرب اليه بالخدمة فعينه نائبا لجدة فوصل اليها وباشر مهام منصبه في تلك السنة[٣] .

---

(١) أنظر : نص الرسالة التى أرسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها الى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولى ونشـرها في كـتاب عن " الفتح العثمانى للشام ومصر " بالقاهرة سنة ١٩٧٦م ، ويمتاز هذا الكتاب بكثير من الوثائق التى ترجمها المؤلف من التركية الى العربية وقد استقاها من الأرشيف التركى وغيره من المصادر التركية (انظر الوثيقة رقم ٣٠ في ملحق الوثائق لنفس الكتاب) .

(٢) انظر : ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٢٤١ .

(٣) أنظر : قطب الدين النهروالى ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص١٩١ .

أنظر أيضا ، أحمد بن زينى دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص٥١ .

وجعل العثمانيون (إمارة جدة) تابعة لهم مباشرة يعينون لها نائبا من طرفهم بعيدا عن نفوذ شريف مكة ، وذلك بسبب وضعها الحربي وأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية ، وتركوا لشريف مكة السلطة على الحجاز ، وجعلوا له استقلالا عن نائب جدة الا في الحالات الضرورية التي يلزم عليه أن يتعاون على استتباب الأمن في ربوع الحجاز لتأمين سير قوافل الحج الى الحرمين الشريفين .

وقررت السلطات العثمانية لشريف مكة أن يأخذ نصف محصول ميناء جدة كل عام ، ومن ثم فقد تسبب هذا الأمر في إثارة كثير من المشاحنات بين نائب جدة وشريف مكة ولم تهدأ هذه الحوادث بينهما طوال العصر العثماني ، كما تسببت ثنائية الحكم هذه في خلق جو من الاضطرابات والفتن والفوضى لا في جدة ومكة فحسب بل في الحجاز كله[1] .

الأشراف في الحرب العالمية الأولى :

وفي بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ، اتصل الانجليز بالشريف حسين بن علي في الحجاز لضمه الى الحلفاء ضد تركيا التي تحالفت مع الألمان ، وعقد الانجليز معه معاهدة في سنة ١٩١٥م تعهدت بريطانيا له فيها باقامة مملكة وراثية للأشراف الهاشميين في الحجاز ، وتعهدت بالدفاع عنهم ضد كل عدوان ، وبحماية حدوده ، وبتقديم كل عون مادي ومعنوي لقمع أي ثورة في الداخل ، وكان الشريف حسين يتقاضى مرتبا سنويا من الانجليز قدره (٤٠٠٠٠٠جنيه انجليزي)[2] .

وفي بداية الحرب العالمية الأولى أعلن الشريف حسين بن علي الثورة على الدولة العثمانية سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) وقطع علاقته بدار الخلافة سنة ١٩١٨

---

(١) أنظر على سبيل المثال ما حدث من حروب بين شريف مكة ووالي جدة في سنة ١٠٧٩هـ وسنة ١١٨٤هـ وما بعدها في كتاب : خلاصة الكلام لأحمد بن زيني دحلان .

(٢) ذكر اللورد (كردفورد) في مجلس اللوردات في بريطانيا سنة ١٩٢٢م أن الشريف حسين كان يتقاضى من الانجليز في كل عام مبلغ (٤٠٠٠٠٠جنيه انجليزي) ، لين بول ، معجم الأسر الحاكمة الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٢٣-٢٢٤ ، ترجمة أحمد السعداني .

م وناصر الانجليز في الحرب . وكان الشريف حسين يمثل في ذلك الوقت أكبر الأسر العربية مكانة فهو أمير مكة والمهيمن على الحرمين الشريفين ، وكان لدية أربعة أبناء هم : (على) و (عبد الله) و (فيصل) و (زيد) ، وكان فيصل أكثرهم طموحاً ، فقد كان يرنو ببصره الى حكم الشام الذى انفرط عقده فأصبح عدة دول هى : سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، وكان (فيصل) دائم الاتصال بإسلامبول عاصمة الدولة العثمانية يتردد عليها وكان (عبد الله) دائم الاتصال بالقاهرة يتردد عليها للأتصال بالانجليز الذين كانوا يلمحون له بمناصرة والده إذا ما فكر الأتراك في خلعه ، أما (على) فكانت طموحاته أن يكون ملكاً على الحجاز وكان أكبر أبناء الملك حسين ، وكان (زيد) أصغرهم[1] .

واتصل الشريف حسين بالانجليز عن طريق (مكما هون) نائب ملك بريطانيا في مصر إبان الحرب العالمية الأولى وطلب منه إعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية في الشام وجزيرة العرب وفي مقابل ذلك يتحالف الشريف حسين عسكريا مع بريطانيا ، ويعلن الحرب على الدولة العثمانية فرد عليه (مكما هون) رداً دبلوماسياً مبهماً ليس فيه وعد واضح بتنفيذ مطالب الشريف حسين .

هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تقوم بمؤامرة سرية لتقسيم البلاد العربية محل آمال الشريف حسين ، وفي الوقت الذي كان فيه اليهود يعدون المسرح لموافقة الإنجليز على وعد لهم بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم ومساعدتهم من أجل تحقيق هذا الهدف ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحسين انتهى به الأمر الى تحالف مع الإنجليز ضد الأتراك ودخل في حرب ضد الدولة العثمانية .

وأعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك عقب اتفاقه مع الإنجليز ، وبدأ ذلك بأول رصاصة أطلقت في مكة في صباح اليوم الثاني من يونيو سنة ١٩١٦م ضد القوات التركية المعسكرة في(قلعة إجياد) أمام الحرم ، مخدوعاً بوعود الانجليز .

(١) صالح مسعود أبو يصير،جهاد شعب فلسطين في نصف قرن،الطبعة الثانية،سنة ١٩٦٩م ، ص٣٤- ٣٥ .

واستطاع الشريف أن يقطع الاتصال بين قوات تركيا في اليمن وقواتها في الشام، واتهم الشريف الأتراك بالخروج على الاسلام فعطل بذلك دعوة الجهاد التى أعلنها السلطان العثمانى على الانجليز وحلفائهم .

وبينما كان الشريف حسين وأعوانه يمعنون القتل في الأتراك في كل مكان بالحجاز وخاصة في مكة والطائف إذا بوكالات الأنباء تطير خبر قيام ثورة شيوعية في روسيا ضد القيصر وتعلن على العالم الاتفاقيات السرية التى عقدت بين الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا لتقسيم البلاد العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، وهى الاتفاقية المعروفة باتفاقية (سايكس – بيكو) سنة ١٩١٦م والتى تعطى العراق وفلسطين وشرق الردن لبريطانيا ولبنان وسوريا لفرنسا والبسفور والدردنيل وما حولهما لروسيا .

والواقع أن هذه الاتفاقية صورة مرعبة للخيانة والخداع والمكر الإنجليزي ، وتحوى شروطاً تتعارض مع ما كان قد اتفق عليه الإنجليز مع الشريف حسين ، ولكن كان هذا جزاء وفاقاً لمن تعاون مع الإعداء ضد إخوانه المسلمين ، ومن أعان ظالماً سلط عليه تلك سنة من السنن الكونية التي لا تتخلف ، وهى أيضا صورة بشعة للنفاق الإنجليزى للوصول إلى ما تبيته السياسة الانجليزية من تقسيم للعالم الإسلامي [١] .

وعندما وصلت هذه الاتفاقية الى مسامع تركيا أسرعت تواجه الشريف حسين بخطئه الفاحش عندما تعاون مع أعداء الأمة الإسلامية على أمل استقلال هو كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، فأرسلت تركيا رسالة الى فيصل بن الحسين على وجه السرعة بتاريخ ١٩١٧/١١/٢٦م تذكر فيها بأن الواجب الدينى يدعوا فيصل وأباه الى العودة الى حظيرة الاسلام ودولة الخلافة ، وطلب جمال باشا الذى كان يومئذ بالشام ، من فيصل الحضور الى دمشق لعقد اتفاق

---

[١] انظر للمؤلف كتاب (اليقظة الاسلامية في العالم الاسلامى) ، ص٧٣–٧٥

ينص على إعطاء الولايات العربية الاستقلال من الدولة العثمانية بعد الحرب وعندما أرسل فيصل الرسالة الى والده تأثر جداً ، ولكنه لم يخلع إتفاقه مع الانجليز لأن الانجليز أوهموه مرة أخرى بأن هذه خدعة تركية وأن هذه ليست إتفاقية ، وإنما هي مسوده لإتفاقية لم تتم وجدت في خزائن القيصر بعد مقتله وقيام الثورة الشيوعية .

وعندما ألغى مصطفى كمال الخلافة في تركيا سنة ١٩٢٤م أعلن الشريف حسين بن على نفسه خليفة على المسلمين دون أن يعترف به أحد ودون مشورة المسلمين . في الوقت الذى كان الأزهر في مصر دعا الى عقد مؤتمر لبحث مصير الخلافة .

طرد الأشراف من الحجاز :

لكن عبد العزيز آل سعود استولى على مكة سنة ١٩٢٤ وهرب الشريف حسين وترك ابنه على في جدة حيث قضى عليه عبد العزيز سنة ١٩٢٦م .

ولقد لقى الشريف حسين جزاءه على يد الانجليز ، فقد ساعد الانجليز الملك عبد العزيز بن سعود على اجتياح الحجاز مركز الأسرة الهاشمية من صدر الإسلام وتم طرد الشريف حسين وأسرته من الحجاز ، وأصبح لاجئاً في قبرص وكان يود أن يقيم في العقبة في إمارة ابنه التي أنشأها الإنجليز له ، ولكن الإنجليز رفضوا إقامته فيها لأنها قد تدفع ابن سعود على مهاجمتها كما يدعون ، وتلقى إنذاراً بريطانيا بضرورة الرحيل عنها فخرج منها خائفا يترقب ، وهو ساخط على الإنجليز حيث ركب سفينة بريطانية إلى جزيرة قبرص سنة ١٩٢٥م فأقام بها ٦ سنوات ومرض كمداً فأذن الإنجليز بسفره عندما قاربته المنية إلى عمان وجاء أبنه فيصل وعبد الله فصحباه من قبرص إلى عمان ووافته المنية سنة ١٩٣١م فحمل إلى القدس ودفن بها في مقابر المسجد الأقصى [١] .

---

[١] انظر : الأعلام للزركلى ، وملوك العرب وقلب الجزيرة ، ص٢١٦ .

إمارة شرق الأردن :

وأقام الانجليز له إمارة تحت حمايتهم في شرق الأردن وهى تشمل قطعة من صحراء العراق ، وجزءا من بادية الشام ، وسميت هذه الامارة باسم (شرق الأردن) وعينت انجلترا عليها (عبد الله) الأبن الثانى للشريف حسين أميرا ، وخصصت له مبلغاً وقدره ٦٠٠٠٠ جنيه انجليزى في العام ، وجعلوا إمارته تحت رقابة المقيم الانجليزى بفلسطين وعاصمتها عمان.

وكان لإنشاء هذه الامارة هدف أراده الانجليز ، وهو فصل الشام عن الحجاز والجزيرة العربية ، وأيضا فصل العراق عن الحجاز والجزيرة بكيان مصطنع لم يسبق أن قامت به دولة من قبل ، ووضع هذا الكيان المصطنع تحت إشراف الانجليز للحد من تأثير الحركة السلفية التى قويت في الجزيرة العربية أى الحد من تأثيرها في بلاد الشام والحد من تأثير الحركة القومية التى قويت في الشام أن تؤثر في الحجاز والجريرة العربية .

وبذلك كان هذا الكيان المصطنع مانعاً من تأثير الشمال في الجنوب والجنوب في الشمال تحت اشراف الانجليز .

وكانت منطقة شرق الأردن قبل عام ١٩٢٠م تابعة للدولة العثمانية وانتقلت إدارتها منذ عام ١٩١٨م الى حكومة فيصل بن الشريف حسين العربية بدمشق الذى حاول تنصيب نفسه ملكاً على سوريا الكبرى ، وكانت منطقة شرق الأردن جزءاً من بلاد الشام يطلق عليه بادية الشام ، والجزء الجنوبى من شرق الأردن كان تابعاً للحجاز والجزء الشرقى منها كان تابعاً للعراق فهو جزء من صحراء العراق .

وكانت دول الوفاق قد استولت على تلك المناطق لقطع الطريق أمام الجيش التركى المتجه الى مصر ، فدخل " لورانس " مدينة العقبة سنة ١٩١٧م وفي العام التالى نُقل الأمير فيصل بن الحسين الذى كان يقود جيش الثورة العربية الى العقبة وتمكن مع أعوانه من احتلال قسم كبير من الأراضى الأردنية وذلك بعد معارك

عديدة منها قيامه بتخريب خط حديد الحجاز واحتل الانجليز الأردن في ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩م [1] .

وقد ظلت منطقة شرق الأردن تحت الإدارة العربية لفيصل حتى وصلها عبد الله بن الحسين في نوفمبر سنة ١٩٢٠م أما (فيصل) فقد نقله الانجليز الى العراق وعين ملكاً على العراق سنة ١٩٢٠م بعد قيام ثورة في العراق في تلك السنة .

باستقرار الأمير (عبد الله) في شرق الأردن تشكلت حكومة في عمان برئاسة عبد الله بن الحسين في أبريل عام ١٩٢١م بمساعدة بريطانيا التى عينت له مجموعة من المستشارين الأنجليز لمساعدته في إدارة الدولة الجديدة ، وأعلنت بريطانيا على لسان مندوبها الثاني في فلسطين أنها ستعترف بحكومة الأمير عبد الله .

ونظراً لضعف الموارد في هذه المنطقة فقد وعدت بريطانيا أن تقدم معونة سنوية للأمير عبد الله وكانت هذه المعونة وسيلة من وسائل الضغط على الأردن لا تمكنه من استقلالية قراراته ، وفرضت بريطانيا الأنتداب على هذه الدولة الناشئة .

وفي سنة ١٩٤٩م غير عبد الله اسم الإمارة إلى : (المملكة الأردنية الهاشمية) وتم إضافة الضفة الغربية لفلسطين إليها فضاعف هذا من عدد السكان، وحاول الملك عبد الله الصلح مع إسرائيل فقتله أحد الفلسطينيين سنة ١٩٥١م، وخلف (طلال) أباه عبد الله لكن البرلمان الأردني خلعه بحجة إصابته بمرض عقلى، ونودى بابنه الحسين بن طلال ملكاً على الأردن تحت الوصاية لحين بلوغه سن الرشد وذلك برعاية وحراسة من الإنجليز وتوج ملكا في مايو سنة ١٩٥٣م ، وظل في الحكم حتى عام ١٩٩٩م حيث توفى وخلفه ابنه عبد الله .

---

[1] د . رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص٦٥ .

الحركات الانفصالية
في المغرب والأندلس

كان المغرب الإسلامي مركز القوة للدولة الأموية منذ قيامها بينما كان المشرق مركز المعارضة التي قامت في وجه الحكم الأموي منذ بدأ الصراع بين علي ومعاوية ، وظل العراق ومن ورائه المشرق كله بيئة غير طيعة في يد الأمويين طوال مدة خلافتهم بينما احتفظ المغرب بولائه للدولة الأموية [١] .

وقد استغلت الدعوة العباسية معارضة المشرق فاستعانت به في بداية الدعوة ونمت لديه شعور المعارضة فأصبح المشارقة جنود العباسيين ونجحت الثورة العباسية بفضل قوتهم في الإطاحة بالدولة الأموية .

وتقهقرت المعارضة الموالية لبني أمية وللنفوذ العربي إلى المغرب ، وكذلك انقلبت الأوضاع وصار المغرب هو البيئة المعارضة وغير الطيعة في يد الخلافة العباسية، وفتح أبوابه أمام المعارضة العلوية ومعارضة الخوارج [٢] والأمويين الذين وجدوا فيه ملجأ بعيداً عن قبضة العباسيين واستطاع هؤلاء أن يقيموا لهم دولاً تناوئ الخلافة العباسية معتمدين على روح المعارضة المتزايدة بالمغرب .

وقد فرت الفلول الأموية التي نجت من التنكيل العباسي إلى العدوة الأوربية بالمغرب وهي الأندلس وعلى يدهم كان الأندلس أول إقليم انفصل عن حكم الدولة العباسية ، وكان انفصاله عنها انفصالاً تاماً ، لأن الأمير الذي قام بهذا الانفصال وهو عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل كان يعارض الحكم العباسي ولا يعترف به

---

(١) حسن محمود وزميله ، ص٣٩٦ .

(٢) سنتحدث عن مصادمة الخوارج للدولة الفاطمية عند نشأتها واستمرارهم إبان حكمها بالمغرب كحزب معارض للدولة الفاطمية ويذكر الدكتور أحمد مختار العبادي أن الخوارج ما زالوا يشاهدون إلى اليوم بالجزائر في منطقة ميزاب شرقي الجزائر حيث لعبوا دوراً هاماً ضد الاستعمار الفرنسي . (العبادي ، ص٣٨٦) .

شـأنه في ذلـك شـأن المعارضـة العلوية التي لجأت إلى المغرب الأقصى بالعدوة الأفريقية [١] .

وسـنتناول أولاً إنشاء دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ على الرغم من أنها نشأت بعد الإمارة الأموية بالأندلس (١٣٨هـ) مخالفين بذلك التتابع الزمني لأن الدولة الأموية بالأندلس كان لها امتداد في أخريات أيام الدولة الأدريسية إلى المغـرب الأقصـى ، أي أنها كانت من القوي التي شاركت في القضاء على دولة الأدارسة بالمغرب .

دولة الأدارسة بالمغرب (١٧٢-٣٦٤هـ) :

سـبق أن ذكـرنا نبذة تاريخية عن الظروف والملابسات التي في ظلها نشأت دولـة الأدارسة بالمغرب الأقصى بجهود إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبي طالـب سـنة ١٧٢هـ وموقف الدولة العباسية منها على أيام الرشيد [٢] ، ومحاولة الرشيد أن يقضي عليها ولكنه فشل ، واستمرت هذه الدولة بالمغرب وتحمس المغاربة لهـذه الدولة حتى بعد موت إدريس سنة ١٧٧هـ وتجمعوا حول ابنه إدريس الثاني على الرغم من أنه كان ضعيفاً ، وهو الذي أسس مدينة فاس المغربية سنة ١٩٢هـ وتوفي سنة ٢١٣هـ .

وبلغـت البلاد الخاضعة للأدارسة بالمغرب أقصى اتساعها في منتصف القرن الثالـث الهجـري ، ثم أخذت تضمحل بسبب تضييق الفاطميين عليهم بالمغرب ولم يشفع لهم أنهم علويين ولكنها الأطماع السياسية التي لا ترحم الوالد من ابنه أو الابن من والده .

وبسـبب محاربة الأمويين بالأندلس لهم أيضاً وقد اعتمد الأمويين على دويلة صـغيرة عمـيلة لهم في شمال المغرب الأقصى وهي (إمارة نكور) ، وهي دويلة سنية

---

(١) حسن محمود ، وزميله ، مرجع سابق ، ص٢٩٧ .

(٢) الطبري ، ج٨ ، ص٢٤٢ ، وابن الأثير ، ج٥ ، ص٩٠ .

أنشـــأها صـــالح بـــن منصور الحميري سنة ٩٦هـــ وهو واحد من الفاتحين المسلمين العرب الأوائل في (منطقة مليلة) وقد ظلت هذه الإمارة حتى قضى عليها المرابطون ، وكانت في معظم فتراتها حليفة للأمويين بالأندلس ومعتمدة عليهم [١] .

فقد زحف الأمويون على سبتة سنة ٣١٩هـــ فكانت ضربة أليمة للأدارسة، ولـــئن كانوا عادوا إلى الظهور في سبتة مرة أخرى سنة ٣٣٦هـــ إلا أنهم كانوا بمثابة ولاة للأمويـــين بالأندلس ، وظل الأمويون يضغطون عليهم حتى أسقطوا دولتهم سنة ٣٤٣هـــ [٢] ووقـــع الحسن بن كنون آخر حكام الأدارسة أسيراً في يد الأمويين وسيق إلى قرطبة ، وهكذا انقرضت دولة الأدارسة وحلت محلها الدولة الأموية [٣] .

وأهـــم شـــيء نحـــب أن نشير إليه هنا أن دولة الأدارسة أسهمت في خدمة الإســـلام في هـــذه الناحية النائية فينسب إليهم أنهم ثبتوا البربر على الإسلام وبذلك مهدوا لظهور البربر كقوة فيما بعد أيام المرابطين والموحدين ، ودخل بقية البربر على عهدهـــم حظيرة الإسلام ، كما كان حكم الأدارسة مقدمة للدور الكبير الذي لعبه البربر في مجال نشر الإسلام في غرب أفريقيا ، وينسب إليهم الفضل في القيام بحركة نشر الإسلام في حوض السنغل استمرت بعد ذلك في عهد المرابطين والموحدين حتى شملت أفريقيا الغربية كلها [٤] .

وكـــان (لجامع القرويين) الذي تأسس في عهدهم في فاس بعدوة[٥] القرويين سنة ٢٤٥هـــ دور كبير في الحركة العلمية بالمغرب وأخذت فاس بفضله طابع المركز

---

(١) حسين مؤنس ، الأطلس ، ص١٧٩ .

(٢) لين بول وغيره ، معجم الأسر الحاكمة ، ج١ ، ص٤٣ .

(٣) حسين مؤنس ، الأطلس ، ص١٧٩ .

(٤) توماس أرنولد،الدعوة إلى الإسلام،ص٢٦٧-٢٦٩وحسن محمود وزميله،مرجع سبق ذكره ص٤١٣

(٥) جاء في معجم ياقوت أن فاس عبارة عن عدوتين أو قسمين: عدوة الأندلسيين وتأسست عام ١٩٢هـــ وعدوة القرويين تأسست عام ١٩٣هـــ .

العلمي بالمغرب حتى يومنا هذا ، والذي تميز باختيار المذهب المالكي واختيار العقيدة الأشعرية ، واختيار تلاوة ورش ورواية ابن سعادة [١] .

وقد ظل هذا الجزء من المغرب مأوى للأشراف ، وتكونت دولتهم الحديثة سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) بعد كفاح طويل ضد الاستعمار ، وترجع أسرهم إلى القرن الحادي عشر وهم من الأشراف الحسينيين [٢] .

الدولة الأموية بالأندلس :

تم فتح الأندلس في عهد الوليد بن عبد الملك ، وانتشر الإسلام بها على يد المهاجرين من العرب والبربر إليها فقد استتبع الفتح هجرات مغربية وعربية ، وكان قرب الأندلس من بلاد المغرب من العوامل التي دفعت المغاربة إلى الهجرة إلى أرض الأندلس الغنية بمواردها ، كما أن الظروف التي تلت الفتح استتبعت توالي الجيوش العربية على الأندلس وكانت هذه الجيوش تقيم في الأندلس وتتبعها بعض بطون القبائل العربية للإقامة بصفة نهائية ، ولا تكاد توجد مدينة أندلسية أو ولاية أندلسية إلا وفيها مهاجرون من هؤلاء وهؤلاء .

وقد اختلط هؤلاء المهاجرون بالسكان وتزوجوا منهم ، ولم يلبث أن نشأ جيل جديد من العرب والمستعربين ، وكان هذا الاختلاط سبباً في نمو الحركة الإسلامية والعربية نمواً مبكراً بالأندلس [٣] .

وفي عهد أبي جعفر المنصور هرب من وجه العباسيين أمير أموي هو (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك) إلى بلاد الأندلس ، ونجح في تأسيس

---

(١) عبد الهادي التازي ، جامع القرويين ، ج١ ، ص١٤ .

(٢) حكموا باسم الأشراف الفلالية نسبة إلى واحة فيلالت أو تافيلات التي نشأوا بها(معجم الأسر الحاكمة، ج١ ، ص٩٢) .

(٣) قال المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم عن أهل الأندلس : أهل الأندلس على مذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف سوى كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظفروا بحنفي أو شافعي نفوه وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه . [أحمد أمين ، ظهر الإسلام ،ج١، ص١٣] .

الدولـة الأمويـة الثانـية بها منذ عام ١٣٨هـ ، وقد لقيت هذه الإمارة تأييداً من السـكان الأمـر الذي مكنها من الصمود في وجه محاولات الدولة العباسية للقضاء علـيها وسبق أن أشرنا إلى بعضها عند حديثنا عن عصر المنصور ، في كتاب الدولة العباسية .

وفي عهـد المهـدي دبر مؤامرة دولية اشترك فيها مع شارلمان ملك الفرنجة الـذي كان يريد استرداد الأندلس وإحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية وكان على عداء مع الدولة البيزنطية المتاخمة للعباسيين ، واشترك في هذه المؤامرة أيضاً اثنان من القادة المحليين .

أولهما : (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) المعروف بالصقلبي لأنه كان طويلاً أشقر مثل الصقالبة ، وكان من القادة المغامرين في شمال أفريقيا ، ثم أرسله المهدي إلى الأندلس كما فعل المنصور مع العلاء بن مغيث من قبل .

أمـا الـرجل الثاني : فيدعى (سليمان بن يقظان الكلبيّ الأعرابي) حاكم مديـنة سرقسـطة في شمال الأندلس وهي قاعدة الثغر الأعلى وكان على خلاف مع الداخل لتراعه مع اليمنية الذي ينتمي إليهم سليمان .

ولكـن أعـداء (عبد الرحمن) تواعدوا واختلفوا في الميعاد فقام عبد الرحمن الفهري بالهجوم أولاً على ساحل تدمير (مرسية) قبل أن يصل شارلمان في الميعاد المتفق علـيه إلى سرقسطة في الشمال لإرباك الداخل ، ولكن الداخل وجدها فرصة وقضى على الفهري قبل أن ينضم إلى حلفائه وحرق أسطوله عند ساحل تدمير .

أمـا شـارلمان فعبر جبال البرتاب متأخراً وخرج سليمان الأعرابي لاستقباله ولكن سكان مدينة سرقسطة رفضوا تسليمها لرجل مسيحي وقادهم الحسين بن يحي الأنصاري ، ودافعوا عن المدينة واضطر شارلمان إلى أن يصحب حليفه الأعرابي ويعود لإخمـاد ثـورة قامـت بها القبائل السكسونية الجرمانية في بلاده ، ونجحت الإمارة الأندلسية مرة أخرى من مؤامرات العباسيين .

ومــع ذلــك صمدت هذه الدولة بالأندلس تحت حكم الأمراء من بني أمية واســتمرت ما يقرب من ثلاثة قرون وكانت لها حضارة زاهرة مزدهرة في عاصمتهم (قرطبة) وغيرها من المدن الأندلسية التي كانت مراكز إشعاع حضاري أثر في أوروبا في فترة العصور الوسطى المظلمة في أوروبا .

وعندما ضعفت هذه الدولة بضعف حكامها المولدين الذين أتوا بعد الأمويين الأوائــل الأقويــاء انفرط عقد وحدتها في سنة ٤٢٢هـ إلى مقاطعات انفصلت عن بعضــها واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وبلغت هذه المقاطعات والأمراء إلى نحو عشرين مقاطعة ، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف (١) .

وقد أدت هذه الفرقة إلى ضعف الأندلس وعجزها عن الصمود أمام الممالك المسيحية التي أخذت تتوحد في شمال أسبانيا وتزحف إلى الجنوب مستولية على البلاد شــيئاً فشيئاً ، وكانت غلطة الأمويين الكبرى أنهم تركوا الجيوب الأسبانية في منطقة الشمال الجبلية دون تصفيتها فأتى منها الخطر الذي كان يستمد قوته من مساعدات أوربــا المســيحية كلها ضد الوجود الإسلامي في الأندلس ، وعندما ضعفت الدولة الإسلامية بالأندلس وجدها هؤلاء فرصتهم وزحفوا من الشمال (٢) .

فاستعان الأندلسيون بالمرابطون الذين ظهر أمرهم في شمال (المغرب) أفريقيا ، وكان الذي طلب المعونة هو (المعتد بن عباد) ملك (أشبيلية) .

وقــد لــبى المــرابطون نداء إخوانهم المسلمين في الأندلس واقتحموا المجال الأندلســي وقهروا المسيحيين في (موقعة الزلاقة) سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) ثم قضوا عــلى الفــرقة المنتشرة في الأندلس في صورة ملوك الطوائف ووحدوا الأندلس مرة أخرى تحت رايتهم .

---

(١) وهذا مما دفع بعض شعرائهم إلى الاستهزاء بهم في قوله :

مما يزهدني في أرض أندلــس * ألقاب منتــصر فيها ومعتضــد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

(٢) حسن محمود وزميله ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٠٠ .

وعندما ظهر (الموحدون) في شمال أفريقيا في النصف الأول من القرن السادس الهجري وتمكنوا من توحيد المغرب كله تحت رايتهم تطلعوا إلى الأندلس ، وكان حكم المرابطين بها قد ضعف بسبب فقدانهم لحياة البداوة في هذه البلاد المتحضرة نوعاً ما عن المغرب ، فأرسل (عبد المؤمن الكومي) في سنة ٥٤٠هـ جيشاً قوياً أخضع به كل ما كان تحت سلطان العرب في هذه البلاد ، وورث الموحدون ملك المرابطين في الأندلس .

وتولى الموحدون عملية الجهاد ضد الأسبان زمناً طويلاً ، وكانت عاصمتهم (مراكش) بالمغرب ولقد أصاب الموحدين ما أصاب المرابطين من قبل فانتهى أمرهم إلى الضعف ، وهزموا على يد الأوروبيين سنة ٦٠٩هـ في موقعة (العقاب) ، وكان ذلك بسبب أن الأسبان دعوا إلى حروب صليبية ضد المسلمين وجمعوا لها المتطوعين من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا .

وانكمش حكم المسلمين في الأندلس بعد ذلك وتقلص ملكهم حتى انحصر في (مقاطعة غرناطة) التي استمرت تصارع الزحف الأسباني ببسالة والمسلمون في شغل شاغل عنها حتى سقطت سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) بسبب تحالف مملكة (قشتالة) ومملكة (أراغون) المسيحيتين في الشمال على يد ملكيهما (فرديناند) و (إيزابيلا) ، وقضوا على مملكة غرناطة .

ومن العجيب أن الدول الأوروبية الكبرى كانت تدعم مسيحيي الأندلس في نضالهم ضد الوجود الإسلامي في الأندلس بينما المسلمون تركوا إخوانهم وقد تجمعت عليهم الدول الأوروبية فأخرجتهم من ديارهم التي تم تحضيرها على أيديهم ولذلك قال شاعرهم يخاطب المسلمين :

يا راتعين وراء البحر في دعة ** لهم بأوطانهم عز وسلطان

وحاملين سيوف الهند مرهفة ** كأنها في ظلام النقع عقبان

أعندكم نبأ من أهل أندلس ** فقد سرى بحديث القوم ركبان

فيارب أم وطفل حيل بينهما ** كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس طلعت ** كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ** والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ** إن كان في القلب إسلام وإيمان

إلى أن يقول :

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ** أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
لماذا التقاطع في الإسلام بينكم ** وأنتم يا عباد الله إخوان[1]

وكانت الدولة العثمانية في أثناء ذلك قد اشتد عودها وتستطيع أن تمد يد العون إلى المسلمين في الأندلس ولكن ذلك لم يحدث كما كانت هناك الدولة المملوكية في مصر والشام ولكنها كانت مشغولة بالفتن ولم تفعل شيئاً وفضل العثمانيون اجتياح الديار الإسلامية في الشام ومصر والقضاء على دولة المماليك بدلا من نجدة الأندلس .

وكان سقوط الأندلس في يد المسيحيين نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإسلام وقف المسلمون بعدها موقف الدفاع ومازالوا حتى يومنا هذا ، وأعزى هذا النجاح الأوربيين بمحاصرة العالم الإسلامي من الشرق .

وهكذا نفذ الغرب نظرية الهجوم على الإسلام الذي هو خير وسيلة للدفاع ونجحوا في ذلك إلى أبعد الحدود وما زالوا ينفذون هذه النظرية علينا في أوطاننا .

بينما لم يلتفت المسلمون لأهمية انقاذ إخوانهم في الأندلس حتى تم طردهم منها.

وصفوة القول أن تاريخ المسلمين بالأندلس مر بعدة عصور يمكن أن نوجزها على النحو التالي :

١- عصر الولاة : ٩١-١٣٨هـ
٢- عصر الدولة الأموية الثانية : ١٣٨-٤٢٢هـ

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ، ص٤٨٧-٤٨٨ وازدهار الرياض ٤٧/١ للمقري .

٣- عصر ملوك الطوائف : ٤٢٢-٤٧٩هـ

٤- عصر المرابطين :٤٧٩-٥٤٠ هـ

٥- عصر الموحدين : ٥٤٠-٦٠٩هـ

٦- عصر مملكة غرناطة : ٦٣٥-٨٩٧هـ

دولة الأغالبة ١٨٤-٢٩٦هـ :

تنسب هذه الدولة إلى(إبراهيم بن الأغلب التميمي)وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التي دفعت الرشيد إلى تكوين هذه الدولة في منطقة إفريقية(تونس الحالية) سنة ١٨٤هـ وذلك لكي تكون دولة حاجزة لهم من امتداد النفوذ الأدريسي والخوارجي والأموي إلى بقية دول المغرب،وكانت عاصمتها(القيروان)وكان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة وكان فقيهاً أديباً وشاعراً خطيباً على علم بالحرب ومكايدها ورجاحة العقل،وقد أنس فيه الذكاء أستاذه الليث بن سعد إمام أهل مصر في الفقه والحديث فقال عنه:"سيكون لهذا الفتى شأن"[1]،وقد صدقت فيه فراسة أستاذه فإن إبراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم في أفريقية ضبط أمورها وبنى في سنة ١٨٥هـ ضاحية جديدة للقيروان أسماها العباسية لإظهار ثقته وولائه للعباسيين والاعتراف بسلطانهم ، ونقل إليها حكومته وأهله وعبيده وأهل ثقته [2] .

وكانت طرابلس تابعة للأغالبة إلا أنهم كثيراً ما كانوا يثورون عليه ، كذلك حاول في البداية حرب الأدارسة ولكن أصحابه نصحوه بالعدول عن هذا وقالوا له اتركهم ما تركوك ، وكتب إليه إدريس الثاني يستعطفه ، ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق أنصاره ويذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكف عنه [3] .

---

(١) ابن عذاري : البيان المعرب في أخبار المغرب ، ج١ ، ص٨٤ .

(٢) حسن إبراهيم ، ج٢ ، ص٢١٣ .

(٣) نفس المرجع والمكان ، ص٢١٤ .

وظل أمراؤها يحكمون في ظل الدولة العباسية ولهم استقلال ذاتي وظل أبناء إبراهيم بن الأغلب يتوارثون الحكم من بعده معترفين بسلطان الخلافة العباسية حتى سنة ٢٩٦هـ وهي السنة التي قامت فيها الدولة الفاطمية في المغرب بعد أن نجحت دعوتهم في المغرب ، واكتسحوا دولة الأغالبة وغيرها من الدويلات المغربية .

ويذكر التاريخ لدولة الأغالبة الاهتمام بإنشاء بحرية قوية في البحر المتوسط استطاعت بها الهيمنة على كثير من جزره الغربية ، فقاموا بفتح جزيرة (صقلية) في عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة ٢١٢هـ وكان أسطول الفتح يتألف من مائة سفينة بقيادة (أسد بن الفرات#) قاضي القيروان من جيش يتألف من ٩٠٠ فارس وعشرة آلاف راجل [١] ومما هو جدير بالذكر أن بحرية الأمويين ساعدت في فتحها مصادفة فقد جاءتهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم فطلب الأغالبة منها المساعدة وأجابتهم القوات إلى طلبهم واستولوا على بعض الأماكن ولكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها وعادوا إلى بلادهم سنة ٢١٥هـ [٢].

وكانت جزيرة (صقلية) قبل فتحها شوكة في ظهر المسلمين وكثيراً ما كانت الدولة البيزنطية ترسل منها القراصنة للإغارة على السواحل الإفريقية الإسلامية ، وقام الأغالبة بعد هذا الفتح بحركة جهاد بحري إسلامي ضد الأوروبيين بصفة عامة والإيطاليين بصفة خاصة ، فقد غزا إبراهيم بن أحمد الثاني الأغلبي (٢٦١-٢٨٩ هـ) جنوب إيطاليا واستولى على سردينيا وطوال العصر الأغلبي استمر نشاط المسلمين العسكري على سواحل إيطاليا وجزائر وسط البحر المتوسط [٣] وتكونت

أسد بن الفرات بن سنان أصله من خراسان ولد بحران من ديار بكر ١٤٥هـ وتوفي سنة ٢١٣هـ انتقل به أبوه إلى تونس وهو رضيع ونشأ بتونس وتعلم بها الفقه ورحل إلى المشرق فسمع من مالك الموطأ وغيره ثم ذهب إلى العراق فأخذ عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفه .

(١) حسن إبراهيم ،تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص٢١٨ .

(٢) كان أسد بن الفرات مالكياً ثم تحول إلى المذهب الحنفي وفي فترته في ظل الأغالبة غلب عليها المذهب الحنفي أقصد إفريقية وعندما جاء المعز بن باديس حمل أهل إفريقية مرة أخرى على مذهب مالك .

(٣) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص١٧٩ .

بجزيـــرة صـــقلية إمـــارة إسلامية حكمت الجزيرة في العهد الفاطمي ، وظلت تجاهد الرومان حتى أسقطها النورمان سنة ٤٨٥هـــ .

وفـــتحوا جزيـــرة (مالطة) سنة ٢٢١هـــ ودعموه سنة ٢٥٥هـــ ولم يكن وجـــود المسلمين في الجزيرة ثابتاً أو مستقراً ولكنها على أي حال كانت خاضعة لهم فـــترات طويلة ، وقد انتهى السلطان السياسي للمسلمين عليها سنة ٤٨٣هـــ على يـــد الـــنورمان واستولى عليها قراصنة القديس يوحنا سنة ٨٥٣هـــ بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من رودس وظلت في أيديهم إلى أن انتزعها منهم نابليون بونابرت ســـنة ١٢١٣هـــــ (١٧٩٨م) وهـــو في طريقه إلى مصر ، ثم تحولت إلى مستعمرة بريطانية بعد انتصار بريطانيا على نابليون سنة ١٨١٥م [١] .

وهكـــذا أدى الأغالبة دورهم في الدفاع عن ثغور المغرب الإسلامي بل مدوا نفوذ العالم الإسلامي إلى صقلية وسردينيا ومالطة وجنوب إيطاليا ، وظلت صقلية في حـــوزة المسلمين أكثر من قرنين كانت خلالهما مع الأندلس مصدر إشعاع إسلامي وحضاري في أوروبا ، وقد استطاع الأغالبة أن ينفذوا ضد الأوروبيين سياسة الهجوم خير وسيلة للدفاع فبهجومهم على السواحل والجزر الأوروبية حموا بذلك الشواطئ الإسلامية في شمال إفريقية .

التقاليد البحرية الأغلبية :

لقد تأثر الشمال الإفريقي فيما بعد بالتقاليد البحرية الأغلبية فأصبحت هذه التقالـــيد مـــثالاً يحتذى به فيما بعد ، وحاولت بلاد الشمال الأفريقي أن يكون لها نشاط مماثل تجاه النشاط الأوروبي في البحر المتوسط .

وهكـــذا فإن هذه الحيوية البحرية الأغلبية كانت بارقة أمل يعيد للمسلمين الجهـــاد الإســـلامي النشـــط في العصر الأموي ، ولم يستمر هذا النشاط في العصر العباســـي لأن الدولة العباسية لم تكن دولة بحر أوسطية وإنما كانت دولة مشرقية في

(١) المصدر السابق ، ذات الصفحة .

المقام الأول ، وهي بذلك تختلف عن الدولة الأموية فإنها كانت دولة بحر أوسطية في المقام الأول ونشاطها في السيادة على البحر المتوسط من أجل السيطرة عليه واضح في الهيمنة على قبرص وكريت ورودس ومحاولة فتح القسطنطينية عدة مرات ، ونجاحها في فتح الأندلس والسيطرة على مضيق جبل طارق .

وقد اهتم الأغالبة بعمارة المساجد الجامعة وأهمها مسجد القيروان الذي أسسه عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ وجدده الأغالبة في عهدهم ، وجامع الزيتونة بتونس الذي أسسه بن الحبحاب عام ١١٤هـ وجدده الأغالبة حتى صارت له سمعة علمية مثل سمعة الأزهر في مصر فهو جامعة علمية لحفظ الفكر الإسلامي وهو إمام دار الهجرة وفي عهد الأغالبة بدأ المغرب الإسلامي يكتسب طابعاً واضحاً وهو أن مذهب الإمام مالك أصبح بالنسبة للمغاربة ليس مجرد مذهب ديني وإنما أصبح لهم وطنية وعقيدة ، وظل يدفع الحياة في المغرب ويطبعها بطابع خاص ما زال موجوداً في البلاد حتى الآن.

دولة المرابطين :

العالم الإسلامي قبل ظهور المرابطين

كان العالم الإسلامي في أوائل القرن الخامس الهجري بمثابة صرح تقوض بناؤه بالانقسام شرقاً وغرباً ، فكانت تتنازعه قوى مختلفة ، وتتزعمه ثلاث خلافات ، العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة والأموية في قرطبة .

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد غلب عليها النفوذ البويهي الشيعي الذي أضعف جبهة الدفاع عن العالم الإسلامي على الحدود البيزنطية ولم يقم البويهيون بعمل شيء في هذا المجال وزادت في نهاية فترقم المنازعات المذهبية بين الشيعة والسنة في العراق وأصبحت تهد كيان الدولة وتشغلها عن الأخطار المحيطة بها ، وزاد في هذه المنازعات مؤامرات الدولة الفاطمية التي أحدثت في العراق والشام والمغرب اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة .

كمـا كانـت الخلافـة الأموية في الأندلس قد آل أمرها في هذه الفترة إلى التفكك إلى دويلات ضعيفة متنازعة عرفت بالطوائف أو الفرق ، مما أغرى الأسبان ومن ورائهم المسيحيون في أوروبا بالتحفز والهجوم على المسلمين في الأندلس .

وكـان العـالم الإسلامي في حاجة إلى حركة إنقاذ تلم شعثه وتقوي أطرافه وثغوره أمام الطامعين فيه ، وتحققت له هذه الأمنية حين جاءته من وراء حدوده شرقاً وغرباً عناصر فتية مليئة بفتوة البداوة وعنفوانها ، فمن أقصى المشرق جاءت موجات الأتراك السلاجقة السنيين الذين دحروا البيزنطيين والبويهيين وتغلبوا على البيزنطيين في آسيا الصغرى وحولوها إلى تركستان جديدة اتخذوها موطناً لهم .

ومـن أقصـى المغرب جاءت عناصر مغربية فتية من صحراء (شنقيط) [١] المغربية (موريتانيا) وهم البربر الملثمين أو المرابطين المتحمسين للإسلام الذين وحدوا المغـرب كلـه وعـبروا إلى الأندلس فأنقذوها من براثن الأسبان وردوا المسيحيين المتربصين بها على أعقابهم ووحدوا الأندلس من جديد تحت نفوذهم .

ولا يهمنا موضوع السلاجقة والمشرق هنا إلا من ناحية الربط بين الأحداث، أمـا ما يهمنا الآن هو أن نوضح حركة انبعاث المرابطين من صحراء المغرب الأقصى في الجنوب وإنقاذهم للمغرب والأندلس .

الظروف والملابسات السياسية بالمغرب :

كان الوضع في المغرب مثله في الأندلس لقد تحول إلى ملوك طوائف بالإضافة إلى انتشـار الجهل فقد عمت الفوضى بالمغرب عقب انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ حتى قيام دولة المرابطين سنة ٤٥٠هـ وتعتبر هذه الفترة من أعقد فترات تـاريخ المغـرب وأكثرها اضطراباً وأحفلها بالحوادث ، فعندما انتقل المعز لدين الله

---

(١) كـلمة شنقيط كانت تطلق في الأصل على قرية من قرى (ولاية أدرار) في موريتانيا الحالية ، ومعنى شنقيط بالـبربرية عيون الخيل ، يقال إنها بنيت في القرن الثاني الهجري ، ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله و . . أهله يعرفون بالشناقطة ، وما زالت مدينة شنقيط هي العاصمة الروحية للبلاد ، أما العاصمة السياسية فهي مدينة (نواكشوط) على ساحل الأطلسي [أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص٤٧٨] .

الفـــاطمي إلى مصـــر سنة ٣٦٢هـــ أسند حكم أفريقية وبعض بلاد المغرب إلى أحد رجالـــه الـــبارزين من قبيلة صنهاجة البربرية الجبلية وهو (يوسف بن زيري) لكي يـــتفرغ خلفاء الفاطميين للجزء الشرقي من الدولة في مصر والشام والحجاز لمناوأة الدولة العباسية .

واســـتمر بـــنو زيـــري على ولائهم للفاطميين إلى أن تولى أمرهم (المعز بن بـــاديس) (٤٠٦-٤٥٣هـــــ)الذي تخلى عن ولائه للفاطميين ودعا للعباسيين وقد واجـــه الخلـــيفة الفاطمي هذا الموقف بأن أرسل إليه بعض القبائل العربية التي كانت تقـــيم في صـــعيد مصر وفي شرق الدلتا وهم (بنو هلال)و(بنو سليم)للانتقام منه، وكانـــت هذه القبائل قد اشتركت مع القرامطة في غزو بلاد الشام واستقرت بعض بطونها بتلك البلاد،وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هلال وبنو سليم بالفاطميين وعرضوا عليهم خدماتهم نقلهم الفاطميون معهم إلى مصر [١].

وعـــندما قطـــع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين قرر المستنصر الفاطمي توجيه قوة بني هلال وبني سليم إليه قائلاً لهم :

"قـــد أعطيـــناكم المغرب وملك بن باديس العبد الآبق" [٢] ثم كتب إلى ابن باديس يقول له :

"أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمـــراً كـــان مفعـــولاً"[٣] فاجتاحت قبائل بني هلال وبني سليم دولة بني زيري وحصـــروا أمراءها في مدينة المهدية على شاطئ البحر ، وعقب هذا الهجوم شاعت الفوضـــى في المغـــرب كله فإن القبائل العربية بعد قضائها على دولة المعز بن باديس

---

(١) محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، ص٢٦٤-٢٦٧ .
(٢) المرجع السابق ، نفس المكان .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٥٥ ، وابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٧٩-٨٠ .

الصـــنهاجي التحموا (بقبائل زناتة)[١] حين وصلوا إلى مركزهم بتلمسان المغرب الأوســـط ودفعوهم إلى المغرب الأقصى وخرج الزناتية بدورهم مندفعين إلى جنوب المغـــرب الأقصى وطردوا الصنهاجيين إلى الجنوب فأصبحوا محصورين بين زناتة من الشمال والقبائل السنغالية في حوض السنغال من الجنوب .

وكانت هذه هي الظروف التي دفعت قبائل صنهاجة [٢] الصحراء في منطقة شـــنقيط أو موريتانيا الحالية وشمال السنغال إلى التحرك للتخلص من هذا الوضع ولم يجدوا سوى الإسلام والتمسك بأهدافه فسعوا من أجل النهضة الإسلامية ، وكانت هـــذه القـــبائل ما زالت ضعيفة في إسلامها متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجـــري فحدثـــت فـــيها انتفاضة إسلامية إصلاحية كان قوامها تعاون الأمراء مع الفقهـــاء والحـــركات السياســـية الـــتي قامت في التاريخ الإسلامي بتعاون الفقهاء والحركات السياسية التي قامت في التاريخ الإسلامي بتعاون الفقهاء والأمراء كانت قويـــة وكونت دولا قوية ألفت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم أمام الخطر المحدق بهم مـــن الشمال والجنوب ، وذلك على أسس دينية وأخلاقية على يد الأمير (يحي بن عمرو بن إبراهيم الجدالي) زعيم الملثمين ، والفقيه (عبد الله بن ياسين الجزولي) وهمـــا من أصل صنهاجي ، وكان ابن ياسين من أهل الورع والفضل والسياسة على جانـــب طيب في الناحية العلمية فتعاهد مع القائد يحي في سنة ٤٣٠هـــ على العمل

---

(١) بـــلاد المغرب الأوسط من نهر "شلف" إلى قرب مجرى نهر "المولوية" وينقسم قسمين : شرق المغرب الأوسط وهو مهد صنهاجة المغرب الأوسط ، وغرب المغرب الأوسط وعاصمته "تلمسان" ويغلب عليه الزناتيون ، وكان ولاؤهـــم موجهاً نحو الأمويين الأندلسيين وكانت الحرب دائمة طوال هذه الفترة بين الجانبين ، وعندما دخل بنو هلال وبنو سليم دفعوا الزناتية إلى المغرب الأقصى .

(٢) قبائل صنهاجة الصحراء : هم : جُدَالة ومَسُّوفة ولَمتُونَة وتَارْجَا وجَزُرلَة وبنو وارِث ، وكانت هذه القبائل تمـــتد أول الأمر إلى الشمال وتحتل إقليم تافيلات وقاعدته سجلماسة فلما بسط الزناتيون سلطانهم على المغرب الأوسط طردوا الصنهاجيون إلى الجنوب .

للأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر بين قبائل صنهاجة ، غير أن قبائل صنهاجة نفرت منه في البداية .

وانـــتهى الأمـــر إلى انتخاب مجموعة منهم اعتزلوا الناس للعبادة مرابطين في مكـــان أطلقـــوا عليه (الرباط)[١] وشاع أمرهم بأنهم يطلبون الجنة فكثر الواردون علـــيهم الذين كانوا يتوبون على أيديهم ، وأخذ الداعي ابن ياسين يرغبهم في ثواب الله حـــتى تمكن من قلوبهم ، فلم تمر عليه سوى فترة وجيزة حتى تجمع لديه نحو ألف رجـــل مـــن أشـــراف صنهاجة فسماهم المرابطون وكانوا سنيين على مذهب الإمام مـــالك، وأخـــذ يعلمهم الكتاب والسنة وما فرض عليهم من ذلك ، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة .

وانتهى بهم الأمر إلى فرض دعوتهم في بطون صنهاجة في الصحراء ، واتجهوا بعـــد ذلك إلى الشمال لغزوه ، وكانت الأراضي الواقعة في الشمال في ذلك الوقت في فوضى ، فعلى أنقاض الخلافة الأموية في الأندلس قامت إمارات عديدة صغيرة في كـــلا جانبي مضيق جبل طارق ، وفي المناطق الشرقية من المغرب كان أمر الفاطميين قـــد ضعف منذ تمرد المعز بن باديس ، وهجوم قبائل بني هلال وبني سليم على هذه المـــناطق فأشـــاعوا فيها الخراب والدمار والحرب وفي سنة ٤٤٧هـــ توفي (يحي بن إبراهـــيم الجـــدالي) فعين ابن ياسين مكانه أخوه (أبو بكر بن عمر بن إبراهيم الجدالي) وعلى أيامه أصبح المرابطون قوة ضاربة متماسكة دينياً وأخلاقياً وعسكرياً .

فخرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني (عبد الله بن ياسين) وقـــائدهم الحـــربي (أبو بكر بن عمر الجدالي) ، وبـــدءوا يجاهدون الزناتية الذين

---

(١) قيل إن هذا المكان كان في جزيرة بنهر بالنيجر [ألفريد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ص٢٢٦ – ٢٣٠] ، وقـيل كان هذا المكان في جزيرة في نهر السنغال ، [توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ، ص٣٥٢] وقيل إنما جزيرة في المحيط الأطلسي قرب الساحل [حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص١٨٠] .

١٢١

يضــغطون عليهم من الشمال فانتصروا عليهم وكسروا الحصار الذي كان مضروباً عليهم في الشمال والجنوب .

فاســتولوا على بلاد السوس في جنوب المغرب وقاعدها (تارودانت) سنة ٤٤٨هــــ وفتحوا (سجلماسة) واتخذوها عاصمة لهم في البداية ثم اتجهوا بعد ذلك إلى (بــلاد الحــوز) واستولوا على عاصمتها (أغمات) في جنوب مراكش ، ونظراً لأهمية أغمات كمدينة متحضرة من جهة ولقربها من الصحراء من جهة أخرى ، فقد اختارها المرابطون عاصمة مؤقتة إلى أن يتم بناء عاصمة جديدة لهم وآثر أبو بكر بن عمــر عبور الصحراء جنوباً للجهاد في الجبهة الثانية ضد مملكة غانا الوثنية وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين يجاهد في الشمال ، وفي سبيل هذا الهدف العظيم اضطر الأمير المجــاهد أبو بكر عمر أن يترك زوجته وأهله ووطنه وأن يبيع نفسه من الله ، ويروى أنه قال لزوجته زينب النفزاوية عند فراقه لها : يا زينب إني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر ، ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسئولاً عنك . والرأي أن أطلقك ثم طلقها ، ويقال أنه قــال لابن عمه يوسف بن تاشفين : "تزوجها فإنها امرأة مسعودة فتزوجها يوسف ، وتوجــه أبــو بكر بن عمر إلى الجهاد ضد مملكة غانا [1] وتوفي سنة ٤٨٠هــ ، ولم تكــن العلاقة طيبة بين المرابطين ومملكة غانا فكانت هناك اعتداءات متبادلة ، وتمكن أبــو بكر من فتح بلادهم ونشر الإسلام بها وقيام مملكة مالي الإسلامية على أنقاضها وكان هذا ثمرة من ثمار جهاد المرابطين وقائدهم الحربي أبو بكر بن عمر الجدالي .

وفي ســنة ٤٥٣هــــ آلت زعامة المرابطين إلى شخصية قوية هي شخصية (يوسف بن تاشفين) وهو أقوى حكام المرابطين تمت في عصره السيطرة على المغرب

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٢ ، (ص١٩٩٧-١ م) .

الأقصى والجزائر وأسس مدينة مراكش[1] سنة ٤٦٢هـ كعاصمة للمرابطين ، وقيل سنة ٤٥٤هـ ، وقام بتوحيد بلاد المغرب الأقصى والأوسط ، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم ضعيف العارضين لا يعرف العربية غير ميال إلى الرفاهية شجاعا عادلا مقداما مؤثرا لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم يحطمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب الكبار ، أكثر رجاله وحشمه وخاصته من السودان وهم الذين اعتمد عليهم في معاركه بالمغرب والأندلس فحققوا له النصر بفضل ما اشتهروا به من ثبات سنذكر طرفا منه فيما بعد .

ولما ظهر نجم يوسف بن تاشفين بعد توحيد المغرب تطلعت إليه أنظار المسلمين بالأندلس فاستغاثوا به من ضغط الأسبان عليهم وطلبوا نجدته فلبى نداء ملوك الطوائف سنة ٤٧٨هـ وكانت استجابة المرابطين لنجدة إخوانهم بالأندلس بعد فتوى صدرت من علماء جامع القرويين بضرورة نجدة إخوانهم في الأندلس[2] وقد سبقتهم شهرتهم في العبور إلى أعداء الإسلام وأصبح لها دوي كبير وخاصة لاستيلائهم على المغرب في فترة وجيزة ، وعلم الأعداء بشجاعتهم وتفانيهم في الجهاد وحبهم للجهاد وزهدهم في الدنيا ، وسمعوا ما ظهر لأبطالهم في المعارك من ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تصل إلى الكلى والقلوب ، فأصبح لهم رعب في قلوب الأعداء .

وقد عبرت قوات المرابطين مضيق جبل طارق والتقت مع الأسبان وحلفائهم من المسيحيين في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ شمال

---

(١) مراكش : اسم بربري قديم قد يكون مشتقا من أوركش ويعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود ، وفي هذا يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب : وإنما سميت بعبد أسود كان يستوطنها ويخيف الطريق اسمه مراكش ، أما ابن خلدون فيرى أن معنى مراكش : امش مسرعا في لغة المصامدة لأن موضعها كان مأوى للصوص (أحمد مختار العبادي ، مرجع سابق)

(٢) عبد الهادي التازي ، جامع القرويين ، ج١ ، ص١٤ .

قرطـــبة ويصف بعض المؤرخين عبور قوات بن تاشفين فيقول : " فلما عبرت جيوش يوســـف بــن تاشـــفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفـــع رغاؤهـــا إلى عـــنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملا ولا كانت خيـــلهم قـــد رأت صورها ، ولا سمعت أصواقما ، وكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب ، كان يحدق بها معسكره ، وكان يحضرها الحـــرب ، فكانـــت خيل الفرنج تحجم عنها وتجمح براكبها في المعركة " فلما التقى الجمعان قدم يوسف بن تاشفين بين يدي حربه كتابا على مقتضى السنة يعرض على الأدفونـــش الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وقال له : بلغنا أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هـــذه العرصـــة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعاتك ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضـــلال﴾ (غافـــر :٥) ، فرفض عرضه مغتراً بجيشه الذي بلغ نحو ستين ألفاً ودارت الدائـــرة فيها على أعداء الإسلام ، ولم يملك قائدهم سوى الفرار مع عدد قليل من جيشه قيل إنهم دون الثلاثين.

وقـــيل إن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم ، وجمعـــت الغـــنائم وعف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس ، وعـــرفهم أن مقصـــوده إنمـــا كان الغزو لا النهب ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوســـف بـــن تاشفين لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له [1] ، وبذلك أوقف المرابطون تقدم الأسبان إلى الجنوب وأجلوا سقوط دولة الإسلام بالأندلس نحو أربعة قـــرون ، وبعد هذا النصر عادوا إلى أفريقيا مرة أخرى ، لكن حال ملوك الطوائف بـــالأندلس لم يســـتقر واستمرت خلافاقم المرابطون إلى الأندلس مرة أخرى في سنة ٤٨٢هـــ وعزلوا ملوك الطوائف ووحدوا بلادهم تحت راية المرابطين .

---

(١) ابن خلكان ، ج٧ ، ص١١٦-١١٧ .

وقد أضاف يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس إلى دولة المرابطين بالمغرب وكانت العاصمة (مراكش) ، وقد تمكن المرابطون من المحافظة على ما ورثوه من الأندلس الإسلامي بفضل ما بذلوه من جهود جليلة في الجهاد وما كسبوه من انتصارات كبرى وما تكبدوه كذلك من خسائر وبهذا تظهر أهمية العامل الديني في الدفاع عن الإسلام فقد ظهرت أهميته في إعلان المرابطين للجهاد ضد قوى الكفر والمنحرفين وانتصروا لذلك .

وبهذا نرى أنه لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية من عصر الفتوح إلى الآن أن انخذلت أمتنا في معركة كانت العقيدة لواءها والإيمان ذخيرتها وإدارة الجهاد سلاحها ، وهذا هو التفسير الحقيقي لتاريخنا ، سواء قاد مسيرتنا العرب أو الأتراك أو الفرس أو البربر أو غيرهم ، فإن الله وعد من يقاتل في سبيله النصر ، ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ .

وقد كانت تضحيات المرابطين في الأندلس من أكبر الأسباب التي مكنت الموحدين من التغلب عليهم [1] بالإضافة إلى أن هذه البلاد الثرية الجميلة بالنسبة للصحراء الأفريقية قضت على خشونة المرابطين فعجزوا بعد فترة عن مقاومة غارات المسيحيين المستمرة ، وتغلب عليهم الموحدون .

ومما هو جدير بالذكر أن المرابطين اعترفوا بالخلافة العباسية السنية رغبة منهم في المحافظة على الوحدة الإسلامية ، ولأنهم كانوا لا يخشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال ، ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة لسوء اعتقادهم فيه وعدائهم للفاطميين بسبب تدخلهم في شئونهم .

ولذلك اتصل المرابطون بالخلفاء العباسيين وتبادلوا الرسائل معهم ، ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب ، واستقرت الدولة في مراكش كان طبيعياً أن

---

(١) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨١ .

يـــتخذ لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه ، فرأى رجاله أن يتخذ لقب أمير المؤمنين ولكنه رفض وقال : إنه لقب خلفاء بني العباس .

وبعـــد انتصاره على الأسبان في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـــ بالأندلس حمل لقـــب (أمير المسلمين وناصر الدين) ، وعـــلى أنه لم يقبل في البداية أن يحمل هذا اللقب إلا بعد أن أرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فـــلم يـــر الخليفة بدا في عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برئاسة الإمام الغـــزالي سنة ٤٨٤هـــ وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين بالأندلس [١] .

وبذلك يمكن أن نقول إن المغرب في عهد المرابطين قد انتهى إلى وحدة دينية ومذهبـــية كاملة ، فقد أضحى المغرب كله من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي ومن الـــبحر المتوسط إلى مشارف إفريقية المدارية على مذهب السنة والجماعة ، وأصبح يؤلف مع الدولة العباسية في المشرق وحده مذهبية سنية كان السلاجقة السنيون قد ساهموا هم أيضاً في بناء قواعدها في المشرق في عصرهم . .

الموحدون :

أســـس جماعة الموحدين بالمغرب داعية يسمى (محمد بن عبد الله بن تُومَرْت) مـــن قبـــيلة مصمودة البربرية في حوالي سنة ٥١٥هـــ ، وقد شب بن تومرت محباً للعـــلم، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بمصر وزار العراق وحج ولقي جماعة من العلماء بهذه البلاد وأفاد علماً واسعاً .

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٣١٣-٣١٦ ، ويذكر ابن الأثير أن علماء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين أنه ليست طاعته بواجبة حتى يخطب للخليفة ويأتيه تقليد بالبلاد ، فأرسل إلى الخليفة المقتدي فأتاه التقليد منه .

وبعـــد عودته إلى المغرب أخذ نفسه بتدريس العلوم الشرعية بالمغرب والأمر بالمعـــروف والـــنهي عـــن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان ينتحل مذهب الأشاعرة في تأويل المتشابه ، ولقي بسبب ذلك أذى كثيراً .

ومذهـــب الأشاعرة نسبة إلى (علي بن إسماعيل الأشعري) المعروف بأبي الحســـن الأشعري و هو من نسل الصحابي الكريم أبي موسى الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـــ) ، وقد نشأ بالبصرة وكان من كبار المعتزلة ولكنه خرج عليهم وخالفهم في أخريات حياته وأصبح يهاجمهم ومن أهم كتبه "مقالات الإسلاميين" .

فالمعـــتزلة يقولون بأن الله : قادر بذاته عالم بذاته متكلم بذاته لا بقدرة وعلم وكلام زائدة على ذلك إذ لو كان عالماً بعلم زائد ومتصفاً بهذه الصفات كلها لكان هناك صفة وموصوف وهذه صفة الجسمية والله تعالى منـــزه عن الجسمية .

وجاء الأشعري فأثبت هذه الصفات لله متميزة وقال بأنها أزلية وقديمة قائمة بذاته تعالى .

وكان السلف من الصحابة والتابعين قد امتنعوا أن يخوضوا في هذا الموضوع، وقـــالوا : إن الله تعالى ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾ و ﴿ خلقتُ بيدي﴾ ونحو ذلك نؤمن بها ولا نؤولها ، ونكل أمرها إلى الله ، أما الغلو وأما التأويل فلسنا مكلفين بهما . وقال مالك بن أنس عند سؤاله عن ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾ : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومثل ذلك ما قال أحمد بن حنبل .

وكـــان للأشـــعري أتباع أقوياء من شافعية وحنفية ومالكية وحنبلية ، كأبي إســـحق الاسفراييني وأبو بكر القفال والحافظ الجرجاني وأبو محمد الطبري العراقي وأكثرهم جالسه وأخذ عنه ، وجاءت بعد هؤلاء طبقة ثانية : كالصعلوكي والداراني وأبـــو بكر الباقلاني وأبو بكر فورك ، ومن الطبقة الثالثة : أبو الحسن السكري وأبو منصور النيسابوري وأبو منصور البغدادي ، والحافظ الهروي وغيرهم . ومن الرابعة:

الخطيب البغدادي وأبو القاسم القشيري وإمام الحرمين ومن الخامسة : الغزالي ، وفخر الإسلام الشاشي ، وأبو نصر القشيري وابن عساكر والسمعاني وأبو طاهر السلفي ، ومن السادسة : فخر الدين الرازي وسيف الدين الآمدي وعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب المالكي ، إلى كثير غيرهم ، وكل هؤلاء تابعوا على نصرة مذهبه وخفوت خصومه [١] .

ولجأ ابن تومرت إلى (تينملل) بجبال مصمودة على مقربة من مراكش[٢] وهداه تفكيره إلى توحيد قبائل مصمودة للتخلص من سلطان صنهاجة ، والتغلب عليها وإقامة دولة مصمودية ، ونجح في جمع شتات مصمودة ، ورتبهم في تنظيم ديني عسكري وبأ يواجه بهم المرابطين .

وفي سبيل هدفه السياسي ادعى أن المرابطين منحرفون عن الإسلام رغم ما عرف عن أميرهم علي بن يوسف بن تاشفين يومئذ من شدة تمسكه بالإسلام وكان من أصلح الحكام وأشدهم نصرة للإسلام على غرار أبيه ، ولكن (ابن تومرت) كان في الحقيقة داعياً سياسياً يسعى إلى توحيد قبائل مصمودة ، وغطى أهدافه السياسية بهذه المظاهر الدينية وعين كبير أصحابه (عبد المؤمن بن علي الكومي) قائداً عسكرياً لرجاله وأتباعه ، وبنى (رباطاً) لأتباعه سنة ٥١٥هـ في تينملل اجتمعت فيه إليه الطلبة والأنصار للعبادة والتعلم ، وكان يعلمهم دروساً في التوحيد باللغة البربرية ، ولذلك سمي أتباعه (بالموحدين) ، وقد تحرش به رجال (علي بن يوسف بن تاشفين) أمير أغمات فطلبه ، وكان قد بايعه أتباعه ولقبوه بالمهدي ، وقسم أصحابه إلى أنصار وإلى مهاجرين ، وكان يدعي أنه حسني علوي .

---

(١) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج٤ ، ص٧٣ .

(٢) تين ملل قيل هي اسم جبال مصمودة سكنها برابرة مصمودة بينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ (الفرسخ ٣ أميال والميل ٢ كم = ٦كم) [ياقوت] .

وتـوفي سـنة ٥٢٢هـ بعد أن قرر قواعد مذهب الموحدين وكثر أتباعه وخاصـة مـن المصامدة ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لكبير أتباعه وهو عبد المؤمن الكومي [١] وكان ابن تومرت رجلاً رَبْعة ، أسمر اللون ، عظيم الهامة ، حديد الـنظر[٢] [قدم في الثرى وهمه في الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا] .

وكتـب لعـبد المؤمـن النصـر بعد وفاة بن تومرت فاستولى برجاله على مـراكش سـنة ٥٤٠هـ وفاس سنة ٥٤٢هـ وتلمسان سنة ٥٤٨ هـ وإفريقية سنة ٥٥٥هـ وامتد ملكه إلى الأندلس حيث كان قد أرسل جيشاً إلى الأندلس سنة ٥٤٦هـ فأخضع ما كان فيها بأيدي المرابطين [٣] .

وهكـذا دخل في حوزة الموحدين كل سواحل الشمال الأفريقي من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي .

وكـان الموحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم لأنهم من وجهة نظرهم أكـثر المسـلمين إيماناً وأصحهم مذهباً وعندما عين ابن تومرت عبد المؤمن الكومي قـائداً بعده للموحدين قال لأتباعه : "أنتم المؤمنون وهذا أميركم"[٤] ، وبهذا لم يجد أتـباع الموحديـن حرجاً في أن يلقبوا زعيمهم بلقب أمير المؤمنين ومن الألقاب التي أخذها عبد المؤمن لقب "خليفة" .

ومن هنا نلاحظ أن الوحدة التي أقامها المرابطون مع المشرق بعلاقتهم الطيبة بالدولـة العباسـية واعترافهم بها وأقامتهم الخطبة للخليفة العباسي ، أقول إن هذه

---

(١) ابـن خلـدون ، العـبر ، ج٦ ، ص٣٠٠-٣٠٦ ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان : أن وفاة ابن تومرت كانت سنة ٥٢٤هـ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات ، ج٥ ، ص٥٣-٥٤ .

(٣) كان ذلك بطلب الأندلسيين حين أرسلوا إلى قائد الموحدين يقولون له : من شعر أبي عبد الله بن الأبار من مطلع قصيدته السينية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً * إن السبيل إلى منجاتها درسا

(٤) المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص١٨٨ .

الوحـــدة قد انفصمت بقيام دولة الموحدين الذين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين على الرغم من أنهم كانوا سنة مثلهم .

الباب الثاني

الفصل الثاني

الدول التي نشأت في مصر والشام

- الدولة الطولونية
- الدولة الإخشيدية
- الدولة الفاطمية
- الدولة الحمدانية
- دولة مصر والشام في العصر الأيوبي
- دولة مصر والشام في العصر المملوكي

الدول التي نشأت في مصر والشام

الدولة الطولونية ٢٥٤-٢٩٢هـ :

منذ عصر الراشدين أصبحت مصر قاعدة لانطلاق المسلمين في شمال أفريقيا ونحـو الجنوب في بلاد النوبة والسودان كما وأصبحت قاعدة للدفاع عن المغرب ، ولذلك ظهرت فيها البحرية الإسلامية للدفاع عن السواحل الشرقية للبحر المتوسط ضـد غـارات الروم [(١)] ، وكان هناك نوع من الارتباط بين مصر والشام في مجال الـتعاون العسـكري والإداري ، وبدايـة من العقد الأول للنصف الثاني من القرن الثالـث الهجري تبدأ في الظهور (وحدة سياسية) يمكن أن نسميها دولة مصر والشام الـتي ستطور مع الزمن حتى تصبح (سلطنة مصر والشام) ابتداء من العصر الأيوبي هـذه الدولـة شملت مصر بحدودها التاريخية التي تمتد إلى مملكة النوبة ودنقلة جنوباً والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء شرقاً ، وتمتد غرباً حتى تشمل برقة في ليبيا الحالية .

أما بلاد الشام فيقصد بها كل البلاد الواقعة بين نهر الفرات والبحر المتوسط ، ومن الحدود الشمالية للجزيرة العربية حتى جبال طوروس شمالاً [(٢)] .

وقد ولدت هذه الوحدة في عصر أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ) وأحمد بـن طولـون تـركي مـن نواحي بخارى # قضى أحمد سنوات طويلة من شبابه في (طـرطوس) من بلاد الثغور مع الدولة البيزنطية وهناك تعلم فنون الفروسية والحرب بالإضافة إلى تعلمه علوم الدين واللغة العربية ، وعندما سيطر الأتراك على الخلافة في بغـداد فإن نفوذهم لم يقتصر على العاصمة بل تعداها إلى الولايات الإسلامية بما فيها

---

(١) ذات الصواري سنة ٣١هـ .

(٢) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص٣٠٧ .

كان أبوه طولون من المماليك الأتراك الذين أرسلهم حاكم مدينة بخارى ضمن هدايا الرقيق التركي إلى الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠هـ وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى وصل إلى مرتبة قائد الحـرس الخلافي ، وكانت ولادة ابنه أحمد في مدينة سامرا في عهد المعتصم سنة ٢٢٠هـ، وقيل أن طولون تبناه ولم يكن ابنه ، ... [أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص١٢٨-١٢٩] .

مصر ، وجرت العادة أيضاً أن تمنح مصر إقطاعاً لأحد القادة الأتراك وجرت العادة أيضـاً أن يبقي هؤلاء الولاة إلى جوار الخليفة في بغداد أو سامرا ويرسلون من ينوب عـنهم في حكـم مصر ، وكان هؤلاء النواب الأتراك الذين حكموا مصر أحمد بن طولـون مـنذ عام ٢٥٤هـ فقد كان نائباً عن الأمير التركي (باكباك) الذي عينه المـتوكل والياً على مصر ، وبذلك أتيحت الفرصة لأحمد بن طولون أن يقيم في مصر أول دولة منفصلة عن الخلافة العباسية ولكن هذا الانفصال لم يكن تاماً ، وإنما بقيت هـناك روابـط بينه وبين الخلافة ، وهذه الروابط تتمثل في بعض المظاهر الشكلية ، وهـي الدعاء للخليفة في الخطبة يوم الجمعة ونقش اسم الخليفة على النقود وإرسال جـزء مـن الخوارج للدولة ، وهذه الظاهرة لا نجدها في دول المغرب الإسلامي التي انفصلت انفصالاً تاماً عن الخلافة .

ولذلك حرصت دويلات المشرق بما في ذلك دولة مصر والشام على إعلان تبعيتها وولائها عن طريق تلك المظاهر السائغة .

ولم يقتصر نفوذ ابن طولون على مصر وحدها بل امتد نفوذه إلى بلاد الشام شمالاً وإلى ليبيا غرباً والنوبة ودنقلة جنوباً .

وقد نشأت دولة مصر والشام نتيجة لخلاف طويل وقع بين أحمد بن طولون وأحمـد الموفق أخي الخليفة العباسي المعتمد ، وكانت نتيجة هذا الخلاف أن قرر أحمد بن طولون غزو الشام وإدخال ما يستطيع إدخاله من بلادها في ولاية مصر ، فاستولى عـلى الساحل الشامي حتى أنطاكية ودمشق وحمص وحلب وحماة[١] ، وساعده على ذلك انشغال الدولة العباسية بثورة الزنج .

ولقـد شـهدت مصـر بعـض التطورات الحضارية والعسكرية على عهد الطولونـيين ، فقـد أصـبح لها جيش خاص بها يصل تعداده نحو سبعين ألفاً[٢] من

---

(١) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص٣٠٧ .

(٢) المقريزي ، الخطط .

الأتـــراك والسودانيين والعرب وأسس لمصر عاصمة جديدة سماها القطائع سنة ٢٥٦ هــــ على جبل يشكر بجانب جبل المقطم وسبب تسميتها بالقطائع أنه قسمها قطائع بين جنده [١] وبنى له فيها قصراً فخماً ، ومسجداً جامعاً هو المعروف باسمه إلى الآن على حالته التي بني عليها ، وهو يمثل عمارة المساجد العراقية في مصر والفن العباسي بها على غرار مسجد سامرا ، وهو أكبر مساجد القاهرة اتساعاً ، وكان مكاناً لحركة علمـــية نشطة بجانب جامع عمرو بن العاص بالفسطاط حتى إنشاء الأزهر في العصر الفاطمي .

وحصـــن أحمـــد بن طولون ثغور مملكته في مصر والشام وأنشأ داراً لصناعة السفن في جزيرة الروضة وسط النيل تجاه الفسطاط .

وفي خلال حكم ابن طولون وقع نزاع بين الخليفة العباسي المعتمد وبين أخيه وولي عهـــده أحمد الموفق الذي استبد بالحكم وسيطر على أخيه الخليفة في الهرب إلى مصر ، وشجعه أحمد بن طولون وطلب منه نقل الخلافة إلى مصر ، لكن هذا المشروع أحبطه الموفق عندما علم به وحجر على أخيه الخليفة سنة ٢٦٩هـــ .

وزاد العـــداء بين ابن طولون والموفق لدرجة جعلت ابن طولون يتقرب من الأمويـــين في الأندلس من باب الكيد للموفق وأتباعه ، وأصبح للأندلسيين جالية في مصر وكان بعضهم يسكن في جامع بن طولون ويدرسون فيه [٢] .

وتـــوفي أحمـــد بن طولون سنة ٢٧٠هـــ وله من العمر نحو خمسين سنة بعد حكم دام نحو ١٦ سنة وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين منهم سبعة عشر من الذكور ، وســـتة عشر من الإناث تمتعت مصر في عهده بالرفاهية والاستقرار وانتعشت بذلك كل مرافق البلاد ، وذلك راجع لشخصية أحمد بن طولون فقد كان حاكماً مستنيراً ،

---

(١) كانـــت الفســـطاط أول عاصـــمة للمسلمين في مصر في جنوب القاهرة الحالية سنة ٢٢هـــ ثم أنشأ العباسيون مدينة العسكر شمالها سنة ١٣٢هـــ لتكون مقراً للحامية العباسية والحكم العباسي الجديد .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص٢٦-٢٧ ، طبعة بيروت .

وعلى الرغم من أنه نشأ كغيره من الأتراك نشأة عسكرية في سامرا إلا أنه درس العلوم الدينية والعربية مما ساعده على القيام بسياسة مصر والارتقاء بها .

وفي عهد خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠-٢٨٢هـ) تحسنت العلاقات بين دار الخلافة والدولة الطولونية واكتسب رضا الخليفة المعتضد بن الموفق (٢٧٩-٢٨٩هـ) إلى درجة المصاهرة بين الطرفين فقد تزوج المعتضد ابنه خمارويه قطر الندى سنة ٢٨١هـ ، وصرف عليها على تجهيزها خمارويه أموال طائلة .

وفي سنة ٢٩٢هـ كان البيت الطولوني قد ضعف فأرسلت الدولة العباسية جيشاً أعاد مصر إلى الدولة العباسية ، وظلت مصر تابعة تبعية مباشرة لدولة الخلافة حتى قيام الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣هـ وخلال الفترة من ٢٩٢ إلى ٣٢٣هـ اختفت الوحدة بين مصر والشام وعادت بعد قيام الدولة الإخشيدية .

الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى محمد بن طغج الإخشيد[١] ، وهو قائد تركي من أصل فرغاني دافع عن مصر أثناء تعرضها للغزو من قبل الفاطميين وأبلى بلاءً حسناً ، فكافأه الخليفة الراضي بأن ولاه على مصر سنة ٣٢٣هـ .

وكان هدف الخلافة من ذلك إنشاء قوة في مصر تستطيع صد هجمات الدولة الفاطمية التي أصبحت تطمح إلى توسيع ملكها نحو الشرق ، فعينت الرجل الذي تولى قيادة الدفاع عنها ونجح أكثر من مرة وهو محمد بن طغج الإخشيدي ولكنه ما لبث أن قويت أقدامه بها وعمل على الاحتفاظ بالملك في أسرته وأبنائه من بعده للانفراد بشئونها بعيداً عن سلطة الدولة العباسية .

---

(١) الإخشيد : لقب تركي كان يتلقب به ملوك فرغانة في بلاد ما وراء النهر ، ويقال إن الإخشيد كان من سلالة هؤلاء الملوك وهو مثل لقب قيصر وكسرى، وفرعون والنجاشي ، ويقال إنه طلب هذا اللقب من الخليفة الراضي بعد انتصاره على الفاطميين .

وحاول محمد الأخشيد أن يمشي على منوال أحمد بن طولون في إدارة مصر ، وحاول الإخشيد التوسع شمالاً في بلاد الشام على غرار ما قام به ابن طولون من قبل ولكـــن الدولة العباسية وقفت في وجهه ، وعينت أحد قوادها وهو (محمد بن رائق) عـــلى جـــنوب الشـــام ، أما شمال الشام فقد استولى عليه الحمدانيون ، ولهذا قضى الإخشـــيد حياته يحارب ابن رائق في الجنوب والحمدانيين في شمال الشام والفاطميين من الغرب .

وحـــاول محمد الإخشيد نفس المحاولة التي قام بها أحمد بن طولون قبل وهي نقـــل الخلافة العباسية إلى مصر لتكون تحت حمايته سنة ٣٣٣هـــ لكن محاولته فشلت وعـــز عـــلى الخليفة (المتقي) أن يترك عاصمة أجداده ومقر أسرته ويذهب إلى مصر وكـــان (الخليفة المتقي) عندما ساءت حالته بسبب استبداد الأتراك به اتصل بمحمد الإخشيد واجتمع به في مدينة الرقة في شمال الفرات وطلب من الخليفة أن يصحبه إلى مصر حيث يكون تحت حمايته .

وتـــوفي الإخشيد سنة ٣٣٤هـــ وكان قد أوصى بالملك من بعده لابنه (أبي القاســـم أونوجـــور) وكان صبياً دون الرابعة عشرة من عمره ، فتولى الوصاية عليه عـــبده الحبشـــي وهو كافور شخص حبشي كان في خدمة الإخشيد وكان في بداية حياته من رقيق الإخشيد ثم اعتنق إلى أن صار مربياً لولدي الإخشيد فأسند إليه قيادة جيوشه في حربه ضد سيف الدولة الحمداني وغيرها من الحروب ثم عهد إليه بالقيادة عـــلى أبـــنائه ، وكان كافور حسن السياسة استطاع أن يحصل من الخليفة على عهد بتولية الأمير الصغير أونوجور على مصر والشام ما عدا حلب .

واســـتطاع كافور بحكم هذه الظروف أن يستبد بالحكم ، وأن يصير الحاكم الحقـــيقي للـــبلاد من ٣٣٤هـــ حتى توفي كافور سنة ٣٥٧هـــ واستطاع كافور أن يـــراوغ المعز الفاطمي عندما دعاه للدخول في طاعته ، واستطاع بدهائه وكياسته أن يؤخر الغزو الفاطمي لمصر طوال عهده .

وكـــان السبب كما يقول أبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، أن كافور كـــان فطناً خبيراً بالسياسة ذكياً جيد العقل ، وكان يهادي المعز ويظهر ميله إليه وفي الوقـــت نفســـه يذعـــن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء واشتهر بالكرم على عكس مولاه الإخشيد الذي كان بخيلاً .

وبعد وفاة كافور اختار الجنود صبياً سنه ١١ سنة يسمى أبو الفوارس حفيد الإخشيد لولاية مصر دون الرجوع إلى السلطات العباسية في بغداد .

وكانـــت الدولـــة العباسية عاجزة عن عمل أي شيء في مصر ، وذلك لأن الحمدانيين في شمال الشام والقرامطة بجنوب الشام كانوا يحولون دون وصول جيوشها للدفـــاع عـــن مصـــر ، وهـــذا فضـــلاً عن أن الخلافة نفسها كانت من الضعف والاضطرابات بحيث لا تستطيع إمداد مصر بالمال والرجال ، فقد كانت واقعة تحت وطأة البويهيين .

ونتيجة لهذا الضعف أصبحت مصر فريسة سهلة للدولة الفاطمية التي كانت تتربص بها منذ زمن بعيد فقد أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلى كافور الإخشيد وإلى أكابـــر قـــواده يدعوهـــم إلى طاعته ، فقابلهم كافور بالسياسة ولاطفهم لألى تسوء [illegible] بـــين الطـــرفين وبـــدأ يحسن إلى العلويين في مصر ويدر عليهم الهبات والأرزاق[1] وفي ســـنة ٣٥٨هـــــ نجـــح الجيش الفاطمي بقيادة جوهر الصقلي في الاستيلاء على مصر ، وبذلك انفتح المجال إلى الشام والحجاز أمام الدولة الفاطمية .

ولم تســـتفد مصر والشام أثناء ولاية الإخشيديين نظراً لكثرة الصراع الذي دار بـــين الولاية والمحيطين بها من قرامطة وحمدانيين وفاطميين بالإضافة إلى تمرد أهل الـــنوبة عليها وكثرة إغارهم من الجنوب بالإضافة أيضاً إلى إصابتها ببعض الكوارث الطبيعية كالزلازل .

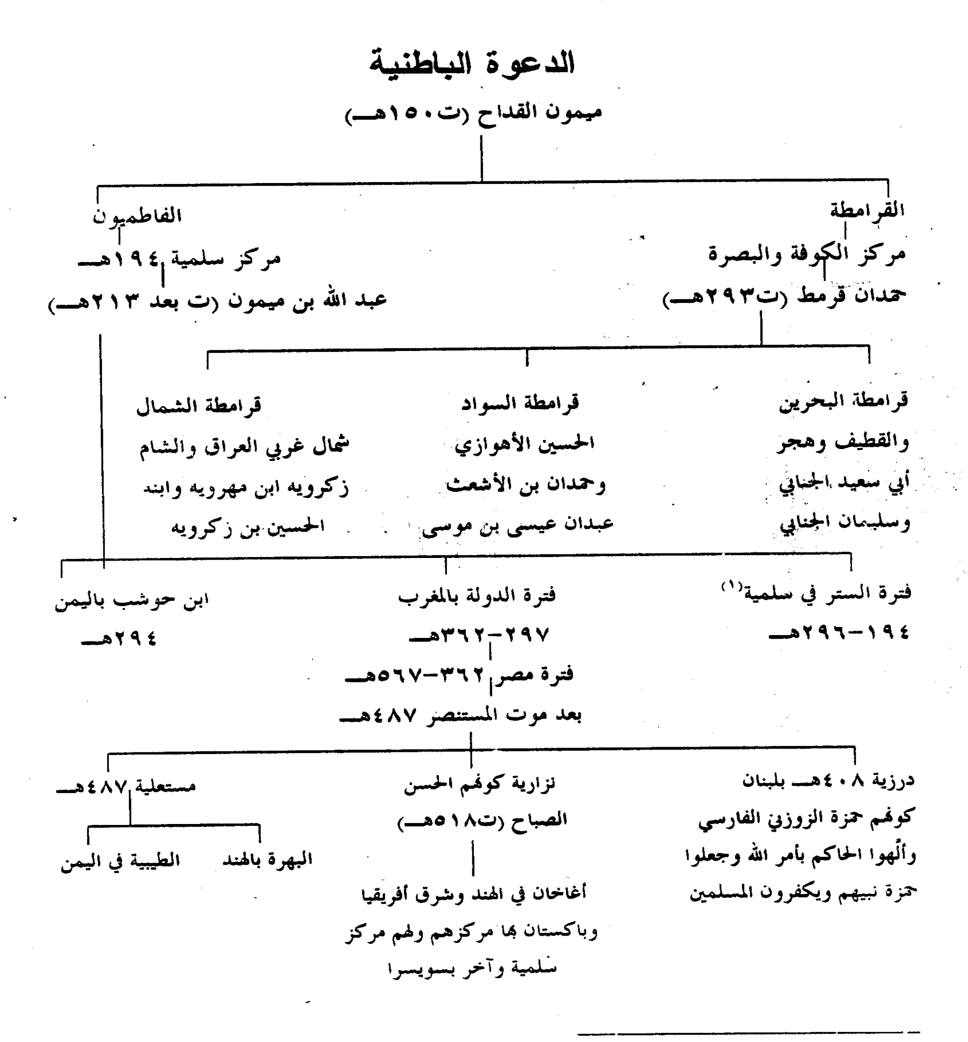
---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص٢[illegible]

الدولة الفاطمية ٢٩٦-٥٦٧هـ :

تنتسب الدولة الفاطمية إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام وزوج علـي ابن أبي طالب ومؤسسها هو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم (١) بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهذا نسبهم كما أورده ابـن خلدون في كتابه العبر (٢) لكنه مختلف فيه بين المؤرخين نظراً لأنهم كانوا يغيرون أسمـاءهم في فترة الدعوة السرية خوفاً على أنفسهم من العباسيين وكان هذا سبباً في طعن العباسيين في نسبهم عند ظهور دولتهم سنة ٢٩٦هـ بالمغرب العربي ، وترجع دولـتهم في نشأتها إلى نشاط دعاة الباطنية في القرنين الثاني والثالث ، لذا يلزمنا قبل الخوض في تاريخ هذه الدولة أن نلقي الضوء على أصول الباطنية .

(١) يسمونه المكتوم لأنهم كانوا يكتمون اسمه حذراً عليه ، ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص٤٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٤٩ .



---

(١) يذكر مصطفى غالب في كتاب له عن القرامطة أن خروج الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل إلى سلمية كان سنة ٢٠٨هـ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص٨٣.

أصول الباطنية :

يعد تاريخ الحركة الباطنية من الموضوعات الشائكة في التاريخ الإسلامي بسبب قيام الدعوة الباطنية على السرية التامة بسبب خوفهم على أنفسهم من رجال الدولة العباسية ، وهذا مما اضطرهم أيضاً إلى تغيير أسمائهم عدة مرات خوفاً من انكشاف أمرهم ، ومن ثم نجد اختلافاً كبيراً في أسمائهم في شتى المصادر ، وبصفة عامة فإنهم لجأوا إلى التخفي في أعمالهم كلها بسبب ما نالهم من مطاردة وحاربوا أعداءهم سراً في غالب الأحيان ولا يحاربون جهراً إلا إذا كانوا قادرين .

وهم بذلك يختلفون عن الخوارج فقد كانوا ظاهرين في حروبهم ، وغلبت على الخوارج الطبيعة البدوية في الصراحة ، ومن ثم كان أكثرهم لا يقول بالتقية أما الباطنية فقد قالوا بالتقية وكانت أساساً في عقيدتهم وعقيدة غيرهم من الشيعة ، والتقية هي النفاق السياسي والمداراة للأعداء وقت قوتهم ، وهي أن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، وقال الخوارج إن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب العقيدة .

أما أهل السنة فقالوا : من خاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده ، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه [(١)] ، مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ .

ومن السمات البارزة للحركة الباطنية في مرحلة الستر أن كل إمام كان يحمل اسمين : اسماً حقيقياً وآخر سرياً وحركياً [(٢)] .

ونظم الدعوة الباطنية في البداية جماعة من الخارجين الفرس على الدولة العباسية الذين آذاهم ما حدث من الدولة العباسية لزعمائهم مثل أبي سلمة وأبي مسلم وفشلت حركاتهم العلنية في النيل منها ، ومن ثم فكروا في الاتصال بالعرب

---

(١) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص٢٧٤ .

(٢) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص٣٥٣ .

الشيعة الغاضبين على العباسيين وقاموا بتعزيز حركاتهم سراً للنيل من الدولة العباسية وكان ذلك أيام أبي جعفر المنصور ووجد الشيعة في الموالي الفرس المتذمرين والحاقدين على الدولة مفكرين أقوياء قادرين على التنظيمات السرية بنفس الدرجة التي كانت عليها سرية الدعوة العباسية عندما واجهت الدولة الأموية ، ودخل كثير من الفرس الحاقدين على العباسيين إلى هذه الحركة السرية الشيعية التي أطلق عليها فيما بعد الحركة الباطنية لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سراً ، ولأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أي المستور ، ولقولهم فيما بعد "إن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويل" كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعاتهم بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو الإمام السابع في نظرهم وليس هو موسى الكاظم كما يرى الإثنى عشرية .

وقام بالدعوة الباطنية في البداية (أبو الخطاب الأسدي) بالولاء واسمه محمد بن أبي زينب وكنيته أبو الخطاب فارسي الأصل ، وكان نشاطه بالكوفة فقتله عيسى بن موسى والي الكوفة سنة ١٤٣هـ وقال عنه أنه ادعى أن جعفر الصادق إله .

وكان معه في الدعوة منذ قامت رجل فارسي آخر هو (ميمون القداح) المكنى بأبي شاكر ، وكان متفنناً في درس الأساطير الدينية والبحوث الكلامية والجدل الفلسفي ومتآمراً جريئاً ، وكان (ميمون) في الأصل مجوسياً من سبي الأهواز [١] أظهر إسلامه وبدأ حياته الإسلامية مولى (لجعفر الصادق) ، وكان داعياً لآل البيت ، ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة في أواخر عهد المنصور ، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبهم الشهير بمذهب الباطنية أو الإسماعيلية ، وخرج ميمون من السجن وانتشرت دعوته في جنوب فارس وجنوب العراق وتوفي ميمون سنة ١٧٠هـ وترجع المصادر الإسماعيلية نسبة إلى سلمان الفارسي [٢] والواقع أن تاريخ نشأته يكتنفها الغموض والإبهام .

---

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٢٩٣ .

(٢) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية . ص١٣٩ .

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده (عبد الله) الذي كان على غرار أبيه في الذكاء والبراعة فنظم الدعوة ويقال إن هذه الجماعة اتخذت من بلدة (ساباط) [١] من أعمال المدائــن القديمة مركزاً لدعوتها حيناً من الدهر ، وعلمت به الدولة العباسية فطاردتهم فانتقلوا إلى (البصرة) .

وكانــت (البصــرة) مركزاً لالتقاء الفكر الإسلامي بهذه الأفكار لأنها أدنى مديــنة عربية إلى فارس وتقع على باب الصحراء التي يفر إليها ويتخذها حمى له كل خــارج مخــالف للخليفة ، فقد كانت ، فقد كانت البصرة بحكم موقعها الجغرافي في ملــتقى رجــال الشرق الوثني من فرس وهنود وديلم بمفكري الإسلام ، فيها التقت المانويــة والزاردشتية والمزدكية والبرهمية والصائبة والدهرية وغيرها من تلك النحل القديمة التي جاء الإسلام يغزوها بدينه الفطري السهل [٢] .

كانــت (البصــرة) مــأوى لكل من يكيد للإسلام والخلافة لقربها من بلاد الفــرس، فتجمعت فيها أخلاط من الفرس والديلم والعرب وغيرهم ولم ينس الفرس والديلم ما كان لهم من ديانات فتآمروا على الإسلام ووجدوا الأنصار قريباً منهم في الأهــواز وفــارس ، وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية أو البحر الخليج حتى تتاح لهم فرصة أخرى .

في هــذه البيئة التي تتصارع فيها الأجناس والأفكار والعقائد ظهرت قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية :

أحدهمــا : قوة الفاطميين التي انتقلت فيما بعد إلى مقر سري بالشام هو قرية (سَلَمْيَة) من أعمال حمص التي أضحت موئل الإسماعيلية ومجمع أسرارهم في فترة الدعوة السرية حتى ظهورهم باليمن والمغرب .

---

(١) قــيل إنــه أي، ميمون جاء أولاً من مكة وانتقل إلى الأهواز ، وقيل إنه جاء من محل في الأهواز يدعى قورج العباس ونزل عسكر مكرم ثم ذهب إلى ساباط أبي نوح . المرجع السابق ، ص١٤٠ .

(٢) عمر الدسوقي ، إخوان الصفا ، ص٨٩ .

الأخـــرى : قـــوة القرامطة ، وهي منظمة عاتية من قطاع الطرق ظلت بالبصرة ، وانتقل رجالها إلى شرقي الجزيرة العربية بالبحرين والأحساء واليمامة عندما أصبحت لهم قوة تقف معهم من القبائل العربية ، وكان لهم فرع بالشام .

فـــبعد وفاة(عبد الله بن ميمون القداح#)قام ابنه أحمد بترتيب الدعوة فبعث بالحســـين الأهوازي داعية له بالعراق فالتقى(بحمدان بن الأشعث)المعروف(بقرمط)في ســـواد الكوفة فدعاه إلى مذهبه فأجابه وقام حمدان بأمر الدعوة بالكوفة وإليه تنسب القرامطة [١] .

ويذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق : "أن الذين راجت عليهم أفكار الباطنية أصناف ثلاث :

أحدهـــم : العامـــة الذيـــن قلـــت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والأكراد وأولاد المجوس .

ثانـــيهم : الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عودة الملك إلى العجم .

ثالـــثهم : أغتام بني ربيعة من أجل غيظهم على مضر لخروج النبي منهم ، ومـــن أجل حسد ربيعة لمضر بايعت بنو حنيفة (مسيلمة الكذاب) طمعاً في أن يكون

توفي عبد الله بن ميمون القداح بعد سنة ١٨٠هـ وكان مولى لمحمد الباقر كما كان والده مولى لجعفر الصادق وتقول المصادر الشيعية بأن معنى القداح : هو الذي ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . وهناك تناقض في السنين فبعض المصادر تجعل ميمون وابنه معاصرين لجعفر الصادق وإسماعيل ، وبعضها تقول إن عبد الله عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (الفهرست ، طبعة طهران، ص٢٣٨) فيذكر الفهرست أن عبد الله كان حياً سنة ٢٦١هـ

(١) حمدان قرمط أصله من خوزستان ، واختلف في اسمه قيل : حمدان وقيل الفرج بن عثمان وقيل الفرج بن يحي ، أمـا (قرمط) فهو لقبه لحمرة عينيه ، أو لقرمطة في شكله أو مشيته ، توفي سنة ٢٩٣هـ (الزركلي ، الأعلام) وانظر : إحسان الهي ظهير ، الإسماعيلية ، ص٩٧ ، ومصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسلامية ، ص٢٨-٢٩ .

في بـــني ربيعة نبي كما في بني مضر نبي [(١)] [ولهذا قال قائلهم لمسيلمة : والله إني أعلم أنك لكاذب ومحمد الصادق ولكن كاذب ربيعة أفضل عندنا من صادق مضر] .

وكان دعاة الباطنية يدخلون إلى المدعوين من مدخل سهل تبع ميولهم وعلى العمـــوم فقـــد كـــان مدخل محبة آل البيت والأخذ بيدهم لأنهم ظلموا هو المدخل السهل، ويذكر البعض [(٢)] أن التشيع لآل البيت أصبح مأوى يلجأ إليه من أراد هدم الإســـلام لعـــداوة وحقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشـــتية وهـــندية ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم .

انتقال الحركة الباطنية إلى سلمية :

لـــيس معـــروفاً باليقين متى انتقلت الحركة الباطنية إلى سلمية ، وإن كانت المصادر الإسماعيلية تنص على أن الانتقال تم في سنة ١٩٤هـــ [(٣)] ، وعلى كل حال فعـــندما انتقل نشاط الباطنية إلى سلمية بالشام بدأ نشاط مكثف للدعوة الباطنية في دور الســـتر الذي استمر حتى سنة ٢٩٦هـــ ، فيما يتعلق بإعداد الدعاة وتوجيههم وإرسالهم إلى شتى النواحي .

وسلمية تقع على حافة بادية الشام تلتقي عندها الطرق الآتية من البادية ومن العـــراق وهي تابعة لحمص بينها وبين حمص ٣٥ ميلاً ، وينطقها أهل الشام "سَلَمِيَّة" ويضبطها ياقوت في معجم البلدان "سَلَمْيَة" [(٤)] .

وأنشـــأت الحـــركة في سلمية مدرسة سرية لتخريج الدعاة الذين تمرسوا في فـــنون المناظرة والجدل ، وتذكر المصادر الإسماعيلية التي ظهرت مؤخراً بأن الأموال والذخائر كانت تنقل إلى سلمية بواسطة الدعاة ، وتم حفر سرداب في الصحراء حتى

---

(١) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص٣٠٠-٣٠١

(٢) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص٢٧٦ .

(٣) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ص١٤٩ .

(٤) معجم البلدان ، مادة سلمية .

داخل بيت الإمام طوله خمسة عشر ميلاً ، وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال فيفتح لها باب السرداب في الليل وتنزل فيه بأحمالها عليها حتى تحط في داخ الدار وتخرج في الليل ثم يهال على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد وقيل إن الأموال التي كانت تصل إليها عظيمة جداً ، وهكذا أصبحت سلمية مركزاً رئيسياً للدعوة الباطنية مما ساعد على انتشارها بسرعة في الشام والجزيرة العربية والعراق والمغرب نظراً لهذه الدعوة هو عبد الله بن ميمون القداح وأبناؤه من بعده .

حركة القرامطة :

كانت حركة القرامطة هي التي ظهرت أولاً في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على يد ثلاثة رجال هم :

١- حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط وأصله من خوزستان واختلف في اسمه ، فقيل (حمدان) ، وقيل (الفرج بن عثمان) وقيل (الفرج بن يحي) وقرمط لقبه لقرمطة في شكله أو دقة في مشيته أو لحمرة في عينيه ، وكان مركز نشاط حمدان في بلاد السواد الكوفة وما حولها ، وهو الذي نسبت إليه حركة القرامطة كلها بشتى فصائلها في شرقي الجزيرة العربية وبادية الشام .

٢- **الرجل الثاني:** هو (أبو سعيد الجنابي) داعي البحرين في شرقي الجزيرة العربية،وهو منسوب إلى جنابه على الشاطئ الفارسي للخليج، وهو مؤسس دولة القرامطة في البحرين وسميت دولته بالقرامطة لأنه أخذ الدعوة الباطنية من حمدان قرمط .

٣- **الرجل الثالث:** هو (زكرويه بن مهرويه) الذي تولى الدعوة في بادية الشام وبعض بلاد الشام ، وهو بذلك مؤسس حركة القرامطة في هذه الجهات وأخذت لقب القرمطي لأنه هو الذي اختاره للدعوة الباطنية .

وصادفت حركة القرامطة نجاحاً كبيراً بين القبائل العربية وعلى الأخص في شرقي الجزيـرة العربـية وبادية الشام وذلك لأن القبائل العربية كانت ناقمة على الدول العباسـية بسـبب موقفها من العرب فلم تشركهم في جيوش الدولة وشئونها فقلت هجـرتهم إلى خارجهـا في القـرن الثالـث الهجـري بالإضافة إلى قلة الخيرات في الصـحراء،كل هذه الظروف ساعدت حركة القرامطة والنفوذ الفاطمي في التغلغل بين القبائل العربيةالتي قلت بصائرهم بمرامي الحركة الباطنية وخطورتها على الإسلام.

ولم يلبـث أن اخـتفى حمدان قرمط في تاريخ مجهول ، وقد اشتدت حركة القـرامطة عنفاً بعده ولا سيما عندما نجحت في استمالة بعض القبائل القوية والعنيفة مـثل (بـني هلال) و (بني سليم) و(طيء) و (بني عقيل) ، وتمكن الجنابيون من أن يهجّروا معهم بني هلال وبني سليم إلى البحرين ، وكانت الخلافة العباسية هي المركز الـذي تنصب عليه نقمة القرامطة ، فقد وصفوها بأنها مصدر لكل شر ومنبع للظلم ورمز للطغيان والفساد ولذلك تعاون الجميع على إسقاطها وتدميرها وتحطيم كل ما قـام بها وارتبط بها وتفرع منها ودعمها وساندها [(١)] وهذا الموقف النفسي هو الذي يفسـر لنا موجة العنف العارمة التي بدأ بها القرامطة مسيرة الإرهاب أو الثورة ضد الدولـة العباسـية وتطاير شرهم فنال الآمنين في الأراضي المقدسة في مكة والمدينة وطريق الحجاج ، وعلى الأخص في عصر المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) .

فقـد شهدت سنوات حكم المقتدر هجمات قادها (أبو طاهر الجنابي) خليفة (أبي سعيد الجنابي) حيث وجه ضرباته إلى أماكن حساسة بالنسبة للسلطة في بغداد ، ففـي سـنة ٣١٧هـ دخلوا مكة بزعامة أبي طاهر الجنابي وقتلوا من الحجاج وأهل مكة أعداداً لا يتناولها الحصر قيل في بعض الروايات أنها بلغت ثلاثين ألفاً ، وأخذوا الحجـر الأسود وفروا به إلى مركزهم في البحرين وتوسط الفاطميون لديهم فردوا الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ .

---

(١) انظر : مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٨٧ ، مقال بعنوان القرامطة .

وحدث انشقاق بين القرامطة وإمام الإسماعيلية حتى قبل قيام الدولة الفاطمية بالمغـرب سـنة ٢٩٧هـ وتمرد جماعة زكرويه بن مهرويه ببادية الشام على أوامر الخلـيفة الفـاطمي،وبدءوا يعملون لحسابهم في بلاد الشام وتصادموا مع الفاطميين والجنابيين .

وبعـد وفاة أبي طاهر القرمطي (٣٣٢هـ) خلفه ابن أخيه (الحسن الأعصم) وفي عهده حدثت حروب بين القرامطة والفاطميين للنزاع على الشام سنة ٣٥٨هـ وهـاجم الحسن الأعصم دمشق سنة ٣٦٠هـ واستولى عليها وهاجم مصر واقترب مـن القاهرة ومعهم جماعة من (طيء) على رأسهم (حسان بن الجراح) ، وجماعة من (بني عقيل) على رأسهم (ظالم بن موهوب) العقيلي سنة ٣٦٣هـ [1] لكن المعز فرق جموعهم بعد أن استمال زعماء بني طيء والعقيليين بالمال والمناصب في دولته .

ثم لم يلبـث أن فقدت حركة القرامطة قوتها ، فقد هاجمهم البويهيون في عقر دارهـم في الأحساء بمعاونة زعيم من بني المنتفق الذين كانوا ينزلون جنوب العراق ونهبوا القطيف وبذلك انتهت حركتهم عملياً في أواخر القرن الرابع الهجري .

ويعدها البعض في عداد الدول لأنها سيطرت على المنطقة الشرقية من الجزيرة العربـية مـا يزيد على نصف قرن ، إلا أننا نعتبرها منطقة إرهابية أشاعت الخراب والفوضى والدمار في شتى أنحاء الجزيرة العربية والعراق والشام ، وما فعلته بالأراضي المقدسة لا يقوم به مسلم ينتمي إلى الإسلام ، فهم جماعة من قطاع الطرق تحللوا من جميع الحدود والقيود الإسلامية .

ظهور الدولة الفاطمية :

سـبق أن ذكـرنا أن المغـرب قد أضحى مأوى للمعارضة في عصر الدولة العباسـية من أمويين وأدارسة وخوارج وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري اسـتقبل المغـرب دعاة الإسماعيلية ، فلقد رأى دعاة الباطنية بعد التضييق عليهم في

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٦٤ .

الشـــام والعراق صعوبة محاربة الدولة العباسية في عقر دارها فرأوا في اليمن والمغرب أمـــاكن مناسبة لانتشار الدعوة الباطنية ، وذلك لمناعة هذه الأماكن الجبلية من ناحية ومن ناحية أخرى لبعدها عن مركز الدولة العباسية ومراقبتها .

ويرجع الفضل في قيام هذه الدولة إلى رجلين :

الأول : هـــو (ابن حوشب) وهو الحسين بن فرج بن حوشب وهو المشهور في تاريخ الحركة الفاطمية بلقب "منصور اليمن" ويرجع إليه الفضل في النجاح الذي حققته الدعوة الفاطمية في اليمن فقد قام بمهمته سنة ٢٦١هـ ، وكان يقود الحركة الفاطمـــية في إقليم اليمن ويشرف على تنظيمها في أقاليم أخرى ، فهو الذي أشرف على إرسال الداعي المشهور (أبو عبد الله الشيعي) إلى المغرب وأرسل بعض أتباعه إلى السند [١] وذلك بعد أن شك الإمام في سلوك القرامطة من بني الجنابي وزكرويه .

وكـــان أول نزول ابن حوشب في (عدن لاعه) وهي قرية من أعمال صنعاء بجـــبل يســـمى جبل صبر ، وحقق نجاحاً في هذه المناطق الجبلية التي كانت تابعة لبني يعفـــر ســـادة هـــذه المناطق والذين كانوا يعلنون ولاءهم للعباسيين [٢] وكلف ابن حوشب من طرفه داعياً يمنياً هو علي بن الفضل لكي يقوم بالدعاية الفاطمية في تهامة اليمن واستطاع الرجلان تحقيق إعلان دولة فاطمية باليمن سنة ٢٩٤هـــ قبل إعلانها بالمغرب [٣] .

والرجل الثاني : الذي يرجع إليه الفضل الأوفر في قيام الدولة الفاطمية هو رجـــل يسمى (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرويه الشيعي) ، ويعرف بأبي عبد الله الشيعي الصنعائي [٤] ، كان في بداية حياته يعلم الناس المذهب الإسماعيلي بالبصرة ، فطلبه إمامه عبيد الله المهدي لكي يذهب إلى الداعية ابن حوشب باليمن ليدرس عليه

---

(١) حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين ، ص٣٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣١٠ .

(٤) يذكر ابن خلكان أنه من أهل صنعاء وكان من الدهاة .

ثم يذهب بعد فراغه من الدراسة إلى المغرب ، وكان نشاط بن حوشب باليمن أقوى نشاط بعد فترة عبد الله القداح .

وبعـد أن أتم أبـو عبد الله الشيعي مهمته باليمن التقى في موسم حج سنة ٢٨٨هـ ببعض الحجاج من البربر من قبيلة كتامة وتعرف عليهم فأحبوه ووثقوا به وذكر لهم أنه يريد مصر بعد الحج ، فطلبوا منه أن يصحبهم إلى المغرب وينزل ضيفاً عليهم ، فقبل ، وكانت قبائل كتانة من أعظم قبائل البربر ، وأهم مضاربها بين جبال أوراس والبحر المتوسط بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر الحالية[١] .

وأعانـه الكتامـيون على نشر دعوته التي كانت تتلخص في الدعوة بقرب ظهـور المهـدي مـن آل البيـت الذي سيملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً من العباسـيين وغيرهـم ، وانتشرت هذه الدعوة بالمغرب الأوسط وإفريقية ، وتمكن في الفـترة مـن ٢٨٨هـ إلى ٢٩٦هـ من تكوين قوة كبيرة منهم صارت أكبر قوة ضـاربة بالمغـرب قضـي بهـا في هذه الفترة الوجيزة على قوة الأغالبة والخوارج والأدارسة ، وعندما حقق النصر على هذه القوى استدعى إمامه عبيد الله المهدي من سلمية للحضور إلى المغرب .

كـان (عبيد الله المهدي) زعيم الباطنية موجوداً بمقره السري بسلمية عندما وصله الخبر وكان قد شك في إخلاص آل زكرويه وخاصة عندما بدأ تحرشهم بقوات الدولـة العباسية على غير هواه فكأنهم يعملون لحسابهم بالشام ، فخاف أن ينكشف أمره ، فخرج من سلمية خائفاً يترقب وأعلن للتمويه أنه يريد اليمن بيد أنه كان يريد المغـرب وخرج في وقت بثت فيه الدولة عيونها في مغامرة لا تقل خطورة عن مغامرة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي هرب إلى الأندلس ، واتخذ عبيد الله طـريق الصـحراء بعد أن عبر مصر بسلام خوفاً من عيون الدولة المتربصة له ، ونجح في الوصول إلى المغرب الأقصى ونجا من الموت عدة مرات ، فقد وقع أسيراً في

---

(١) أحمد مختار العبادي ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٨٤ .

أيدي بني مدرار (بسجلماسة التي تسمى الآن تافيلات) ، ولكن أبا عبد الله الشيعي هب لنجدته وأنقذه من سجنه وقدمه إلى أنصاره قائلا لهم : هذا إمامكم .

ودخــل عبيد الله المهدي مدينة (رقّادة) [1] سنة ٢٩٧هـ العاصمة الخاصة للأغالبة وأعلن دولته ، واتخذها عاصمة له حتى بنى المهدية سنة ٣٠٠هـ التي تطل على خليج قابس ، وتلقب بأمير المؤمنين وأقيمت الخطبة باسمه .

وكان أول عمل قام به المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ) هو اغتيال داعيه ورجله الـذي حقــق له النصــر بالمغرب وهو أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨هـ لأنه يريد الاستئثار بالسلطة دونه .

وحول عبيد الله المهدي هذا يدور الجدل فيما يتعلق بصحة نسبه إلى علي بن أبي طالب ، فالقادحون في نسبه يقولون بأنه سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي المجوسي الأصل . .

ويقــول بعض المنكرين لنسب الفاطميين بمقولة أخرى أشد خطراً ، وهي أن سـعيداً هذا ليس ولد الحسين القداح وإنما هو ولد زوجه اليهودية من زوجها الأول اليهودي رباه ولقنه أسرار الدعوة واختاره للزعامة والإمامة من بعده .

وابن الأثير لا يصدق هذه الرواية ويحاول أن يثبت صحة نسب الفاطميين ، ويستدل بأبيات للشريف الرضي العلوي نقيب العلويين في بغداد حين يقول :

ما مقامي على الهوان وعندي * مقْوَلٌ صارم وأنف حَمِيٌّ
ألبس الذل في بلاد الأعادي * وبمصر الخليفة العــلويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولاي * إذا ضامني البعــيد القصيُّ
لف عِرْقي بعرقــه سيد النــ* ــاس جميعاً محمد وعلــيٌّ

---

(١) رقادة . تبعد مدينة رقادة عن القيروان نحو أربعة أميال وكانت رقادة عاصمة خاصة لدولة الأغالبة ، وكانت القيروان هي عاصمتهم الأولى وعاصمة الإسلام الأولى بالمغرب (١٦٠كم جنوب تونس)

بما كتبه في المحضر المضمن القدح في أنساب الفاطميين فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا ، فلما بلغ القادر (٣٨١-٤٢٢هـ) هذه الأبيات أحضر القاضي أبا بكر الباقلاني وأرسله إلى والد الشريف الرضي (المعروف بأبي أحمد الموسوي) للضغط عليه لكي يتراجع الشريف الرضي عن موقفه ولكن الشريف الرضي امتنع عن الاعتذار وعن الطعن في نسبهم ، وفي هذا دليل قوي على صحة نسبهم ويعزز هذا في رأي ابن الأثير أنه سأل جماعة من أعيان العلويين في نسب الفاطميين لم يرتابوا في صحته [١] ، أما في مقولة الأصل اليهودي فيقول ابن الأثير : كيف يعقل أن يعمل كل هؤلاء الدعاة على إخراج هذا الأمر من أنفسهم ويسلموه إلى ولد يهودي ؟[٢] وقد تبعه على ذلك ابن خلدون فأنكر مقولة الطعن في نسبهم وأضاف بأن العباسيين دأبوا على ذلك فقد سبق لهم أن طعنوا في نسب الأدارسة [٣] ويذكر أن انقياد العلويين بمكة والمدينة لهم يدل على صحة نسبهم .

ويقول ابن طباطبا في الفخري ، وهو علوي مثلهم : "والصحيح أنهم علويون إسماعيليون صحيحو الاتصال ، وبهذه الصورة التي أوردها ها هنا هي المعول عليها وبها خطوط مشايخ النسابين" [٤] واستشهد بأبيات الشريف الرضي السالفة ، وابن طبا طبا يعول عليه في هذا المجال فقد كان نقيباً للعلويين في جنوب العراق وله اشتغال بالتاريخ ومعرفة الأنساب .

وتبعهما من المحدثين الشيخ الخضري حيث يقول : هذا كلام يظهر عليه التوليد والاختراع كتب لإرضاء العباسيين الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل[٥] ، ولا شك أن هذا الطعن أملته الأحقاد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص١٢٤-١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج٦ ، ص١٢٤-١٢٩ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص٤٤٩ -٤٥١ والمقدمة ص٣٠٩ .

(٤) الفخري ، ص٢٦٣ .

(٥) الدولة العباسية ، ص٣٠١-٣٠٢ .

السياسية ضد الفاطميين ولا أساس له من الصحة وأولى منه أن يطعنوا في عقائده فهي فاسـدة وملتوية . فيما ظهر منها أما ما بطن فالله أعلم به ، وحقيقة المذهب الفاطمي أنـه من مذاهب الشيعة الغلاة ، أي الذين يخلعون على الإمام صفات إلهية تضع فوق مستوى البشر ، فهم يقولون ، بأن الآلهة تحل في الأمة حلولا شبه كلية ، وذلك على عكـس الإمامـية الذيـن يقولون بأن هذا الحلول جزئي ، والزيدية المعتدلين الذين يقولون بأن الإمام لا يتمتع إلا بتوجيه إلهي فقط [١] .

وأخيراً أقول ما قاله ابن خلدون "وليس إثبات مُنْتَسَبهم بالذي يغني عنهم من الله شـيئاً في كفـرهم [٢] ، فقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه : ﴿ إنه لـيس من أهلك إنه عملٌ غيرُ صالح ، فلا تَسْألْن ما ليس لك به علم ﴾ [هود : آية ٤٦] وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة ابنته : "يا فاطمة اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئاً" .

والحقيقة أن الفاطميين أنفسهم لم يهتموا كثيراً بمسألة صحة النسب هذه بعد أن فرضوا حكمهم بالأمر الواقع ، وينسب إلى المعز لدين الله أنه قال لجموع المهنئين عـندما دخل مصر وهو يسل سيفه من غمده وينثر عليهم دنانير ذهبه : "هذا حسبي وهـذا نسبي" يؤكد مقالة شرعية الأمر الواقع ، ويثبت أن الجدل حول نسبهم لم يعد ذا موضوع [٣] .

سبب انتقال الفاطميين إلى مصر :

عـلى الرغم مما حققته الدولة الفاطمية من انتصارات بالمغرب على الأغالبة والخـوارج والأدارسة ، لكن ما لبث أن نفر أهل المغرب منها ، وذلك لأن الأرض المغربـية كـان قد تمكن فيها مذهب الإمام مالك ، وأدرك عبيد الله المهدي أن شمال

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج٢ ، ص٥٣٩ .

(٢) المقدمة ، ص٣١١ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج٢ ، ص٥٤٤ .

إفريقيا البربري لن يكون مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت في أيامه المعركة الطويلة بين الفاطميين وغيرهم بالمغرب ، وكان أقوى الخصوم هم أتباع الإمام مالك [1] .

ووجد الفاطميون أنفسهم وسط محيط بربري ضخم متطلع للإغارة وفرض السلطان فبجانب كتامة كانت هناك قبائل صنهاجة بالمغرب الأوسط وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة ، وحاول عبيد الله المهدي أن يضربهم ببعضهم ، وكانت هناك قبائل زناتة الذين استعانوا ببني أمية الأندلسيين لمقاومة أطماع الفاطميين واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة تلك المطامع الفاطمية [2] .

واستمر المغرب يعاني من هذه الحروب طوال الفترة الفاطمية ولذلك اتجه الفاطميون بأطماعهم نحو مصر وساعدهم على ذلك مسالمة أهلها للحاكمين وضعف الدولة الإخشيدية ، فاتجه الخليفة الفاطمي الرابع إلى مصر وهو المعز لدين الله الذي حكم في المغرب من ٣٤١هـ إلى ٣٦٢هـ ، فقد ركز جهوده في هذه المدة للاستيلاء على مصر حتى تم له ذلك سنة ٣٥٨هـ على يد قائده جوهر الصقلي .

وقبل أن يغادر المعز المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ عين يوسف بن زيرى الصنهاجي على المغرب وبذلك قامت دولة بني زيري في إفريقية والمغرب تابعة للفاطميين في البداية ، ثم استقلت عنهم ، وهي أول دولة ينشئها المغاربة بعد أن استعربوا .

واستمر بنو زيري على ولائهم للفاطميين إلى أن تولى أمرهم (المعز بن باديس) (٤٠٦-٤٥٣هـ) الذي تخلى عن ولائه للفاطميين ودعا للعباسيين ، وقد واجه الخليفة الفاطمي هذا الموقف بأن أرسل إليه بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في صعيد مصر ، وفي شرق الدلتا وهم بنو هلال وبنو سليم للانتقام منه ،

---

(١) حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص١٧٩-١٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٨٠ .

وكانت هذه القبائل قد اشتركت مع القرامطة في غزو بلاد الشام ، واستقرت بعض بطونها بتلك البلاد ، وعندما دخل الفاطميين وعرضوا عليهم خدماهم فنقلهم الفاطميون معهم إلى مصر [١] .

وعندما قطع المعز بن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين قرر المستنصر الفاطمي توجيه قوة بني هلال وبني سليم إليه قائلاً لهم : "قد أعطيناكم المغرب وملك بن باديس العبد الآبق" [٢] ثم كتب إلى ابن باديس يقول له : "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً ، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"[٣].

فاجتاحت قبائل بني هلال وبني سليم دولة بني زيري وحصروا أمراءها في مدينة (المهدية) على شاطئ البحر ، وعقب هذا الهجوم شاعت الفوضى في المغرب كله ، فإن القبائل العربية بعد قضائها على دولة المعز بن باديس التحموا بقبائل زناتة ودفعوهم إلى المغرب الأقصى إلى أن اندفعوا إلى جنوب المغرب الأقصى وطردوا أمامهم جزءاً من صنهاجة هي صنهاجة الصحراء إلى الجنوب فأصبحوا محصورين بين زناتة من الشمال والقبائل السنغالية في حوض السنغال من الجنوب .

وكانت هذه الظروف هي التي دفعت قبائل صنهاجة الصحراء للعمل على الخروج من هذه المحنة فكانت حركة المرابطين التي سنتحدث عنها بعد هذه الدولة .

إنشاء الأزهر :

وعندما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر بنت عاصمة جديدة لها في شمال الفسطاط هي القاهرة ، وبنوا في وسطها مسجداً جامعاً أسموه بالأزهر ، وكانت تقام بالأزهر منذ إنشائه حلقات الدعاية الباطنية ، وكانت لا تدرس في حلقاته في العصر

---

(١) محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، ص٢٦٤-٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٥٥ ، وابن خلدون . العبر ، ج٤ ، ص٦٢ .

الفاطمي غير دروس الفقه الشيعي الإسماعيلي بخطة دراسية موجهة دعمها وقواها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم .

وظل الأزهر هكذا في خطته الدراسية طوال عصر الدولة الفاطمية حتى قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية فقد انتهز فرصة مرض الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ودعا للخليفة المستضيء العباسي في المحرم ٥٦٧هـ كما أمر بالدعاء له على منابر اليمن والشام التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية ، فمنحه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد ، وتم هذا التغيير دون أن يلقي أية مقاومة[١] وبعد موت العاضد سنة ٥٦٧هـ أغلق الأزهر تماماً وأنشأ المدارس السنية في جميع أنحاء مصر لنشر المذهب السني بها وكانت الدروس ما زالت تلقى في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وجامع أحمد بن طولون بالقطائع على مذاهب أهل السنة والجماعة حتى في العصر الفاطمي وقضى صلاح الدين تماماً على المذهب الإسماعيلي في مصر وظل الأزهر مغلقاً نحو قرن من الزمان إلى أن افتتح في العصر المملوكي في عصر الظاهر بيبرس ٦٦٥هـ[٢] .

وفي العصر المملوكي تحول الأزهر إلى معهد سني لدراسة علوم الدين على المذاهب الأربعة واختلف منهاج الدراسة في العصر المملوكي عنه في العصر الفاطمي، فقد تعين لكل مذهب شيخ كان له الإشراف الكامل على الطلاب الذين يتبعون مذهبه ، وأضحى الأزهر جامعة الإسلام الكبرى في العصر المملوكي وزخر بكبار الشيوخ والعلماء الذين نهضوا بعلوم الشريعة ، وحافظوا على العربية وعلومها ، واستمر الأزهر هكذا حتى الوقت الحاضر وتحول إلى جامعة حديثة لدراسة شتى العلوم النظرية والعملية .

---

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٣٢٢ .
(٢) انظر: للمؤلف كتاب : دور الأزهر في الحياة المصرية ، ص٢٦-٣٤ .

بقايا الإسماعيلية :

تفرع من المذهب الإسماعيلي الفاطمي في عصر الحاكم (٣٨٦هـ-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م) جماعة تسمى الدروز [١] كونها رجل فارسي يسمى (حمزة الزوزني) سنة ٤٠٨هـ وصلوا في انحرافهم العقائدي إلى تأليه (الحاكم بأمر الله) ويجعلون حمزة نبيهم ، ويكفرون المسلمين ، وموطن هذه الجماعة لبنان .

وبعد موت المستنصر سنة ٤٨٧هـ تنازع على الحكم ابناه نزار والمستعلي وقد فاز أنصار المستعلي بالحكم سنة ٤٨٧هـ فقد ناصره خاله الوزير (الأفضل بن الجمالي) فتولى الحكم بعد أبيه ، وكان أصغر من أخيه نزار الذي ثار ضده ونشأت بذلك فرقتان المستعلية والنزارية ، ومن أتباع المستعلية الآن طائفة البهرة بالهند ، والطيبية باليمن أتباع الإمام الطيب بن الآمر المستعلي [٢] ، وناصر الحسن الصباح نزار وكون فرقة إسماعيلية نزارية في إيران واتخذ لها مركزاً في قلعة الموت جنوب بحر قزوين ، وكون الحسن الصباح في هذه القلعة جماعة من الفدائيين الذين اتخذوا الاغتيالات السياسية وسيلة لإخافة معارضيهم ، وأصبحت لهم ضربات مؤثرة على الدولة العباسية في العصر السلجوقي . سبق أن أشرنا إليها .

ومن بقايا هؤلاء النزارية أتباع (أغاخان) في العصر الحديث ومركزهم في سويسرا ولهم مركز في سلمية بالشام وأتباع في باكستان والهند وشرق أفريقيا فالأغاخانية يمثلون الدعوة النزارية ، على حين يمثل البهرة والطيبية الدعوة الإسماعيلية القديمة (الفاطمية) ، فقد نادى أهل اليمن من أنصار المستعلي بابنه أبي القاسم وكان صغيراً ونقلوه إلى بلادهم سنة ٥٢٦هـ ولقبوه بالطيب ، ولم يعترفوا بالخليفة الحافظ

---

(١) الدروز : لفظ فارسي معرب ، ومعناها السفلة والسقاط والغوغاء من الناس ، والخياطون والحاكة وهم من أسافل الناس ، والدرزي بالفتح الخياط ، والعامة تضم الدال فتقول / دُرزي والجمع دروز ، والصواب دَرزي في المفرد ودَرزية في الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ (حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٢٥٩) .

(٢) حسن إبراهيم ، ج٤ ، ص٢٦٨-٢٧٩

في القاهـــرة ، وبذلـــك أســـــوا الدعوة الطيبية باليمن وفرعهم بالهند يسمى البهرة ويشتهرون بالتجارة ويدعون للطيب [١] .

الدولة الحمدانية :

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب بن وائل من ربيعة ، وربيعة أحد الفرعين العدنانيين الكبيرين : ربيعة ومضر ، ومضر أغلبها في غرب الجزيرة في تهامة والحجاز، وربيعة غالبيتها في شرق الجزيرة في البحرين واليمامة .

وكانـــت القبائل العربية تهاجر من مهدها الأول في الصحراء وتتجه شمالاً إلى أرض الجزيرة العراقية وإلى سوريا ، وكانت تؤسس قوى سياسية ، وكونت جماعات في ديار أصبحت تعرف بسمهم حتى قبل الإسلام .

فقبـــيلة "تغلـــب" استقرت بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف ديارها بديار ربيعة [٢] ، وكانت "الموصل" على دجلة أجل مدن ديار ربيعة وقاعدتها ، وكانت "الرقة" على الفرات قاعدة تجمعات مضر المهاجرة ، و "آمد" في أعالي دجلة قاعدة تجمعات ديار بكر ، وديار بكر هي أقصى هذه الديارات الثلاث شمالاً ، وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة ، وسميت كلها ديار ربيعة ، لأنهم كلهم ربيعة [٣] .

وتعـــد قبـــيلة "تغلـــب" من القبائل الحربية التي لا يهدأ لها بال إلا بالقتال والغـــارات والغزوات فهي تشبه قبائل بني هلال وبني سليم ، وكان بعض بطون هذه القبـــيلة قد استقر حول الموصل في منتصف القرن الثالث الهجري وعندما ضعف أمر الخلافـــة العباســـية وضـــعفت قبضتها على الأطراف بدأت هذه القبيلة تسيطر على الموصل ، ففي سنة ٢٥٤هـــ تولى أيوب بن الخطاب التغلبي أمر الموصل ، وكان معه حمدون بن الحرث بن لقمان التغلبي جد الحمدانيين .

---

(١) حسن إبراهيم ، ج٤ ، ص٢٨٢ .

(٢) عمر كحالة ، معجم قبائل العرب ، مادة "تغلب بن وائل" .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مواد "بكر" و "ربيعة" .

وقـد ظهر الحمدانيون على المسرح السياسي بقوة في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) وبـدءوا يشتركون في الحوادث السياسية التي تجري في منطقة الجزيرة العراقية منذ عام ٢٦٠هـ حيث تحالف حمدان بن حمدون مع الخوارج الذين يقودهـم هـارون الشاري عام ٢٧٢هـ ودخلا الموصل معاً ، ثم استولى على قلعة ماردين واعتصم بها ، فشن الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ) عليه حرباً سنة ٢٨١ هـ وفتح القلعة فهرب حمدان وترك ابنه الحسين فيها فأظهر الطاعة للمعتضد وتعهد بـالعمل معـه ضد هارون الشاري وفي مقابل ذلك يعف الخليفة عن والده حمدان ، وتمكـن الحسـين مـن هارون الشاري وأتى به أسيراً إلى الخليفة ، فعفا عن حمدان وجماعته[1] .

ومـن هـنا بـدأت قصـة التعاون بين الحمدانيين والخلافة وبدأت شهرة الحمدانـيين ، وقد استفادت الخلافة من قيام بين حمدان كقوة عربية في منطقة الجزيرة العراقـية للقضـاء على المناوئين للخلافة ، وأصبح الحسين بن حمدان قائداً من قواد الخلـيفة الأقويـاء ، وقد اشتهر بحروبه ضد القرامطة على الرغم من أن الحمدانيين شيعة، وبرز من اخوته كذلك عبد الله وسعيد وداود وإبراهيم وقد ناصر الحسين عبد الله بـن المعـتز الذي بويع بالخلافة لفترة وجيزة كما سلف أن أوضحنا ، وبعد فوز المقتدر عفا عنه وولاه قم وكاشان ثم عاد فاختلف معه وسجنه ومات في السجن عام ٣٠٦هـ ، غير أن الدولة استمرت في الاستعانة بهم .

فخلفه على ديار ربيعة أخوه إبراهيم عام ٣٠٧هـ وتوفي ٣٠٨هـ ثم أخوه داود حـتى عام ٣٠٩هـ ، وتقلد غير هؤلاء بعض مناصب الدولة وقد كان ظهور الحمدانـيين يمـثل انـتعاش العنصر العربي الذي انزوى بعد تقدم العناصر الفارسية والتركية في الدولة العباسية وبعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان ، ثم تتبع ابنه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص٧٩-٨١ .

الواثق حركاتهم بالضرب والقمع في مناطق الجزيرة العربية والشام ومصر ، ثم أدى وقوع الخلافة تحت نفوذ الأتراك إلى محاولة الخلفاء إنعاش العنصر العربي مرة أخرى .

وقد جاء ظهور الحمدانيين في وقت نشطت فيه أطماع الروم لمهاجمة العالم الإسلامي ومهاجمة منطقة الثغور في الجزيرة والشام ، من هنا تبرز أهمية الحمدانيين والدور الذي أدوه في خدمة العالم الإسلامي .

وكان الذين اشتهروا من الحمدانيين وقاموا بدور هام في ميدان الجهاد ضد الروم هم أبناء عبد الله بن حمدان المشهور بأبي الهيجاء الذي تولى الموصل سنة ٢٩٢هـ وتوفي سنة ٣١٧هـ واشتهر من أبناء عبد الله الحسن بن عبد الله الذي لقب بناصر الدولة ، وأخوه علي بن عبد الله الذي لقب بسيف الدولة وقد انشعبت الدولة الحمدانية إلى شعبتين :

١- شعبة إمارة الموصل :وعليها الحسن بن عبد الله ناصر الدولة ٣١٧-٣٥٧ .

٢- شعبة إمارة حلب : وعليها علي بن عبد الله سيف الدولة ٣٣٠-٣٥٦هـ .

ونظر لأهمية الدور الذي لعبه الحمدانيين في تاريخ العالم الإسلامي في هذه الفترة فسنخصص لهم حيزاً أكبر من غيرهم من الدويلات التي نشأت في هذه الفترة وسنلقي الضوء على نواح ثلاث من تاريخهم :

الناحية الأولى : علاقتهم بالخلافة العباسية .

الناحية الثانية : علاقتهم بحكومة مصر والشام .

الناحية الثالثة : جهادهم في منطقة العواصم والثغور ضد الدولة البيزنطية .

علاقة الحمدانيين بالخلافة :

أما علاقتهم بالخلافة العباسية : فقد بدأت بالثورة على العباسيين والاشتراك مع الخوارج ضد الدولة ، ثم مالت بعد ذلك إلى التقارب ومناصرة الدولة والوقوف

معهـــا في وجه المتسلطين عليها من الأتراك وأمراء الأمراء من الديلم والأتراك ، وقد كان العراق يمثل الجبهة الخلفية للحمدانيين في مواجهتهم للروم ، ولذلك كان يهمهم أن يـــبقى قوياً وأن تستقر أموره ، ومن ناحية أخرى أضحى الحمدانيون يمثلون القوة الـــتي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا اشتدت أزمتها بالعراق ، فالحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة عدة مرات وتولى أمره الأمراء في بغداد سنة ٣٣٠هـ كما تولى أخوه على قتال بعض الخارجين على الدولة .

ولذلـــك قـــابل الخلـــيفة المـــتقي (٣٢٩-٣٣٣هـ) هذا بالرضى عنهما والإحســـان إلـــيهما فلقب الحسن بناصر الدولة ولقب علي بسيف الدولة ، وهذان اللقـــبان يدلان على اعتراف الدولة بالدور الذي قام به الحمدانيون في خدمة الدولة العباسية فالحسن هو الذي نصر الدولة على المستبدين بها من الأتراك ، كما أن علياً هو الذي تولى الجهاد عنها طوال حياته في الثغور الإسلامية [١] .

لكـــن الـــذي أعـــاق هذا الدور النشط للحمدانيين هو محاولات البويهيين المتسلطين على الخلفاء الحد من دور الحمدانيين وكانوا يخشون اتساع قوتهم ، فظلت قـــوة الحمدانـــيين تتعرض للضغط من البويهيين حتى ضعف أمرها وخضعت للنفوذ البويهي ، وكان الحمدانيون كثيراً ما يلوذون بمنطقتهم بعيداً عن اضطرابات العراق السياسية والعرقية والمذهبية .

علاقتهم بمصر :

كان للحمدانيين علاقة بمصر نظراً لامتداد سلطان مصر دائماً إلى بلاد الشام ووقـــوع بـــلاد الشـــام تحت وطأة حكام مصر في العصور الطولونية والإخشيدية والفاطمـــية وكـــان فرع الحمدانيين في حلب الذي كان عليه سيف الدولة يريد أن يوسع ملكه هو الآخر في الشام لتقوية جبهته أمام الروم ، فاستولى على دمشق الأمر

---

(١) حسن محمود وزميلة ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٤٤ .

الـــذي أدى إلى صدامه مع الإخشيد وانتصر عليه الإخشيد إلا أنه ترك له حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً على ألا يتعرض لدمشق .

ولم يرغب الإخشيديون في إزالة الحمدانيين كما كان يفعل البويهيون ، لأنهم قـــدروا دورهم في حماية الثغور بسبب الفوضى الضاربة أطنابها في الدولة العباسية في العصر البويهي .

جهادهم ضد الروم :

كانت الحدود بين المسلمين والروم تتألف من سلسلة جبال طوروس ، وكان يدافـــع عـــن هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع تعرف بالثغور ، ويمتد هذا الخط من ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط، وكان الروم يحتلون هذه القلاع تارة والمسلمون تارة أخرى ، فكان الفريقان بين كر وفر ، وكان هذا هو الطابع الحربي في العصر العباسي وهو يختلف عن الطابع الأموي الذي كان جوهره العمل على فتح بلاد الروم .

وينقسم خط القلاع هذا إلى مجموعتين :

إحداهما : مجموعة تحمي أرض الجزيرة العراقية وتسمى ثغور الجزيرة ، وهي الشـــمالية الشـــرقية ، وكان منها ملطية وزبطرة والحدث وحصن منصور ومرعش والهارونية وعين زربة .

والأخرى : مجموعة بلاد الشام وتسمى ثغور الشام وهي الشمالية الغربية ، وكـــان مـــنها : المصيصـــة وأذنـــه وطرسوس بالقرب من الساحل الشمالي لخليج الإسكندرونة . كان الحمدانيون يقومون بالجهاد في ثغور الجزيرة والشام ولهم دولة في ثغـــور الجزيـــرة عاصـــمتها الموصل وعليها فرع الحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة ، ولهم دولة أخرى في ثغور علي بن عبد الله الحمداني سيف الدولة .

وكـــان جهـــاد الحمدانـــيين ضد الروم هو الصفحة المضيئة لهذه الدولة وبها أخـــذت مكانتها في التاريخ الإسلامي واستحق الحمدانيون بذلك الثناء الذي أغدقه

علـيهم المؤرخـون والشعراء وخلدوا به ذكرهم أمثال أبي الطيب المتنبي والشاعر الحمـداني أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، وهو الذي أسر في إحدى الغزوات وظل فـترة لـدى الروم . وإن كان يجب علينا أن نلاحظ أن هذا الدور بولغ فيه أحياناً لاشتراك الشعراء في تفخيمه .

وكـان سيف الدولة علامة بارزة في هذا الجهاد ، فيذكر عنه المؤرخون أنه غزا في بلاد الروم نحو أربعين غزوة [١] وكان قد دأب طوال غزواته على نفض الغبار من ثيابه بعد كل غزوة في إناء وجمع منه شيئاً وعمل منه لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده ، فنفذت وصيته في ذلك [٢] .

ولا شـك أن جهـاد الحمدانيين قد عوق التقدم الرومي في وقت كانت فيه الدولة العباسية مشغولة بالحروب الداخلية في عصر نفوذ الأتراك والعصر البويهي ، وكانت مصر مشغولة بدفع الضغط الفاطمي عليها أثناء حكم الإخشيديين من ناحية المغـرب ، واسـتغل الـروم الفرصة للضغط على الحدود الإسلامية والنيل منها ، وتصدى الحمدانيون بقوة للهجوم الرومي ، واشتبكوا معهم في معارك كثيرة وكانت الحرب سجال بين الطرفين .

ولم تسـقط الدولة الحمدانية إلا بسبب الضغط عليها من العراق ومصر من البويهـيين والفاطميين ، وفي وقت كانت الحدود الإسلامية في حاجة إلى قوة تردع المعتدين وبعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ تفككت الأسرة الحمدانية وخاصة أن ناصر الدولة أخا سيف الدولة توفي بعده بعام ، فوقعت دولتهما في صراعات داخلية أدت بهـم إلى الانحـراف عـن المهمـة الثغرية في قتال الروم ولذلك سقطت تحت الضربات الفاطمية سنة ٣٩٤هـ .

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص٣٠٣ ، وحسن محمود ، ص٤٤٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٠٥ ، وابن العمار الحنبلي شذرات الذهب ، ج٣، ص٢٠

ورثة الحمدانيين :

يقـــول ابـــن خلدون ما ملخصه أنه بعد انتهاء دولة الحمدانيين من الجزيرة وشمـــال الشـــام استبد في هذه النواحي بعدهم بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجـــة وكلهم من عامر بن صعصعة من مضر ، وبنو طيء من كهلان وانتشروا ما بـــين الجزيرة والشام في عدوة الفرات ، وكانوا من قبل كالرعايا لبني حمدان يؤدون إلـــيهم الأتاوات وينفرون معهم في الحروب ثم استفحل أمرهم عند فشل الحمدانيين وساروا إلى ملك البلاد[١] .

بنو عقيل : أمـــا بنو عقيل فهم قبيلة عربية كبيرة مهدهم الأول في البحرين وهي إحدى القبائل الخمس التي يتكون منها بنو كعب المتفرعون من مضر في الجزيرة العربـــية من فرع عامر بن صعصعة كان لهم بطون في سوريا والعراق وشمال أفريقيا والأندلـــس وفي بداية الدولة العباسية كان العراق مملوءاً بالعقيليين . فلما انقرضت الدولة الحمدانية بالموصل استقل بنو عقيل بالموصل سنة ٣٨٦هـــ وامتد حكمهم إلى مـــناطق أخـــرى بالعراق وعندما أتى السلاجقة استولوا على الموصل سنة ٤٨٩هـــ وعاد العقيليون بعد انقراض دولتهم إلى البحرين مهدهم الأول .

بـــنو كلاب : وأما بنو كلاب فقد أسسوا دولة في حلب سنة ٤١٤هـــ حيـــث حكـــم صالح بن مرداس[٢] الكلابي وأعلن العصيان على الفاطميين ، وقتل الفاطميون صالح هذا سنة ٤٢٠هـــ وخلفه ابنه شبل الدولة نصر ، وقتله الفاطميون أيضـــاً ســـنة ٤٢٩هـــ وانقرضـــوا سنة ٤٧٢هـــ بسبب صراعهم مع بني عقيل والفاطميين .

بـــنو أســـد : كان بنو أسد يتمركزون حول الحلة ، وتنتسب إلى أسد بن خزيمة من مضر بن نزار ، وكانت مساكنهم في نجد مجاورة لطيء قبل أن يهاجروا إلى

---

(١) العبر ، ج٤ ، ص٣٢٦ .

(٢) ويسمون أيضاً ببني مرداس .

العـراق ويـستمركزوا في الحلة وجهاتها ، وكانت أهم بطونهم بنو مزيد ، وكان بنو دبـيس من عشائرهم ، وكان لهم ملك بالحلة من العراق [١] وأولهم سند الدولة أبو الحسن علي بن مزيد الذي كان يعمل والياً للبويهيين ، ثم شق عصا الطاعة على بهاء الدولة وأعلن استقلاله سنة ٤٠٣هـ وتوفي سنة ٤٠٨هـ ، وتولى بعده نور الدولة دبيس الأول (ت٤٧٤هـ) ثم بهاء الدولة أبو كامل المنصور (ت٤٧٩هـ) .

وقـد بنى "سيف الدولة صدقة الأول" وهو رابع بني مزيد مدينة "الحلة" لتكون مقراً لحكمة ، وتقع الحلة في مواجهة مدينة الجامعين على نهر الفرات بالقرب من خرائب بابل القديمة وكان بناؤها في سنة ٤٩٥هـ وسميت بحلة بني مزيد ، وكان صـدقة يحمل كأجداده لقب ملك العرب وقتله السلاجقة سنة ٥٠١هـ وخلفه ابنه دبـيس الـثاني وهو الذي قتله السلطان محمد السلجوقي سنة ٥٢٩هـ ، وفي عهد الخلـيفة المسـتنجد بالله العباسي سنة ٥٥٨هـ أمر بإزالة قبائل بني أسد من العراق وقـتل منهم أربعـة آلاف فانسحبوا من العراق واستولى بنو المنتفق على جزء من بلادهم وانتقل حكم بلادهم إلى بني زنكي [٢] .

(١) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص٣٧٤-٣٧٥ .

(٢) لين بول وغيره ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة أحمد السعيد ، ج١ ، ص ٢٥٣-٢٥٤ .

دولة مصر والشام في العصر الأيوبي

تنسب هذه الدولة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي أرسله نور الدين محمود (حاكم حلب) إلى مصر مع عمه (شيركوه) لقمع الثورات التي كانت تتلاحق بها ، وعينه الخليفة الفاطمي (العاضد) في آخر أيامه وزيراً في مصر سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) وتلقب (بالملك الناصر) فقبض على زمام الأمور في الدولة الفاطمية وعزل العاضد الذي كان في مرض موته سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) واستقل بحكم مصر تابعاً لسيده نور الدين .

وحول صلاح الدين الخطبة في مصر للخليفة العباسي ، وورث عن نور الدين الاهتمام بالمذهب السني ، فوجه اهتمامه بالقضاء على المذهب الشيعي في مصر بانشاء المدارس السنية ، وعزل قضاة الشيعة الإسماعيلية واسند وظيفة قاضى القضاة في مصر إلى (صدر الدين عبد الملك بن درباس) الشافعي .

وقد تم هذا التغير الكبير في هدوء تام لأن شعب مصر لم يعترف في قرارة نفسه بتلك الخلافة لأنها كانت شيعية إسماعيلية في حين أن الغالبية من أهل مصر من السنة والجماعة ، وكان الفاطميون عندما دخلوا مصر أعطوا أهلها أمانا يعطيهم الحق في التمسك بمذهبهم السني وما يتعلق به من إقامة الشعائر الدينية على المذهب السني وما يتبع ذلك من تقاليد قومية عرفها المصريون منذ دخولهم في الإسلام [١] .

ومصر عرفت بأنها وسط في كل شيء في العقيدة والفكر والموقع الجغرافي وهذا الموقع الجغرافى المتوسط جعل مصر (واسطة عقد الأمطار) كما وصفها المؤرخ المصري ابن دقماق في كتابه : "الانتصار لواسطة عقد الأمصار " ولعل هذه الموهبة الطبيعية هي سر حيويتها على مر العصور سواء كانت مستقلة أو تابعة لقوة كبرى ، ومنذ أن

---

[١] د. حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص٣٠٨ .

فتحها الإسلام وهى تواصل بشدة ونشاط في مجال الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية.

وعلى الرغم من أن الفاطميين أرادو في فترة حكمهم (٣٥٨-٥٦٧هـ) أن يجعلوا من مصر دولة شيعية إسماعيلية لكن طبيعتها الوسط في الفكر والاعتقاد أبت إلا أن تكون على مذاهب أهل السنة والجماعة حتى في أيام الفاطميين أنفسهم فقد كانت تعيش فيها الأفكار السنية جنباً الى جنب مع الأفكار الشيعية الاسماعيلية .

وعندما توفى نور الدين سنة ٥٦٩هـ أعلن صلاح الدين استقلاله بمصر سنة ٥٦٩هـ .وابتداء من العصر الأيوبي ، تبدأ دولة مصر والشام في الظهور فعلا بمظهر دولة واحدة ، وذلك بعد أن نجح صلاح الدين في ضم مصر الى جبهة الجهاد الإسلامي، بعد استخلاصها من أيدي الفاطميين ، ومنذ أن استقر صلاح الدين في مصر أصبحت قاعدة هذه الوحدة السياسية في مصر ، وأضحت دولة مصر والشام حقيقة واضحة ووحدة تاريخية قائمة بذاتها بحيث من العسير التأريخ لمصر وحدها أو الشام وحدها أو بلاد الجزيرة وحدها خلال العصر الأيوبي كله .

وتوسعت مصر جنوبا في عهد صلاح الدين فوصلت حدودها إلى دنقلة بالنوبة وسواكن على البحر الأحمر ، كما وصلت حدودها إلى برقة في ليبيا وتوسعت في الحجاز واليمن كما سبق أن ذكرنا ذلك في حديثنا عن الجزيرة العربية ، وبدأ صلاح الدين في بناء قلعة بالقاهرة على جبل المقطم سميت فيما بعد (قلعة صلاح الدين) .

وورث صلاح الدين ما كان للفاطميين من نفوذ في الحجاز واليمن وشرع في فتح سورية ، فدخل دمشق سنة ٥٧٠هـ ، ووسع بلاده برغم معارضة آل زنكي حتى بلغت في الفترة من سنة ٥٧٠هـ إلى سنة ٥٧٢هـ نهر الفرات ، ولكنه لم يستول على حلب إلا بعد وفاة الملك الصالح ابن نور الدين في سنة٥٧٩هـ (١١٨٣م) .

وكان الصليبيون قد هجموا على الشام منذ عام ٤٩٠هـ (١٠٦٩م) بالحملة الصليبية الأولى وتوسعوا في بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس ، فانقض صلاح الدين على الصليبيين في الشام فانتصر عليهم في معركة(حطين) سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) واستولى على مدينة القدس من يدهم ، وقضى على المملكة المسيحية التى كانت متوطنة في القدس .

وبعد هذا النصر الكبير وما تلاه من دخول بيت المقدس استكمل صلاح الدين سلطانه على بلاد الشام فأخذ كل بلاد مملكة بيت المقدس ، ووقع في أسره ملك بيت المقدس ، ونفر من فرسان الصليبيين من بينهم (أرناط) وهو صليبي شديد التعصب ضد الإسلام ، وكان يتطلع إلى المسير جنوبا والهجوم على الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة ، ولم تكد عين صلاح الدين تقع عليه حتى أمر بقتله في الحال ، عقابا له على ما أقدم عليه ، من جرأة التفكير في العدوان على الحرمين الشريفين ، أما بقية الأسرى فقد افتدوا أنفسهم وعاملهم صلاح الدين بكل إنسانية .

وتوفى صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) وبعد وفاته اقتسم أبناؤه وأخوته البلاد التي كانت تحت حكمه ، إلا أن أخاه العادل سيف الدين تمكن من توحيد ملك صلاح الدين مرة أخرى في سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) حتى وفاته سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) وكان مركز حكمه في القاهرة .

دولة مصر والشام في عصر المماليك :

وقد عمل الأيوبيون في مصر في فترة ضعفهم أيام الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ) على استجلاب المماليك الأتراك للاعتماد عليهم في حروبهم ، وكان هذا الأمر هو الذى فتح الطريق لحكم المماليك الأتراك سنة ٦٤٨هـ ، فبعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ تولى ابنه (توران شاه) الملك فقتله

المماليك ، ثم تولت شجرة الدر أرملة الصالح الملك بالاشتراك مع المملوك (عز الدين أيبك) الذى تزوجها ثم لم يلبث أن خلعها .[١]

ينقسم عصر المماليك الى عصرين : عصر المماليك البحرية أو الأتراك من سنة ٦٤٨هـ – ٧٨٤هـ (١٢٥٠م–١٣٨٢م) وأصل هؤلاء المماليك في مصر أنهم عبيد أتراك أو جركس نشأوا أول ما نشأوا في كتائب الحرس الخاص وحرس القصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد ، ولما كانت ثكنات المماليك الذين أقاموا الدولة التركية بمصر واقعة في جزيرة الروضة بالنيل فقد قيل لهم (المماليك البحرية) ، وقيل لهم أيضاً بالنظر إلى جنسهم (المماليك الأتراك) أو على حد تعبير بعض المؤرخين (الملوك الترك) وقد انقرضت دولة الأيوبيين بمصر بعد أن شاركت زوجة الملك الصالح شجرة الدر المماليك في قتل زوجها (توران شاه) سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ومع أن شجرة الدر اعتلت في العام نفسه عرش الأيوبيين إلا أن (أيبك التركماني) الذي كان من مماليك الصالح أيوب وكان يشغل في أيامه بعض المناصب العالية ، كان يقبض فعلاً على أزمة الأمور بوصفه أتابكاً ونائب سلطنة ، ولم يكن لشجرة الدر إلا الخطبة على المنابر وذكر اسمها في السكة ، ثم ما لبثت شجرة الدر أن عزلت بعد ثلاثة أشهر لأسباب كثيرة منها اعتراض الخليفة العباسي في بغداد على أن تلي إمرأة مقام السلطنة وتم حل الإشكال بأن تزوجها الأمير أيبك التركماني بعد ذلك حتى إذا كانت سنة ٦٤٨هـ اعتلى أيبك عرش مصر بمساعدة المماليك البحرية ولقب نفسه (بالملك المعز) وبالسلطان أيضاً .

وهكذا يعتبر أيبك هو مؤسس دولة الأتراك المماليك في مصر حيث يقول بن إياس في كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" : "وكان أولهم المعز أيبك التركماني

---

[١] لين بول ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د . أحمد السعيد ، ج١ ، ص١٤١ .

الصالحي النجمي" [١] ولكن لين بول وغيره من الكتاب الأوربيين يعتبرون شجرة الدر أول مملوك المماليك البحرية .

ومع ذلك فقد رأى أيبك أنه من الضروري إجلاس أحد أعضاء الأسرة الأيوبية على العرش من قبيل السياسة فانتخب لذلك الأشرف موسى وهو من أحفاد الملك الكامل محمد وكان لا يزال في السادسة من عمره وعين سلطاناً من الناحية الشكلية ويذكر اسمه مع أيبك في الخطبة والسكة وهذه المسألة علامة السلطنة الرئيسية.

وأظهر أيبك قوته عندما استولى على دمشق وأجبر الملك الناصر يوسف وهو من أيوبية حلب على الفرار بعد أن كان يزحف على القاهرة وزاد هذا النصر من شهرة أيبك وعظمته وخصوصاً بعد أن نحى الملك الأشرف موسى سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢م) وصار سلطاناً منفرداً مطلقاً في مصر ولكن وقعت بينه وبين شجرة الدر بعض المشاكل التي تتعلق بالغيرة بينها وبين زوجة أيبك الأمر الذي دفعها إلى قتله سنة ٦٥٥هـ ولم تزل ضرتها أن قتلتها بعد ذلك بأيدي جواريها .

لكن هذه المشكلة لم تقض على دولة المماليك البحرية حيث تولى بعد أيبك مملوك قوي هو (سيف الدين قطز) الذي قام بهزيمة المغول في معركة "عين جالوت" سنة ٦٥٨هـ .

وفي هذا العصر تم القضاء على كل ما كان للصليبيين من أملاك على سواحل الشام وبقيت دولة مصر والشام التى ورثها المماليك عن الأيوبيين بحدودها التى ذكرناها قائمة في مصر والشام وبلاد الحجاز وسواحل اليمن وبرقة وبلاد النوبة.

وفي النصف الأول من القرن السابع الهجرى اجتاح الأعصار المغولى المدمر بلاد الشام الشرقية الآسيوية ، فكانت كارثة عطلت سير الحضارة الاسلامية وتطورها الثقافى الهادىء في دنيا الاسلام وحطم الكيان السياسى للدولة العباسية وفي سنة

---

(١) ابن اياس، ج١، ص٩٠.

٦٥٦هـ اقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو في وحشية مدمرة متعطشة للدم ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وداسوا التراث الاسلامى بأقدامهم عندما جعلوا من الكتب والمصاحف جسرا يعبرون عليه نهر دجلة .

وكان ذلك بسبب ضعف المسلمين وتنازعهم وانقسامهم ، فقد أضحى الجزء الشرقي من بلاد المسلمين ألعوبة في يد الأتراك المتغلبين الذين زرعت حروبهم المتواصلة الدمار والخراب في الدولة الاسلامية ، فأضعفت بذلك الخلافة الاسلامية ، وصار الخليفة في بغداد ألعوبة في يد الأتراك أيضا فسقطت بغداد في يد المغول لقمة سائغة وفريسة هينة .

وطلب المغول من حكام مصر (المماليك) الاستسلام فردوا عليهم بهجوم ساحق شنوه عليهم في فلسطين ، وأنزلوا بهم هزيمة حاسمة في معركة (عين جالوت) قرب الناصرة سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) وتمكن المماليك بقيادة (سيف الدين قطز) بذلك من ايقاف الزحف المغولى عند حده وأنقذوا الحضارة الانسانية وماتبقى من الحضارة الاسلامية في مصر والمغرب من عبث المغول .

ودخلت الخلافة الاسلامية بعد سقوط بغداد في يد المغول في طور جديد من أطوارها ، فبعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس في العراق عمد السلطان (الظاهر بيبرس) المملوكى الى اقامة الخلافة العباسية من جديد في القاهرة عاصمة دولة المماليك رغبة منه في أن يخلع على حكمه صبغة شرعية وكان للمكانة التى نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة أثر كبير في رفعتها فاتجه العالم الى مصر ورضى أن تكون دار الخلافة بها بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد .

وقد شغر منصب الخلافة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦هـ الى سنة ٦٥٩هـ ، وقد رأى المسلمون أن عملية اقامة خليفة مهما يكن ضعفه فإنه رمز للوحدة الاسلامية وربما يصبح الرمز حقيقة في يوم من الأيام .

فاستدعى (الظاهر بيبرس) رجلا من نسل بنى العباس سنة ٦٥٩هـ سمى بالمستنصر وقلده الخلافة في القاهرة ، ولم يكن للخليفة العباسى في مصر شيئا من السلطة في ظل سلاطين المماليك من سنة ٦٥٩-٩٢٣هـ فقد أدى نظام الخلافة الاسلامية في هذه الفترة الى الانهيار . فانفصلت السلطة الزمنية السياسية عن السلطة الدينية ، حيث تقلد سلاطين المماليك السلطة الزمنية السياسية وتركوا للخليفة العباسى السلطة الدينية مثل الظهور في بعض الاحتفالات الدينية بمطلع العام الهجرى والمولد النبوى الشريف ورؤية أهلة الشهور العربية والاحتفال بالعيدين وتنصيب أحد سلاطين المماليك بعد تغلبه على السلطة وحصوله عليها بالغلبة فيأتى بعد ذلك دور الخليفة من الناحية المظهرية فحسب .

ومهما يكن من شيء فإن سلاطين المماليك استفادوا من وجود الخليفة بالقاهرة، فقد أسبغت عليهم هذه المسألة قوة وصيتا في العالم الاسلامى وجعلت منهم سلاطين على العالم الاسلامى عامة لا سلاطين مصر وحدها [١] .

أما العصر الثانى فهو : عصر المماليك البرجية أو السلاجقة من سنة ٧٨٤ هـ-٩٢٢هـ (١٣٨٢م-١٥١٧م) وتم إطلاق البرجية عليهم لأن ثكناتهم كانت في قلعة القاهرة وكان يقال لهم الجراكسة نسبة إلى أصلهم من الشركس وكانوا كالمماليك البحرية يلقبون بالسلاطين ، ولم تنتقل السلطة فيما بينهم بالوراثة إلا نادراً وكانوا في الغالب ينتخبون أقواهم لولاية السلطنة وقد ولي أول السلاطين الجراكسة وهو الظاهر برقوق الحكم للمرة الأولى سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) .

وكانت دولة المماليك في عصريها (البحرية والبرجية) تضم القسم الأكبر مما نسميه الشرق الأوسط الآن حيث كانت تسيطر على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن) والحجاز ثم اليمن في أخريات أيامها وبعض الجزيرة الفراتية

---

[١] الامام محمد أبو زهرة ، الوحدة الاسلامية ، ط٢ ، ص٢٢٢ . وانظر للمؤلف : كتاب العالم الاسلامى في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص١٠-١٢ .

وإقليم العواصم والثغور وهو القسم الجنوبي من آسيا الصغرى وكانت هذه أجزاء كثيراً ما تدخل في سلطان ملوك مصر في معظم العصور الإسلامية ، وكان بنو رمضان الذين تسلطنوا في (طرسوس) وما يليها يولون من قبل المماليك .

ولذلك كان سلاطين المماليك يديرون ملكاً واسعاً في مصر والأقطار التي تتبعها وكان لسلاطين المماليك الزعامة بين ملوك المسلمين وذلك لأمرين :

أولهما : أن سلاطين المماليك كانوا يقومون بخدمة الحرمين الشريفين وحمايتهما وعلى الرغم من اهتمامهم بالألقاب الدينية ومنها لقب (خادم الحرمين) فقد تولوا من هذا الملك الواسع السلطة الزمنية فقط وتركوا ما عداها للخليفة العباسي في القاهرة إلا أنهم اهتموا بلقب خادم الحرمين الشريفين أو كما كان يقال أحياناً (حامي حمى الحرمين الشريفين) .

ثانيهما : وجود الخلافة العباسية في القاهرة منذ سقوطها في بغداد وصارت للمماليك بذلك زعامة معترف بها في جميع الأقطار الإسلامية ، ولم يكن أحد ينازعهم هذه الزعامة حتى أن العثمانيين أنفسهم وهم من أقوى الممالك الإسلامية في العالم يومئذ كانوا يقرون للمماليك بهذه الزعامة ، ومن يطلع على الرسائل المتبادلة بين سلاطين آل عثمان ومماليك مصر يدرك تلك الحقيقة [١] .

وتمكن سلاطين المماليك من تشييد كثير من القصور والمساجد والمدارس والخانقاوات والأسبلة والأسواق ، وجعلوها في أبهى زينة وما زالت آثار عصرهم ماثلة أمامنا إلى اليوم دليلاً واضحاً على ثراء عصرهم ومن هذه العمائر الباقية مدرسة السلطان المنصور قلاوون وقبته وبقايا بيمارستانة بالنحاسين بحي الجمالية الحالي بالقاهرة ومجموعة ابنه السلطان الناصر محمد بجانبها ومدرسة السلطان حسن ابن

---

(١) كثير من تلك الرسائل محفوظ في "منشئات السلاطين" التي جمعها فريدون بك في القرن الحادي عشر الهجري وبعضها في كتاب ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢-٢٦ .

الناصر محمد بالقلعة ، ومدرسة السلطان برقوق ومجموعة السلطان قانصوة الغورى (الجامع والقبة والمكتب والسبيل بالغورية) بالقاهرة .

وكان السلطان الغوري من أعظم البناه للعمائر الإسلامية بالقاهرة وغيرها من أجزاء مملكته فكان مولعاً بتشييد العمائر والتأنق فيها ، تدل على ذلك آثاره الباقية ، فقد أنشأ بجانب المجموعة السالفة جامعاً عند القلعة ، وبنى خان الخليلي وخانا وأحواضاً في طريق الحجاج عند العقبة ورباطاً ومارستانا في مكة وقصراً عند مقياس النيل بالروضة ، وأنشأ الميدان الكبير عند قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وهو الميدان المعروف بميدان الرميلة ، وأضاف إليه أحواضاً وأبنية ، وعمر قاعة البيسرية وقاعة العوامدية والدهيشة بالقلعة وغير ذلك من الأبنية الحربية والقلاع والحصون في مصر والحجاز والشام .

والذي مكن المماليك من إقامة تلك الحضارة الزاهرة في العصور الوسطى ، ذلك الثراء البالغ بسبب تمكنهم من السيطرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب فجنوا بذلك أرباحاً طائلة مكنتهم من إقامة العمائر الزاهرة وتكوين الجيوش القوية ، ومن ثم خفت وطأتهم على الشعوب التي حكموها لاعتمادهم على موارد خارجية بل أن شعوبهم أدلت بدلوها هي الأخرى في مجال التجارة العالمية فعندما فعندما راجت التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى عن طريق البحر الأحمر اشتركت فيها الأوساط الشعبية أيضاً وخاصة في منطقة الشرق الأوسط فأخذ الأفراد يستثمرون أموالهم في هذه التجارة عن طريق نظام المضاربة الإسلامي فقد كان التجار يمولون من مجموعة الأفراد أصحاب رؤوس الأموال ولهؤلاء الممولين نصيب في الربح غير محدد عند عودة التاجر من تجارته .

وتزخر مجموعة وثائق الجيزة [1] بالعديد من الوثائق التي هي عبارة عن عقود تجارية على نسق نظام المضاربة الإسلامي عقدت بين التجار والممولين الذين اشتركوا في نقل هذه التجارة العالمية مما يدل على أن هذه التجارة العالمية في العصور الوسطى عاد نفعها على الشعوب بعد الحكام . وأحدثت رواجاً اقتصادياً مرموقاً في منطقة الشرق الأوسط .

ولكن فترة حكم المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ) ١٣٨٢-١٥١٧م اتسمت بعدم الاستقرار في الحكم ، فقد كثر تعاقب سلاطين المماليك على الحكم في سرعة فائقة ، حتى أن بعضهم ما كاد يعتلي العرش أياماً حتى يعزل مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذي أصاب سلطنة المماليك في ذلك العصر ، بل أن أحد سلاطين المماليك لم يبق سلطاناً سوى ليلة واحدة ، فسمع أن خاير بك اعتلى العرش سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨م) بعد عزل (تمربغا) ، وكان اعتلاؤه العرش في المساء وتم عزله في الصباح التالي ، مما جعل ابن إياس يطلق عليه "سلطان ليلة" [2] .

ولم تستقر الأوضاع في عصر سلاطين المماليك الجراكسة إلا في عصرين هما :

١- عصر السلطان الأشرف قايتباي ٨٧٢-٩٠١هـ (١٤٦٨-١٤٩٦م).

٢- وعصر السلطان قانصوة الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ (١٥٠١-١٥١٦م) .

---

(١) مجموعة وثائق الجيزة عبارة عن عشرة آلاف وثيقة حفظها اليهود في معبدهم بالفسطاط ومقبرتهم بالبساتين [illegible] مقربة من القاهرة لمدة قرون طويلة قبل أن تأخذ طريقها إلى مكتبة جامعة كمبرج وغيرها من مكتبات الغرب الأوروبي ، وهي ترجع إلى العصور الوسطى ، الفاطمية والأيوبية والمملوكية وقليل منها من بداية العصر العثماني ويرجع إلى العصرين الفاطمي والأيوبي . وتغطي فترة زمنية طويلة تمتد من ٣٥٨-٩٤٥هـ / ٩٦٩-١٥٣٨م أي ما يقرب من ٦٠٠ سنة انظر د. حسنين ربيع ، وثائق الجيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، بحيث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض ، إبريل ١٩٧٧م .

(٢) ابن إياس ، [illegible] الزهور ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٨٨-٨٩

وتسببت هذه الفوضى المملوكية في سوء أحوال المملكة المصرية ، وبدأ ذلك في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد قدر له أن يحكم حتى جاوز الثمانين من عمره واستبد به المرض في شيخوخته ، وعندما توفي قايتباي في سنة ٩٠١هـ عاد الصراع وكثر القتال على الحكم بين المماليك ، ولم تهدأ الأحوال إلا عندما اعتلى قانصوة الغوري كرسي السلطنة في سنة ٩٠٦هـ (١٥٠١م) ولعل الميتة الوحشية التي تعرض لها كثيرون من سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هي التي جعلت قانصود الغوري يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء وامتنع عن تولي السلطنة وبكى [١] بيد أنه قبل في النهاية ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه [٢].

ولم يكد السلطان الغوري السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوي صلب العود على الرغم من أنه كان قد جاوز الستين من عمره [٣] وعلى الرغم من اعتقاد المماليك أنه ضعيف يمكن التلاعب به عمل بسرعة منذ اللحظة الأولى على إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة بسبب اعتراض البرتغاليين للتجارة الشرقية ، واعتدائهم على السفن الإسلامية التي كانت تحمل هذه التجارة .

وعلى الرغم من أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى المال بعد أن نضب معين التجارة في عصر الغوري مما اضطره إلى فرض كثير من الضرائب لمواجهة البرتغاليين وتحصين ثغور البحر الأحمر وإعداد أسطول قوي لمجابهة البحرية البرتغالية المتقدمة ، على الرغم من ذلك إلا أنه يؤخذ على الغوري جمع المال بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، واتباع سياسة تعسفية في إشباع خزانة الدولة ، فجمع

---

(١) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي ، وسعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص٥٢٥ .

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٥ .

ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ، ودواب النقل حتى الأوقاف الخيرية هذا إلى جانب أنه تلاعب في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضراراً بالغة .

وأثقلت تلك الإجراءات كاهل الشعب المصري والشامي والحجازي في وقت بدأت المنافسة البرتغالية للتجارة المصرية في البحار الشرقية تلقي بظلها على الحياة الاقتصادية داخل دولة المماليك ، وعلى الرغم من ذلك فإن الغوري ظل يصرف كثيراً من الأموال على مظهر بلاطه ، وفخامته ولم يقلع عن أسلوب الفخفخة والعظمة حتى في أحلك الظروف الاقتصادية وأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية التي ضمت الشعراء والأدباء والعلماء [1]

وفي هذه الفترة بقيت حدود الدولة المملوكية في مصر والشام على ماهي عليه خلال العصرين الأيوبي والمملوكي الأول وزادت عليها أيام السلطان (برسباى) ضم قبرص ورودس .

---

(١) انظر بحثاً قيماً عن مجالس السلطان الغوري للدكتور عبد الوهاب عزام .

الباب الثالث

الحركات الانفصالية في المشرق

الفصل الأول

الدويلات التي نشأت في فارس والمشرق

- الدولة الطاهرية .
- الدولة الصفارية .
- الدولة السامانية .
- الدولة الطبرية الزيدية .
- المغول في فارس .
- المغول في العراق .

الحركات الانفصالية في المشرق

كان المشرق الإسلامي هو البيئة الصالحة التي اعتمدت عليها الثورة العباسية واستمدت منها قوتها فتوجهت إليه الدعوة العباسية في فترة التحضير للثورة على الدولة الأموية ، وكانت جماهير المشرق الإسلامي هي التي التفت حول الدعوة للرضا من آل محمد عليه الصلاة والسلام ، والدعوة العباسية حين اتجهت إلى المشرق إنما كانت تتجه إلى بيئة شيعية حرثها العلويون من قبل .

فقد كان العراق مركز الشيعة منذ كانت الكوفة عاصمة الخلافة في عهد علي بن أبي طالب ، وقد اتسم الصراع الذي قام بين علي ومعاوية بمظهر الصراع الإقليمي بين العراق والشام ، وقد ازداد النشاط الشيعي في المشرق كنتيجة لانضمام الموالي الفرس للشيعة ، وقد وجد التشيع أرضاً خصبة في بلاد فارس لاعتقاد الفرس أن نسل الحسين بن علي يحمل حق بيت النبوة وحق الحكم في آل ساسان ، وذلك لأن الحسين بن علي تزوج شهربانو ابنة (يزد جرد الثالث آخر ملوك آل ساسان) .

فيذكر ابن خلكان في ترجمة علي زين العابدين بن الحسين نقلاً عن الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار" أن الصحابة لما أتو المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان فيهم ثلاث بنات ليزد جرد ، وأمر عمر ببيعهم فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال له عمر : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يُقَوَّمْنَ ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فرضي عمر بخطته ورأيه فقومن ودفع علي ثمنهن وأخذهن ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين ، والثالثة لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولد عبد الله بن عمر أمته (سالماً) ، وأولد الحسين بن علي من أمته شهربانو ولده (علي زين العابدين) ، وأولد محمد بن أبي بكر من أمته ولده

القاســم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزد جرد [١] ، واستناداً إلى هذا أصبح الأئمة من الشيعة من نسل الحسين وشهربانو من ابنهما (علي زين العابدين) لا يمـثلون حـق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضاً من حيث كونهم يتمتعون بانحدارهم من أصل مزدوج من بيت الرسالة ومن آل ساسان [٢] .

ولهــذا فقــد رحــب الفرس بدعاة الشيعة ، وقد أصيبوا بخيبة أمل عندما اكتشفوا في النهاية أن العباسيين قد استغلوا الثورة لصالحهم دون العلويين .

وعلى الرغم من أن الفرس حققوا مكانة طيبة في الدولة العباسية فكان منهم وزراء الدولــة وقوادهــا ، إلا أن ميولهم الشيعية ظلت واضحة في كثير من وزراء الدولة العظام أمثال آل برمك وآل سهل وغيرهم .

وبــدأت طموحــاتهم مبكرة في تحقيق الانفصال عن الدولة العباسية وتحقيق كيان مستقل عنها إذا جاز لنا هذا التعبير .

ولقــد ساعد على هذا أن الوجود العربي في فارس بعد قيام الدولة العباسية أصــبح معدومــاً أو نادراً ، وذلك بسبب أن الألوف من العرب الذين استقروا في إيــران ســاروا مع الجيوش العباسية غرباً للقضاء على الدولة الأموية عندما قامت الثورة العباسية ولم يعودوا إلى خراسان مرة أخرى [٣] وهذا هو الذي أضعف العنصر العــربي في إيــران وما يليها شرقاً ، ولما كان العرب هم خميرة التعريب فقد تراخت حركة التعريب بل توقفت في المشرق .

وفي المقــابل بــدأت الروح الإيرانية تنتعش ودبت الروح في اللغة الفارسية والحضــارة الإيرانــية مرة أخرى وأخذت الحركة صورة رد فعل معاد للعرب عرف

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٦٧ .

(٢) محمــد إسماعيــل جمــال الدين ، دولة الإسماعيلية في إيران، ص٨ ، وبديع جمعة وأحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج١ ، ص٣٨ .

(٣) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص٢٣١ .

بالشـــعوبية وأيد ذلك كله أن الدولة العباسية وهي دولة عربية قامت في محيط إيراني خـــارج الـــنطاق العربي ، فبدأت الفارسية تحل محل العربية أو تشاركها في البداية ، وبدأت سيطرة الفرس على الوزارة ودواوين الدولة .

وتراخت الدولة العباسية مع حكام النواحي في إيران وما يليها شرقاً ما داموا يظهرون الولاء للبيت العباسي ويؤدون الأموال وبذلك ظهرت الدول الإيرانية التي سنتناول نشأتها بالبحث والدراسة [١] .

وهكـــذا بعـــد إبعـــاد العنصـــر العربي عن القيادة وجد العباسيون أنفسهم مكشوفين منفردين أمام الموالي الطامحين إلى الاستبداد بهم والاستقلال عنهم .

غـــير أن المشـــرق يختلف تماماً عن المغرب فبينما كانت الحركات في المغرب تـــتجه إلى الانفصال التام عن الخلافة العباسية كانت أقاليم المشرق في اتجاهها نحو تكوين ولايات وراثية تحرص على البقاء متصلة بالخلافة معترفة بسلطانها عاملة في مجـــال الـــتعاون معها بل حرصت على أن يكون قيامها بتأييد من الخلافة العباسية نفسها ، ولم تكن دولة من هذه الدول التي نشأت في المشرق ترى سلطانها شرعياً إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي حتى الأمراء الذين استغلوا الخلافة فيما بعد واستبدوا بالخلفاء حرصوا أشد الحرص على أن تصدر لهم الخلافة براءة التقليد ، ولم يسعوا قط في إقامة ملكهم بعيداً عن سلطان الخلافة الإسمي على الأقل .

وأمام هذا الولاء العميق للخلافة العباسية ظلت الخلافة قائمة على الرغم من فـــترات الضعف الشديد التي مرت بها ووقوعها تحت أيدي المستبدين بها من الأتراك والديـــلم والسلاجقة ، وكان من الممكن أن تسقط الخلافة العاجزة وينقسم المشرق إلى دول عديدة منفصلة تماماً لولا هذا الاحترام الذي يكنه الشرق الإسلامي للخلافة ، وكـــان خلفـــاء بني العباس في عصر ضعف الخلافة يقفون مجردين إلا من مركزهم

(١) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص٢٣١-٢٣٢ .

الديني السامي ، وهو المركز الذي أبقى الخلافة قائمة هذه المدة الطويلة ، ولم تسقط إلا على يد عدو شرس لا يدين بالإسلام وهو العدو المغولي .

وتجدر الإشارة إلى مصطلح تاريخي كثيراً ما يرد في كتب المؤرخين المسلمين وهو لفظ (المتغلبون) أو حكام ولايات الأطراف الذين يتغلبون على هذه الولايات ، والواحد منهم متغلب أو صاحب طرف والفرس يطلقون عليه (طرف دار)[1] وهو مصطلح مكون من لفظتين :الأولى : عربية وهي كلمة "طرف" والثانية : فارسية وهي لفظة "دار" بمعنى ماسك أو مدير أو محافظ فيكون معناها محافظ الطرف أو الثغر أو مديره .

وولاة تلك النواحي يحكمون إما عن طريق التغلب ويطلبون من الخليفة تقليداً بتوليتهم على النواحي التي تغلبوا عليها والخليفة هنا يقر الأمر الواقع ولم تكن الخلافة في العادة تؤخر هذا التقليد إلا إذا كانت قادرة على إرسال الجيوش لاسترداد ما تغلب عليه المتغلب ، أما إذا شُغِلَتْ بشيء أو عجزت فهي ترسل إليه التقليد .

والنوع الثاني : من ولاة الأطراف هم ولاة التفويض ففي حالة ولاة التفويض فإن الخليفة يختار بنفسه رجلاً من وجوه قواده الموثوق بهم والمشهود لهم بالكفاءة فيوليه ولاية من الولايات ويصدر إليه تقليداً ، فيكون طرفدار بالتفويض ، وعلى ذلك فولاية النواحي نوعان : ولاية تغلب بمعنى الاستيلاء[2] وولاية تفويض .

---

(١) انظر من مصادر المصطلحات التاريخية : ١- ابن فضل الله العمري (ت٧٤٨هـ) ، المصطلح الشريف ٢- تقي الدين عبد الرحمن المحبي (ت٧٨٦هـ) ، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف ٣- أبو العباس القلقشندي (ت ٨٢١هـ) صبح الأعشى ٤- تقي الدين المقريزي (٨٤٦هـ) المواعظ والعتبار بذكر الخطط والآثار ٥- علي مبارك (١٣١١هـ) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ٦- د.أحمد السعيد ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل . وللمؤلف : الموسوعة المصطفية في المصطلحات التاريخية .

(٢) المؤرخون المسلمون يشيرون إلى هذا النوع بقولهم (تغلب) فلان على ناحية كذا و (استولى) فلان على إقليم كذا ، و (استبد) فلان بولاية كذا ، ولا يستعملون مصطلح استقل بإقليم كذا لأن هذا مصطلح عرف في التاريخ الحديث عند محاولة الدول المستَعْمَرة الاستقلال القومي والوطني عن الاستعمار الذي كان يدير بلادهم عن طريق الوصاية أو الانتداب،ومن الخطأ استعمال المصطلحات الحديثة في التاريخ الإسلامي،وذلك مثل (الإمبراطورية=

وسنرى فيما يلي أمثلة لكلا النوعين ونحن في استعراضنا لكلا النوعين في المشرق نسير فيه بحسب سير الحوادث زمنياً .

الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ) :

تنتسب هذه الدولة إلى (طاهر بن الحسين) أحد قواد المأمون أثناء حربه مع أخيه الأمين ، وقد ولاه المأمون على خراسان [١] ولاية تفويض بعد أن استقرت أوضاع المأمون في بغداد سنة ٢٠٥هـ ، وطاهر بن الحسين إيراني الأصل ولكنه كان مستعرباً ، وكان جده مصعب يلقب (بالخزاعي) لأنه كان كاتباً (لسليمان بن كثير الخزاعي) صاحب دعوة بني العباس ، ومن هنا لقب بالخزاعي فهي نسبة ولاء لانسبة نسب كما يقول ابن خلكان .

ويذكر ابن الأثير أن المأمون أضاف إليه أعمال المشرق كلها من مدينة السلام (بغداد) إلى أقصى عمل المشرق وكان قبل ذلك يتولى الشرطة في بغداد وبعد توليته على خراسان استمرت ولاية الشرطة لأبنائه ومن أجل محافظتهم على صلتهم القوية بالدولة العباسية لم يعتبرهم بعض المؤرخين من الدول المنفصلة ولكننا اعتبرنا استمرار حكمهم الوراثي في المشرق وصراعهم مع القوى الناشئة هناك كالصفاريين والطبرستانيين من أجل المحافظة على كيانهم من الأسباب الكافية لاعتبار دولتهم أول الدول التي نشأت في المشرق .

=الإسلامية) وذلك لأن كلمة إمبراطورية مأخوذة من اللفظة (imperialism) ومعناها بناء الإمبراطورية الاستعمارية .

(١) مصطلح (خراسان) هنا يتسع فيشمل المشرق كله ، وكلمة خراسان في الفارسية معناها المشرق ، فهي مؤلفة من (خور) بمعنى شمس و (أسان) بمعنى شروق . (العبادي،ص١٤٩) وكان هذا الاسم في صدر الإسلام يطلق بوجه عام على جميع الأقاليم الشرقية الإسلامية في شرق العراق حتى حد جبال الهند ، وخراسان بهذا المدلول الواسع كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر التي في الشمال الشرقي ، إلا أن خراسان الحقيقية لم تكن تمتد إلى أبعد من نهر جيحون . وتشمل نيسابور ومرو وهراة وبلخ [انظر : لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية] .

وقـــد اتخـــذ طاهر بن الحسين من (نيسابور) قاعدة له ، ونيسابور هي بوابة إيـــران الشـــرقية ، وهي إحدى المدن الأربع السالفة التي كانت تتبادل الأهمية وبعد الفـــتح الإســـلامي الأول لخراسان كانت (مرو) العاصمة إلا أن الطاهريين جعلوا العاصـــمة نيســـابور . ومعناها في الفارسية (موضع سابور الطيب) . ونسبت إلى سابور الثاني أحد حكام آل ساسان ، ثم أصبحت عاصمة للسلاجقة منذ سنة ٤٢٩ هـــ ، وبعد أن خربها المغول في القرن السابع الهجري تحولت إلى قرية صغيرة لا يزيد تعـــداد سكانها عن ١٢٠٠٠ نسمة وحلت محلها مدينة (مشهد) وهي طوس القديمة والـــتي بها ضريح الإمام علي الرضا (الإمام الثامن عند الإمامية) الذي كان ولاه المأمون ولياً لعهده ثم توفي في طوس ، ومزارة من أهم مزارات الشيعة في إيران [١] . غـــير أن طاهـــر لم يستمر في ولايته طويلاً ، فقد توفي في سنة ٢٠٧هـــ فولى المأمون مكانـــه ابنه (عبد الله بن طاهر) . غير أن عبد الله كان والياً على (الرقة) من بلاد الجزيرة ، فأرسل المأمون أخاه (طلحة بن طاهر) مكانه إلى حين حضور عبد الله من الرقة ، وهذا مما يدل على حرص المأمون على خدمات هذه الأسرة .

ولابـــن طباطـــبا في الفخري رواية تذكر أن طاهر مات مسموماً فيذكر أن المأمون لما ولى طاهر على خراسان استشار فيه وزيره أحمد بن أبي خالد فصوب أحمد الرأي في تولية طاهر ، فقال المأمون لأحمد إني أخاف أن يغدر ويخلع ويفارق الطاعة ، فضمن ذلك أحمد .

فـــلما تولى قطع اسم المأمون من الخطبة فبلغ ذلك المأمون فقال لأحمد بن أبي خالد أنت الذي أشار بتولية طاهر وطلب منه أن يتدخل في الأمر لإصلاح الوضع .

(١) لســـترنج ، مـــرجع ســـبق ذكره ، ص٤٢٣-٤٣٠ ؛ وموريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، ص٥٥ .

فقـــال أحمد يا أمير المؤمنين طب نفساً ، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه ، فأهدى أحمد لطاهر هدايا فيها بعض الطعام المسموم فأكل طاهر منه فمات [١] .

وقـــد قـــابل الطاهـــريون ثقة المأمون بالإخلاص والتفاني في خدمة الدولة ، وحرصـــوا عـــلى التعاون معها والاعتراف بسلطانها ، وكان عبد الله بن طاهر على جانب كبير من الكفاءة والإخلاص للدولة العباسية .

وقـــد ولاه المأمون على مصر بالإضافة إلى خراسان سنة ٢١٠هـــ وكانت تغـــلي بالفتن فأصلح أحوالها وحاول القضاء على ما بها من فتن ، ولما كان للعلويين نشاط كبير في مصر في هذه الفترة ، وكان المأمون يعرف ميل الطاهريين إلى العلويين كغيرهـــم من الفرس فقد أراد يوماً اختبار إخلاص (عبد الله بن طاهر) ، فدس له من يســـبر غور نفسه ، وذلك بأن يدعوه إلى أحد العلويين بمصر ، ففطن ابن طاهر إلى خطورة هذا العرض فرد على الرجل قائلاً : "تجيء إليّ وأنا في هذه الحال : لي خاتم في المشـــرق وخاتم في المغرب (يعني مصر) وفيما بينهما أمري مطاع ، ثم لا ألتفت عن يمـــيني ولا شمـــالي وورائي وأمامي إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها علي ، ومنه ختم بها رقبتي ، ويداً بيضاء ابتدأني بها تفضيلاً وكرماً ، تدعوني إلى أن أكفر بهذه النعم وهذا الإحســـان ، وتقـــول أعدر بمن كان أولاً لهذا وآخراً ، وأسعى في إزالة خيط عنقه ، وسفك دمه وأن أعدر به وأكفر بإحسانه وأنكث بيعته [٢] .

ووصـــل هـــذا الـــرد الذي يُظهر فيه عبد الله بن طاهر الاعتراف بالجميل لـــلمأمون فأمن له ورضي عنه ، هكذا تدعمت الثقة بين العباسيين وبني طاهر ، وقد تتـــبع الطاهـــريون الحركات العلوية في المشرق يقضون عليها ، وفي أي مكان تصل أيديهـــم إليه استجابة لرغبة العباسيين ، وكذلك تعاون عبد الله بن طاهر مع الخلافة تعاوناً صادقاً في قمع الخارجين عليها ، فعندما عاد إلى خراسان سنة ٢١٤هـــ وخرج

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٢٤ .

(٢) الطبري ، ج١٠ ، ص٢٧٧ .

(المازيـــار بن قادن) صاحب جبال طبرستان على الدولة أيام المعتصم بتحريض من الأفشـــين استطاع عبد الله بن طاهر كشف المؤامرة التي تمت بينهما وأطلع المعتصم عليها وأرسل جيوشه إلى قتال المازيار حتى قبض عليه وأرسله إلى سامرا .

وكـــان حكم الطاهريين للمشرق حكماً صالحاً ، قد اهتموا بأمر رعاياهم ، وأصـــلحوا الأحـــوال الاقتصادية للبلاد وأقروا الأمن ، كما تعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة ، فكانوا يضربون على يد كل من يعسف بالرعية [١] كما تعهدوا أهل العلم والمعرفة ، وأصبحت (نيسابور) في عهدهم مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية .

وحـــافظوا على الثغور الشرقية ودعموا نفوذ الإسلام في بلاد الترك بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين كانوا قد دخلوا في طاعة المسلمين ، وبعد وفاة عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠هـــ خلفه ابنه طاهر الذي توفي سنة ٢٤٨هـــ ثم حفيده محمـــد بن طاهر الذي حكم حتى سنة ٢٥٩هـــ ويعتبر محمد بن طاهر آخر من تولى مـــن أســـرة الطاهريين إذ خلفه على حكم خراسان (يعقوب بن الليث الصفار) مؤسس الدولة الصفارية .

وقـــد قـــدر العباسيون خدمات الطاهريين ومالوا إلى جانبهم في نزاعهم مع الصفاريين ، وأبقوا شرطه بغداد في أيديهم حتى سنة ٣١٠هـــ على الرغم من زوال سلطانهم في خراسان .

ولعل السبب في ذلك أن آل طاهر كانوا قد اندمجوا في المجتمع العربي لدرجة أن بعضهم كان يقول الشعر ويؤلف بالعربية مثل (عبيد الله بن عبد الله بن طاهر) الذي ولي شرطة بغداد وله مؤلفات باللغة العربية [٢] وإليه انتهت رياسة أهله [٣] .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص١٩٨-٢٠٣ .

(٢) مـــنها : ١- الإشـــارة في أخبار الشعراء ٢- ورسالة في السياسة الملوكية وكتاب : مراسلاته لعبد الله بن المعتز ، وكتاب البراعة في الفصاحة ، وغير ذلك (ابن خلكان ، وفيات ، ج٣ ، ص١٢٠) .

(٣) وتوفي عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سنة ٣٠٠هـــ وكانت ولادته سنة ٢٢٣هـــ ودفن بمقابر قريش وكانت مدة ولايته للشرطة عشر سنين (ابن خلكان) .

وكان بيت الطاهريين في القرن الثالث الهجري ثاني بيت في الدولة الإسلامية بعد بيت الخلفاء العباسيين ويذكر الثعالبي في "يتيمة الدهر" أن آخر سلالة الطاهريين أصبحوا في خدمة السامانيين في بخارى عندما علا نجمهم ، وكان الطاهريون قد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ، وكان منهم شاعر يخدم آل سامان جهراً ويهجوهم سراً وينطوي على بغض شديد لهم [ج٤ ، ص٧ وما بعدها ، وانظر : آدم متز ، الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٢٧٥] .

الدولة الصفارية (٢٥٣-٢٨٧هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى (يعقوب بن الليث الصفار) الذي كان يعمل هو وأخوه عمرو في بداية حياتهما في صناعة النحاس الأصفر ويعيشان من كسب عملهما فيه بإقليم سجستان في جنوب إيران ، ثم التحقا بفرق المجاهدين المتطوعة التي تكونت لقتال الخوارج الذين خرجوا على الدولة العباسية في تلك النواحي بسبب اختلال أوضاع الدولة بسيطرة الأتراك عليها .

وقد أظهر يعقوب حماسة وجلداً في حربه مع المتطوعة وقد كان يعقوب ذا مواهب عالية فما لبث أن ظهر أمره بين رفاقه حتى وصل إلى (قيادة فرقة المتطوعة سنة ٢٣٧هـ) وقد برهن يعقوب منذ اللحظة الأولى في القيادة على مقدرة وكفاءة ، فقد ضبط أمور الجند وحارب بهم الخوارج ، وغلب على إقليم سجستان ، وأظهر التمسك في بداية أمره بطاعة الخليفة ، وعمل تحت راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تلك النواحي فأطاعه الجند وكثر أتباعه وكان على جانب كبير من الدهاء وعرف بالتسرع إلى سفك الدماء [1] وكاتب الخليفة وأظهر أنه يعمل بأمره .

ولم يقنع يعقوب بما أحرزه من مكاسب في سجستان وإنما طمع في خراسان التي كانت تحت سلطة الطاهريين فتحرك في سنة ٢٤٨هـ من سجستان متجهاً إليها

---

(١) ابن خلكان ، وفيات ، ج٦ ، ص٤٠٧ .

واشـــتبك مع جيش الطاهريين فهزمهم في عدة معارك واحتل مدينتي هراة وبوشنج ســـنة ٢٥٣هـــ [١]ولم يكتف يعقوب بما وصل إليه وإنما تقدم فاحتل كرمان [٢] سنة ٢٥٥ هــــ وضـــمها إلى سجســـتان وسار إلى إقليم فارس فدخله واحتل عاصمته (شيراز) سنة ٢٥٧هـــ وبادر بإرسال الهدايا إلى الخليفة فدخله وأظهر أنه يعمل تحت طاعة الخليفة ، فأرسل لإليه الخليفة ينهاه عن احتلال فارس ، فقفل راجعاً ، غير أنه لم يســـتقر له قـــرار فاتجـــه إلى أقاليم بلخ [٣] وطخارستان فهزم من اعترضه في تلك الـــنواحي وحاول أن يظهر بمظهر المدافع عن حدود الدولة في هذا الثغر فكتب إليه الخلـــيفة بولاية بلخ وطخارستان [٤] سنة ٢٥٧هـــ إلى هذا الحد كان يعقوب يعمل تحـــت دائـــرة طاعة الخلافة ويحرص على إرضائها ويسعى لتأييدها ويرسل بين الحين والآخـــر رسله إليها بالهدايا والتحف وقد استجابت الخلافة فمنحته التقليد على ما تغلـــب عليه ، لكن كثيراً مما وضع يده عليه كان تحت نفوذ الطاهريين الذين تعطف علـــيهم الخلافـــة ، وتعـــتمد لإخلاصهم في خدمتها وطاعتهم ها ، وكانت تحركات يعقـــوب نحو هذه الجهات تهديداً خطيراً للطاهريين ، وإضعافاً لهم ، في الوقت الذي كانوا يقاتلون فيه العلويين في طبرستان ومنطقة قزوين .

وقـــد أدت انتصـــارات يعقوب من ناحية وانتصار العلويين في طبرستان من ناحية أخرى إلى اضمحلال أمر محمد بن طاهر والي خراسان فلم يبق في يده إلا بعض الأقاليم في خراسان .

---

(١) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص٣٣٨ .

(٢) كرمان : اسم لإقليم ومدينة ، وهو الإقليم الذي يقع على ثنية الخليج العربي بجانب المغارة الكبرى التي تقع في الشمال ، وسجستان من الشمال الشرقي ومكران في الشرق والخليج في الجنوب .

(٣) بـــلخ : مـــن أجل مدن خراسان وأوسعها غلة وتقع على نهر جيجون ويقال لجيجون لهذا نهر بلخ أحياناً ، وكانت بلخ عاصمة خراسان في بعض الأحيان ولكن آل طاهر نقلوا العاصمة إلى نيسابور غرباً وهي أكبر المدن.

(٤) طخارستان اسم لناحية في شرق بلخ ممتدة بحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيجون .

وتقدم شمالاً إلى (طبرستان) فحارب هناك الزيدية الذين كانوا قد كونوا بها دولـة تحـت قـيادة (الحسن بن زيد العلوي) منذ سنة ٢٥٠هـ وهزمه في عدة معـارك ، وكانـت قـوات الطاهريين قد عجزت في القضاء عليه وظن يعقوب أن الخلافة سترضى عنه ، ولكنها قابلت فعله هذا بالحذر وخشيت جانبه .

لكـن يعقـوب أغـراه نجاحه وأحس بقوته ووجد الفرصة مواتية له ليضم المشرق كله تحت لوائه وخاصة حين أدرك ضعف الطاهريين ، فتقدم إلى نيسابور سنة ٢٥٩هـ عاصمة خراسان ومركز الطاهريين واحتلها وقبض على محمد بن طاهر وأهـل بيـته وحبسـهم وأرسل إلى الخليفة يبرر عمله ويشرح له ما آل إليه حال خراسـان مـن تغلب الخوارج عليها وضعف محمد ابن طاهر أمامهم وزعم أن أهل خراسان قد كاتبوه واستعانوا به فسار إليهم وخلص خراسان من الفوضى .

وهنا أدركت الخلافة خطورة يعقوب عليها فأرسل إليه الموفق رسالة يقول له فـيها :"إن أمير المؤمنين لا يُقرُّ يعقوب على ما فعله وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الـذي ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره فليرجع فإنه إن فعل كان من الأولياء ، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين [1] " .

لكـن يعقوب تحدى الخلافة معتمداً على قوة جيشه وطاعة جنده فتقدم نحو فـارس واحتـلها وثبّـت سـلطانه بها ، واستغل في ذلك كله الفراغ الذي تركه الطاهريون ، ولكن الخليفة واجهه بدعاية خطيرة تقضي عليه وخاصة أنه كان يشيع دائمـاً أنـه يعمل لصالح الخلافة ، فاستغل الخليفة عودة حجاج المشرق وأمر أحد رجاله بجمعهم وقرأ عليهم كتاباً للخليفة في شأن الصفار والطعن فيه وأنه خارج على الدولـة وأنه عزله ، وعمل من هذا الكتاب ثلاثين نسخة ، ودفع إلى أهل كل منطقة صـورة من هذا الكتاب إذاعة الأخبار ضده في هذه الآفاق ، وهذه الدعاية سيكون لها تأثير سيئ في حروبه وستكون سبباً في تفريق رجاله عنه ، وهم الذين تجمعوا أصلاً

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث عام ٢٥٩هـ .

للدفاع عن الخلافة ضد الخارجين عليها ، وكتاب الخليفة يعلن أنه من الخارجين على الدولــة ، ومــن هنا سيضمحل شأنه [1] . فلما علم يعقوب بما قامت به الخلافة من دعايــة ضــده اشتد غيظه وعزم على حرب الدولة في عقر دارها فبدأ يزحف على العراق ، فتقدم إلى الأهواز وأرسل إلى الخلافة يطلب ولاية خراسان وفارس وكل ما كــان مضــموماً إلى الطاهريين وشرطتي بغداد و (سر من رأى) ويعطيه أيضاً ولاية طبرســتان وجرجان والري وأذربيجان وقزوين وكرمان وسجستان والسند ، ورأت الخلافــة أن تهادنه ريثما تعد عدتها ، فأرسلت إليه تقليداً بولاية خراسان وطبرستان وجــرجان والــري وفــارس وتعينه أميراً على شرطة بغداد وبذلك حققت له جميع مطالبه.

لكــن يعقــوب أصر على أن يجمع الخليفة الحجاج الذين أعلن فيهم عزله وعصــيانه وخروجه على الخلافة ، وأن يذيع فيهم كتاباً آخر يعلن رضاه عليه لإبطال الأثــر الــذي تركه الكتاب الأول ، وقد أجابه الموفق أحمد إلى ما طلب وكان الأمر بيده .

والســبب في هــذا التساهل مع يعقوب أن الدولة كانت تحارب ضد الزنج فكانــت واقعــة بــين قوتين ولم تشأ أن تواجههما في وقت واحد ، وكانت تخشى اتفاقهمــا عليها ، ولما كان الموفق أخو الخليفة يستعد لقتال صاحب الزنج فإنه بذلك هادن يعقوب ليكسب ولاءه وليبعده عن المعركة .

ومن ناحية أخرى شجعت الخلافة قوة موالية لها في إقليم ما وراء النهر الذي كان خاضعاً من قبل لولاة خراسان وجعلت هذا الإقليم إقليماً قائماً بنفسه وعهدت بولايته إلى (نصر بن أحمد الساماني) (٢٦١-٢٧٩هــ) وقد كان السامانيون من قبل عمالاً لبني طاهر ، وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية وراء الصفار تستخدمها عند اللزوم .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٤١٢-٤١٣ .

لكن يعقوب غره تساهل الدولة معه وبدأ يهاجم جيش الخلافة وواصل زحفه إلى العراق ليرغم الخلافة على الإذعان لقوته ، ويحتل في بغداد مركز الأتراك من قبل عصـــر الموفـــق ، واضطرت الخلافة تحت قيادة (الموفق) ، وخرج الخليفة مع الجيش ليحدث وجوده التأثير الروحي على جند الصفارحين يرونه وذلك سنة ٢٦٢هـــ[١].

وأحرز الصفار نصراً مبدئياً في المعركة ، لكن هذا النصر ما لبث أن تحول إلى هـــزيمة ساحقة حين رأى جند الصفار الخليفة على رأس الجيش يحارب يعقوب الذي كـــان في أول أمـــره جـــندياً مع المتطوعة يحارب الخارجين على الخليفة ، فعند ذلك انضموا إلى الخليفة وحاربوا معه ضد الصفار ومن ثبت معه في القتال ، فانهزم يعقوب تاركـــاً في الميدان غنائم كثيرة . ولعل السبب في هزيمته أنه جعل الأموال والأسرى معه كثيراً من الأثقال ، ولم يكن على معرفة جيدة بالأماكن التي زحف عليها ودارت بهـــا المعـــارك وبها كثير من المستنقعات والأنهار ، وسار بجنوده مسافات طويلة ، ولم يـــرتاحوا بالطـــريق قـــبل المعركة وذلك كله بدون أدلة ، بجانب أنه كان يتوهم أن الخلـــيفة لن يحاربه وإنما سترد الرسل عليه لمصالحته [٢] هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من جنوده انضم إلى جيش الخلافة فأصبحت هذه نكسة كبرى .

وأصدرت الخلافة مكتوباً آخر بلعنه واعتباره خارجاً على أمير المؤمنين منكراً للنعم ساعياً في الأرض بالفساد .

وكـــان من نتائج هذه المعركة تحرير (محمد بن طاهر) من الأسر وتعيينه إلى منصـــب رئيس شرطة بغداد ، وعاد يعقوب مهزوماً إلى البلاد التي سبق له أن تغلب علـــيها ، ولمـــا لم تكـــن الخلافة متفرغة لقتاله فلم تتعقبه قواتها وسارت على سياسة الاستمالة كسباً للوقت ، ولم يلبث يعقوب أن مات في سنة ٢٦٥هـــ ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٧-٨ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٤١٥ .

وهكذا امتد طموح يعقوب إلى القضاء على الخلافة ومحاربتها بعنف ، وكان هذا هو السبب في قصر أجل هذه الدولة .

وبعـــد وفـــاة يعقوب اختار الجند أخاه عمرواً خلفاً له ، وفي سنة ٢٧٠هـــ تفرغت الدولة للقضاء عليه بعد القضاء على صاحب الزنج ، فأصدر الخليفة المعتمد قـــراراً بعزل عمرو الصفار عن البلاد التي ولاه عليها من قبل ، وقلد محمد بن طاهر أمر خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر (١) .

وســـار الموفق بنفسه إلى قتال عمرو بن الليث في فارس واضطره إلى التقهقر إلى سجســـتان بعـــد أن ألحق بقواته الهزيمة (٢) ، وعندما تولى المعتضد سنة ٢٧٩هـــ حاول عمرو ترضيته فأرسل إليه بالهدايا ومعها كتاب يعلن فيه ولاءه للخلافة ، لكن المعتضد ضرب عمرو بقوة السامانيين النامية في إقليم ما وراء النهر ، فألحقوا بعمرو هـــزيمة حاسمة سنة ٢٨٧هـــ وأسروه وأرسلوه إلى الخليفة الذي سجنه حتى مات في بداية حكم المكتفي ٢٨٩هـــ .

وأخـــذت الخلافـــة ترسل جيوشها متوالية حتى استطاعت القضاء على بقية الصـــفاريين وانتهـــت هذه الدولة بعد أن حكمت نحو ٣٦ سنة على الرغم من قوة جيشـــها وحســـن تدريبه وتسليحه وضبطه ، وذلك لأن الصفاريين اتجهوا إلى محاربة الدولـــة في الداخل ، وزاد طموحهم لدرجة القضاء على الخلافة ، ووسعوا ملكهم عـــلى حساب دولة كانت توالي الخلافة ، وتقوم بمهمة كبيرة في المشرق وهي الدولة الطاهرية .

وهكـــذا فإن الدولة الصفارية وجهت رماحها إلى صدور المسلمين في داخل الدولـــة الإســـلامية وساهمت في عوامل الفرقة والتمزق ، ومن ثم فهي دولة لم تحقق هدفاً ولا كانت ذات رسالة واضحة في التاريخ الإسلامي .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج٦ ، ص٦٢ .

الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ) :

قامت هذه الدولة في منطقة ما وراء النهر [١] ، ولكنها ما لبثت أن امتدت إلى المنطقة الإيرانية ، فبسطت سلطانها على بلاد خراسان وطبرستان والري والجبل وسجستان ، وكانت عاصمتهم في بخارى .

والسامانيون ينتسبون إلى إحدى أسر الفرس التي كان يعمل جدهم كاهناً من كهان (الديانة السمنية) المنتشرة في بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام ، ويطلق على كاهن هذه الديانة "سامان" [وهم ينسبون أنفسهم إلى ملوك الفرس شأنهم في ذلك شأن الأسر الفارسية التي حكمت في إيران] ، وقد ظهر أمر هذه الأسرة في عهد الخليفة المأمون ونالت حظوة كبيرة عنده منذ أن تولى المأمون شئون المشرق ، وكان رأسهم (أسد بن سامان) ، الذي اعتنق واده سامان الإسلام وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في أواخر عهد الأمويين [٢] ، وقد خلف أسد هذا أربعة أبناء كلهم كانوا في خدمة المأمون وحكامه في هذه البلاد ، فولي (نوح بن أسد) على سمرقند في سنة ٢٠٤هـ و (أحمد بن أسد) على فرغانة و (يحي بن أسد) على الشاش وأشروسنة ، و (إلياس بن أسد) على هراة ، ولما تولى طاهر بن الحسين على خراسان أقرهم في هذه الأعمال [٣] .

وظل السامانيون في بلاد ما وراء النهر يتعاونون تعاوناً صادقاً مع الطاهريين، ويحمون هذا الثغر الشرقي ، كما شاركوا في الصراع الذي قام بين الطاهريين والصفاريين ، وكانوا يشدون أزر الطاهريين الأمر الذي جعل الطاهريين دائماً يقرون

---

(١) بلاد ما وراء النهر : مصطلح أطلقه المسلمون على منطقة حوض نهري جيجون وسيجون ، وهذه المنطقة خضعت لسيادة القبائل التركية على الرغم من أنها آرية ، وكان جيجون هو الحد الفاصل بين إيران وتوران والاسم الروسي لهذا النهر هو (أمودريا) ، والحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية ، وسمى العرب بلاد ما وراءَ النهر بلاد الهياطلة أيضاً .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣-٤ ، وحسن إبراهيم ، سبق ذكره ، ج٣ ، ص٧٣ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٣-٤ .

السـامانيين في بـلاد مـا وراء الـنهر ، ولما ضعف أمر الدولة الطاهرية واستولى الصفاريون على إقليم خراسان ، قدرت الخلافة للسامانيين إخلاصهم ، فجعلت بلاد مـا وراء الـنهر إقليماً منفصلاً عن خراسان وأقرت عليه السامانيين ، وعينت عليه (نصـر بـن أحمد الساماني سنة ٢٦١هـ) وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة مواليـة لهـا وراء الصـفار ، وكان السامانيون يسدون هذا الثغر من ناحية الشرق ويمدون من نفوذ العالم الإسلامي في جبهتهم .

وابـتداء من ولاية السامانيين على بلاد ما وراء النهر أخذت ظاهرة انسياح الأتـراك في خراسـان والدولة الإسلامية تزداد فكان الأتراك يؤلفون حرس إمارة بخـارى ، وكان يتم استخدامهم على نطاق واسع ، وكانوا يبلغون مراكز قيادية في الدولـة الإسلامية ، وفي عهد المأمون كان أمير خراسان من الطاهريين يقدم لحكومة بغـداد ضريبة على شكل ألفي مملوك تركي ، والذين كانوا يشكلون حرس الخليفة الشخصي ، ولكن قيادة هذا الحرس لم يعهد بها للأتراك في عهد المأمون ولكن ارتقى بعضـهم في عهد أخيه المعتصم لرتبة القيادة ، وكان (أحمد بن طولون) ابنا لمملوك تـركي قدم من بخارى واستطاع أن يؤسس أسرة حاكمة في مصر ، أما (الإخشيد) وهـو عبد تركي من فرغانة فقد تمكن من أن يصبح بدوره مؤسس أسرة في مصر في سنة ٣٢٣هـ [١] وكان يقوم أساس ثروة المدن السامانية الكبرى على تجارة الرقيق ، مثل (مرو) و (نيسابور) و (الري) و (بلخ) و (بخارى) و (سمرقند) ، والتي كانت تـتاجر برقيق الصقالبة الذين كانوا يجلبون إليها عن طريق خوارزم ، والرقيق الهنود عن طريق كابل ، ولا سيما الرقيق الترك الذين كانوا يجلبون بواسطة ثغور الحدود ، وكان يعاد بيع الكثير من هؤلاء العبيد بعج خصيهم أو بعد تدريبهم عسكرياً [٢] .

(١) موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، ص٧١ من الترجمة العربية لعبد الرحمن حميده .
(٢) المرجع السابق ، ص٧١ .

علاقة السامانيين بالخلافة :

والدولـــة الســـامانية تختلف في الطبيعة والتكوين عن الدولة الصفارية ، فإذا كانـــت الدولة الصفارية دولة أسرة عسكرية طامعة في الرياسة والأموال فحسب ، فـــإن الدولـــة الســـامانية كانت دولة إيرانية الروح والاتجاه ، فإن سلاطينها كانوا يزعمون أنهم من أصل إيراني عريق ، وينسبون أنفسهم إلى (بهرام جور) ملك فارس الساساني،وهو أمر معروف مغزاه بطبيعة الحال،وهو أن لهم حقاً في وراثة الملك، وهو ما يقولون عنه بأنه الحق المقدس لهذا النسل في الحكم وليس لأحد أن ينازعهم في هذا الحـــق . ومن ثم كان للسامانيين إحساس إيراني واضح ، فقد جعلوا الفارسية لغة لهم وناصروا الأدب الإيراني،ولكن اللغة العربية كانت لغة الفكر في عصرهم، وبها كتب المفكرون الذين ظهروا في عصرهم وعاشوا في ظلهم،وعاشوا على أموالهم ، وأكبرهم (أبو بكر الرازي) الطبيب ، و (ابن سينا) ولكن الأدب الفارسي ظهر في أيامهم ، فقـــد عـــاش في ظلهم (الفردوسي) [١] ، ولهم ألفَ الشاهنامة بالفارسية وبالفارسية أيضاً كتب (البلعمي) صاحب مختصر تاريخ الطبري[٢] .

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على المودة والساماتيون لم يـــتجهوا بأطمـــاعهم إلى البلاد الداخلية في العالم الإسلامي كما فعل الصفاريون ، وإنمـــا امـــتدوا بنشاطهم إلى المجال الخارجي في الثغر التركي إلى أواسط آسيا ، أما امـــتداد ســـلطانهم إلى الداخل فلم يكن دافعه الطمع وإنما كانوا في الحقيقة يسدون فراغاً حدث على إثر ضعف الطاهريين ، وكانت كل قوتهم مركزة في التركستان وفي

---

(١) هـــو حكـــيم فارسي كان من دهاقين طوس ، له ملك في ضيعة ويظلمه عامل الضيعة ، فذهب إلى السلطان محمـــود بن سبكتكين (الغزنوي) لدفع ظلم العامل ، وانتهى به الأمر إلى أن ينظم له "الشاهنامة" في سبعين ألف بيـــت بالفارسية في تاريخ ملوك الفرس، مشتملاً على الحكم والمواعظ بعبارة فصيحة ، فكافأه عليها ، وقيل أنه نظم بعضها للسامانيين (القزويني ، آثار البلاد، ص٤١٥-٤١٧) .

(٢) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ص٢٣٢-٢٣٣ .

أواسط آسيا ، واستطاعوا أن ينشروا الحضارة الإسلامية والإسلام في تلك البلاد الوثنية ، فدخل على أيديهم عدد كبير في الإسلام ، فصارت تركستان سنداً للإسلام بعد أن كانت مصدر خطر عليه .

وكان السامانيون يدخلون الحرب مع جيرانهم من المسلمين مضطرين إما دفاعاً عن أنفسهم أو دفاعاً عن مصلحة الخلافة وحفاظاً على أملاكها ، ويتبين هذا واضحاً من العلاقات بين السامانيين والصفاريين ، وبينهم وبين العلويين في طبرستان.

فأما علاقتهم بالصفاريين : فإن عمرو بن الليث الصفار بعد أن ولته الخلافة على خراسان طمع في بلاد ما وراء النهر ، وطلب من الخليفة ولايتها ، فأجابته الخلافة مضطرة إلى ذلك وكان بها السامانيون ، فلم يترك عمرو السامانيين بها كما كان يفعل الطاهريون ، وإنما سار إليها ليأخذها منهم بالقوة وكان عليها (إسماعيل بن أحمد الساماني ٢٧٩-٢٩٥هـ) ، فأرسل إليه إسماعيل في سنة ٢٨٧هـ يقول له :

"إنك وليت دُنْيا عريضة ، وإنما في يدي ما وراء النهر وأنا في ثغر ، فاقنع بما في يدك واتركني في هذا الثغر [1] ولكن عمرو بن الليث رفض وسار إليه بقواته فهزمه إسماعيل وأسره في سنة (٢٨٧هـ) وأرسله إلى دار الخلافة حيث حبس حتى مات سنة ٢٨٩هـ ، وبهذا سقطت الدولة الصفارية وعهدت الخلافة إلى إسماعيل بن أحمد الساماني بولاية ما كان في يد الصفار .

وأما علاقة السامانيين بالعلويين : في طبرستان فإن (محمد بن زيد العلوي) طمع في خراسان بعد أسر عمرو الصفار فنهاه إسماعيل وترك له جرجان على ألا يتقدم نحو خراسان ، ولما أبي إلا العداء سار إليه إسماعيل وقتله سنة ٢٨٧ هـ واستولي علي طبرستان وضم قزوين والري ، وبذلك أعاد طبرستان إلي أملاك الدولة العباسية [2] حتى سنة ٣١١ هـ .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج٦ ، ص٩٨ .

وغـــدت بخاري في الواقع هي حاضرة المشرق بأسره في مرو ونيسابور والري وآمـــل وقزوين وأصفهان وشيراز وهراة وبلخ ، وبدأ إسماعيل على توحيد بلاد ما وراء الـــنهر مع خراسان ونجح بسبب ما كان يتمتع به من ملكات إدارية ، وبفضل انتصـــاراته الحربية ، وظهر اتحاد هذه الولايات المشرقية أشد رسوحاً مما كانت عليه من قبل واستمر هذا الاتحاد نحو قرن من الزمان .

وإن بخارى التي اشتهرت أيام الزرادشتيين بأنها "مثابة العلوم كلها " اشتاقت كذلـــك لاســـترداد صيتها القديم في ظل الإسلام وسرعان ما أصبحت تعرف باسم "بخارى الشريفة التقية" وكان النشاط العقلي السائد في ذلك الوقت وقفاً على علوم الدين والذي كان البخاري شيخ المحدثين المسلمين من أعظم رجالها (٢٥٦هـــ) .

ولـــا كان إسماعيل بن أحمد معروفاً بالتقوى ، ورعاية العلماء ، فإن كثيراً من العـــلماء توجهوا إلى بخارى ليستكملوا دراستهم في مدرسة بخارى التي تذخر بالعلوم والمدارس التي أوقف عليها إسماعيل ومن أتى بعده الأوقاف [١] .

ولم يلبث الشعور القومي الفارسي أن نما في ظل السامانيين وخطا أول خطوة لإحـــياء اللغـــة الفارسية وآدابها من جديد ، وانتعش اللسان الفارسي الذي كان في طـــريقه إلى الزوال بعد مضي أكثر من قرنين من الزمان ، وظهر الأدب الفارسي في أيامهم مكتوباً بالحروف العربية ، وظهر الشاعر الفردوسي الذي كتب الشاهنامة في ســـبعين ألـــف بيـــت في تاريخ ملوك الفرس [٢] بالفارسية ، وبالفارسية اختصر الـــبلعمي [٣] تـــاريخ الطـــبري ، لكن العربية ظلت لغة الفكر في عصرهم كتب بها الرازي وابن سينا وغيرهم .

وظل السامانيون مخلصين للخلافة العباسية حتى كان العصر البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـــ) فطمع البويهيون في البلاد التي في أيدي السامانيين ، فاشتبك الطرفان

---

(١) أرمينيوس ، تاريخ بخارى ، ص١٠٦ .

(٢) القزويني ، آثار البلاد ، ص٤١٥-٤١٧ .

(٣) هو محمد بن عبيد الله البلعمي كان وزيراً لنصر بن أحمد الساماني .

في حروب من سنة ٣٥٦هـ إلى سنة ٣٦١هـ وانتهت بصلح بين الأمير (منصور الأول بن نوح الساماني) وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة بن بويه ، ثم تصاهر البيتان وتزوج ابن منصور بابنة عضد الدولة ، وبذلك استقر السلام بين الطرفين[1].

وقــد تعرضت الدولة السامانية لضغط متزايد من كل الجهات فمن الشمال والغرب تعرضت لضغط الديلم والعلويين والبويهيين ، ومن الشرق تعرضت لضغط خانــات الأتــراك الذين دخلوا الإسلام على يد السامانيين ، ثم بدأوا يتطلعون إلى الاســتقلال والحلــول محلهم ، كما تطلع (الغزنويون) الذين كانوا يحكمون المنطقة الجنوبــية الشــرقية مــن طرف السامانيين إلى الحلول محل السامانيين بعد أن بدأت أمورهم تضطرب ، وانتهى الأمر بسقوط الدولة السامانية (٣٨٩هـ) .

وانقسم ملكها إلى قوتين : قوة الغزنويين : التي اتخذت من الثغر الهندي مجالاً لنشاطها ، وقوة خانات الأتراك الذين تولوا أمر الثغر الشرقي في بلاد ما وراء النهر ، وهما من أسرتين تركيتين .

ولقــد أدى السامانيون دورهم من الناحيتين السياسية والحضارية ، أما من الناحــية السياسية : فقد حافظوا على إقليم ما وراء النهر ومدوا النفوذ الإسلامي إلى بــلاد الترك ، وجعلوا من بيئة ما وراء النهر بيئة صقل وتهذيب للعنصر التركي الــذي أســلم مــنه على أيديهم الكثير ، وبدأ يتحول على أيديهم إلى عنصر مفيد بالنســبة للعــالم الإســلامي ، وانبثق منه ذلك الدور الذي هيأ للترك لخدمة العالم الإسلامي في العصر السلجوقي ، والذي سنتحدث عنه فيما بعد .

أما في المجال الحضاري : فقد أقام السامانيون في عصرهم مراكز ثقافية في إقليم ما وراء النهر في (سمر قند) و (بخارى) و (طشقند) وغيرها من مدن ما وراء

---

(١) المصدر السابق ، ج٧ ، ص٤٨ .

النهر ، وكانت هذه المراكز الثقافية عاملاً هاماً في صبغ الترك بالصبغة الإسلامية وتهيئتهم للقيام بدور فعال لصالح العالم الإسلامي في الداخل والخارج .

وكان بلاط السامانيين في بخارى محط رحال العلماء والأدباء ، وكانت لهم (دار الكتب) في بخارى فيها كثير من فروع المعرفة قال عنها ابن سينا بأنها :

"ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة (بعضها على بعض) في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضاً من بعد ، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه " [١] .

وقال ابن خلكان عن هذه المكتبة : "كانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا يُسمع باسمه فضلاً عن معرفته [٢] " .

وقال المقدسي عن إقليم ما وراء النهر في عهدهم :

"إنه أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقيه درجة الملوك [٣] وإن كان المقدسي [٤] لا يفرق بين خراسان وما وراء النهر ويطلق على الإقليمين معاً إقليم المشرق ، فكلامه هنا يشمل خراسان وما وراء النهر في عصر السامانيين .

(١) طبقات الأطباء ، ٢/٢ ، وأحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج١ ، ص٢٦٩ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص١٥٧-١٥٩ في ترجمة ابن سينا واسمه الحسين بن عبد الله بن سينا ، وكان من أهل بلخ انتقل أبوه إلى بخارى واشتغل بالعلوم وتحصيلها .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص٢٩٤ وما بعدها ، وأحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج١ ، ص٢٦٠ .

(٤) المقدسي الجغرافي هو محمد بن أحمد المتوفي ٣٨٠هـ .

وقد أخرجت هذه البلاد ما لا يحصى من رجال الحديث والفقه في عصر السامانيين خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصي البلدان يأخذون العلم من أهله حيث كان ، وكان على رأس هؤلاء الإمام البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري) (٢٥٦هـ) والإمام مسلم وهو (مسلم بن الحجاج القُشيري) (٢٦١هـ) وهو من نيسابور ، والإمام النسائي (أحمد بن علي بن شعيب النسائي) (٣٠٣هـ) وهو من نسا من أعمال خراسان ، وابن ماجه محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (ت٢٧٥هـ) من قزوين في طبرستان وأبو داود (سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني) (٢٧٥هـ) والترمذي (محمد بن عيسى السلمي الترمذي (٢٧٩هـ) من ترمذ من بلاد نهر جيجون .

وهكذا كلما قرأت في كتب المحدثين والفقهاء راعتك كثرة ما ترى منهم ودلالة نسبتهم عليهم : كالبخاري والفارابي والخوارزمي والترمذي والنسائي والسمرقندي والشاشي والنيسابوري والهروي والفرغاني والزمخشري (زمخشر قرية جامعة من قرى نواح خوارزم) والبيهقي والدبوسي (ت٤٣٠هـ) وغيرهم .

التقاليد العسكرية السامانية :

يرجع الفضل في إنشاء نظام عسكري وتربوي للمماليك الأتراك إلى الدولة السامانية ، فقد اعتمدت الدولة السامانية على المماليك الأتراك في جيشها على الرغم من أصلها الفارسي ، ووضعت لهم نظاماً عسكرياً إسلامياً يقوم على التدرج والترتيب في تنشئتهم من أجل اكتساب الخبرة اللازمة في شئون الحرب .

ويحدثنا الوزير نظام الملك الطوسي في كتابه "سياست نامه" (كتاب السياسة) عن هذا النظام العسكري فيقول :

"إن القاعدة المتبعة في تدريب المماليك في عهد السامانيين أنهم يرقون تدريجياً بناء على خدمتهم ولياقتهم وفضلهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه .

بحيـــث أنهم إذا ابتاعوا مملوكاً استخدموه في الركاب سنة وهو راجل فيسير مـــرتدياً قباء من القطن يسمى زندنيجي [١] بجوار سيده الممتطي صهوة جواده ، ولم يكن يؤذن لهذا المملوك في ركوب الخيل طوال تلك السنة إن سراً وإن جهراً ، فإذا نمـــا إلى علمهم أنه يفعل ذلك عوقب ، فإذا أتم المملوك عامه الأول على هذا النحو أخبر عريف الدار بذلك الحاجب .

حينئذ يعطونه في العام الثاني قباء وجواداً تركياً له سرج من جلد خام ولجام من معدن .

وفي السنة الثالثة يقلدونه سيفاً معقوفاً يشده إلى وسطه .

وفي السنة الرابعة يمنح قوساً وكنانة يشدها إذا ركب .

وفي العـــام الخامس يمنح سرجاً أجمل ولجاماً مزيناً بنجوم وكواكب ويخلعون عليه رداء من القطن المخلوط بالحرير يسمى "القباء الداري"[٢] وشد إلى حلقة سرجه دبوساً .

وفي السنة السادسة أمروه بالسقاية مع صاحب الخيل وشد إلى وسطه قدحاً .

وفي السنة السابعة يمنح ثياباً أفخم تسمى ثياب الشرف .

وفي الســـنة الثامـــنة يمـــنح خيمة ذات ستة عشر وتداً ، ويعطونه ثلاثة من المماليـــك ممـــن اشتروهم حديثاً ، وعندئذ يستحق لقب "عريف الغلمان" ويرتدي قلنســـوة مـــن لبد أسود موشى بالفضة ، ويخلعون عليه قباء أفضل من الحرير يسمى "القباء الكنجوي" [٣] .

---

(١) الزندنيجي : قماش من قطن ينسج في زندنه وهي مدينة من أعمال بخارى مشهورة بالملابس القطنية ، سياسة نامة ، ص١٤١ لنظام الملك ، ترجمة د.السيد محمد العزاوي .

(٢) الداري : قماش من القطن المخلوط بالحرير .

(٣) نسبة إلى كنجه في إقليم شيروان على ساحل بحر قزوين ، بجمهورية أذربيجان الآن ، وكانت مركزاً لتجارة الحرير ، (العبادي ، ص١٥٥) .

ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقي عاماً بعد عام ، وتزداد حاشيته تدريجياً ويزداد جاهه إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل وحاجب الحجاب .

ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج ، وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين [١] .

ويلاحظ أن هذا النظام التربوي العسكري السامالي كان الأساس الذي سار على منهاجه بعد ذلك عدد كبير من الدول الإسلامية مثل الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية وكان نظام الملك الطوسي وزيراً للسلاجقة في عهد السلطان ملكشاه وكتب له كتابه (سياست نامه) سنة ٤٨٤هـ باللغة الفارسية على هيئة نصائح وحثه على الأخذ بنظام السامانيين في بناء الجيش [٢] وما كان متبعاً على أيامهم في تنشئة المماليك تنشئة عسكرية قاسية ، وظل هذا النظام متبعاً أيام السلاجقة والأتابكة والأيوبيين الذين نقلوه إلى مصر والشام ، وزاد فيه (الصالح نجم الدين أيوب) آخر السلاطين الأيوبيين في مصر ، وتمخض عن قيام دولة المماليك المصرية الذي تبلور وازدهر فيها النظام بشكل راسخ متين مكنها من صد الزحف المغولي ، والانتصار على المستعمر الصليبي [٣] .

ولقد كان لهذا النظام العسكري أثره في الحياة المصرية في شتى المجالات ، وظل هذا الأثر إلى العصر الحاضر وكان يلاحظ في شئون الزراعة لدى الباشاوات الذين هم من أصل مملوكي أو تركي .

---

(١) نظام الملك ، سياست نامه ، ترجمة د. السيد محمد العزاوي ، ص١٤٠-١٤١ وأحمد مختار العبادي ، ص ١٥٤-١٥٥ .

(٢) انظر أيضاً في نظام نشأة المماليك في بلاط السامانيين كتاب : بارثولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ص٣٥٥ نقله إلى العربية من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

(٣) أحمد مختار العبادي ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥٥

الدولة الطبرية الزيدية (٢٥٠-٣١٦هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى إقليم جغرافي هو طبرستان ، وإلى مذهب من المذاهب الشيعية وهو المذهب الزيدي .

أما نسبتها إلى طبرستان : فترجع إلى قيام الدولة والحركة الزيدية في هذه المناطق الجبلية المنيعة التي تقع جنوب شرق بحر قزوين ، وتفصل هضبة إيران العالية عن بحر قزوين ، و (طبر) في لغة تلك البلاد معناها الجبل ، و(ستان) بلاد ، فطبرستان بذلك معناها : بلاد الجبل ، ويطلق على هذا الإقليم أيضاً ألْبرز [1] ومعناها في الفارسية الجبل العالي ، ويطلق على هذا الإقليم أيضاً اسم (مازندان) ، وقمم جباله لا يفارقها الثلج في جميع فصول السنة .

وكان هذا الإقليم آخر جزء من أجزاء الدولة الساسانية قبل الإسلام ديناً ، وقد بدأ اتصال المسلمين به منذ خلافة عثمان بن عفان ، وظل ملوك هذا الإقليم مستقلين في بلادهم زمناً طويلاً ، ويضربون نقودهم وعليها الرموز الفهلوية حتى منتصف المائة الثانية ، كما ظل الدين المجوسي يهيمن على غابات الجبال في هذا الإقليم ، وعاصمة هذا الإقليم (آمل) وهي التي ولد بها المؤرخ الكبير (محمد بن جرير الطبري) [2] .

وأما نسبتها إلى الزيدية : فترجع إلى أن هذه الدولة كانت تحت زعامة أئمة الزيدية ، فقد بدأ أهالي هذا الإقليم يدخلون الإسلام على المذهب الزيدي في إقليم طبرستان إلى هذه الفترة المبكرة من دخولهم الإسلام وذلك عندما فر (يحي بن عبد الله بن الحسين) أخو محمد النفس الزكية من وجه العباسيين عقب معركة فخ

---

(١) يلاحظ التقارب الفظي بين لفظة (ألْبرز) هذه ولفظة (ألبرت) التي تطلق على جبال البرانس بين فرنسا وأسبانيا مما يدل على أن أصلهما واحد .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٧-٥٨ ، وانظر أيضاً : كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٠٠-٤١٧ ، وحسن محمود : ص٤٨١ .

سنة ١٦٩هـ إلى منطقة طبرستان ، ومنذ هذا التاريخ بدأ الإسلام يدخل هذه البلاد على يد الشيعة الزيدية .

وظلت منطقة طبرستان وبجوارها منطقة الديلم قبلة لهجرات الزيدية إليها ، وصار أهل هذه النواحي يدافعون عن المبادئ الشيعية بصفة عامة وعن مبادئ الزيدية بصفة خاصة وقد وجد الزيدية في جبال طبرستان المنيعة ملجأ لهم فلم يستطع الطاهريون والسامانيون والصفاريون إلحاق هزيمة حاسمة بهم [١] .

والزيدية (هم أتباع زيد [٢] بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يقولون بأن الإمامة في أولاد فاطمة بصفة عامة ، فكل فاطمي عالم شجاع سخي خرج يطلب الإمامة ، فطاعته واجبة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين،وعلى هذا جوزوا إمامة محمد وإبراهيم إبنا عبد الله بن الحسن الذين خرجا أيام المنصور وقتلا كما جوزوا إمامة أخيهما يحي الذي فر إلى طبرستان وهو يحي سالف الذكر وجوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الشروط ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة .

والزيدية لا يتبرأون من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر مع قولهم بأن علياً أفضل منهما ، أي أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل على عكس الإسماعيلية والإثنى عشرية فهم يرفضون إمامة الشيخين .

وفي منتصف القرن الثالث الهجري أضحت بلاد طبرستان والديلم [٣] شيعة زيدية يدافعون عن دعاة الزيدية ، ولم يبق أمامهم إلا أن يختاروا أحد العلويين ليكون

---

(١) كي لسترنج ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٠٤/ ٤١٧ .

(٢) قتل (زيد بن علي) بالكوفة عندما خرج على الأمويين سنة ١٢٢هـ . ثم قتل ابنه يحي بالري سنة ١٢٥هـ ويذكر القزويني أن أهل الري من الشيعة يكرهون هرسورين لأن جثة يحي بن زيد غسلت فيه فلا يقربونه وقيل غسل فيه السيف الذي قتل به يحي .

(٣) بلاد الديلم في جنوب بحر قزوين وتعرف ببلاد جيلان وطالقان واشتهرت هذه البلاد في التاريخ بكونها موطن بني بويه الديالمة وقد تأثر هذا الإقليم بالزيدية، ويقع في شرقه إقليم طبرستان وفي المائة الرابعة=

إمـــامهم ورئيساً لحركتهم فاتصلوا بالعلويين الموجودين (بالري) [1] فنهض لرياستهم علـــوي مـــن الري هو (الحسن بن زيد) بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحســـن بـــن علي بن أبي طالب ويعرف بالداعي العلوي ، فرأس ثورتهم ، وقامت بثورته هذه دولة زيدية في طبرستان تعرف بالدولة الطبرية الزيدية سنة ٢٥٠هـــ .

واستطاع الحسن بن زيد هذا أن يحتل مدينة (آمل) عاصمة طبرستان ثم مدينة (سارية) وانضم إليه أهل جبال طبرستان وما يليها من بلاد الديلم ، وما زال يتوسع حـــتى ضم إليه (قزوين) أيضاً و (جرجان) ، وكان العلويون منبثين في هذه المناطق ، وكانوا يظهرون عندما تتقدم الجيوش الطبرية وبذلك تقع القوات الطاهرية بين نارين فتضطر إلى التراجع ، وقد أقام الزيدية كثيراً من القلاع المنيعة بهذه الجبال العالية .

ولم يستطع الطاهريون أصحاب الشأن في هذه المناطق أن يتصدوا لهذه الدولة الناشـــئة ، وذلك لانهماكهم بدفع الخطر الصفاري ، كما أن الخلافة كانت مشغولة بحركة الزنج ، فلم يكن في إمكان الخلافة أن ترسل قوات قوية لمساعدة الطاهريين أو القضاء على الحركة الزيدية .

وقـــد توفي الحسن بن زيد سنة ٢٧٠هـــ بعد أن تدعمت دولته وخلفه أخوه (محمد بن زيد) ، وفي عهد محمد واجهت الدولة الطبرية عداء الصفاريين وأطماعهم من الجنوب كما واجهت الدولة السامانية من الشمال والشرق ، ولما نجح (إسماعيل بـــن أحمد الساماني) في القضاء على (عمرو بن الليث الصفار) سنة ٢٨٧هـــ وأسره وبعـــث به إلى الخليفة طمع محمد بن زيد في خراسان ، فنهاه عنها إسماعيل وترك له

=أصـــبحت أقاليم طبرستان وجرجان وقومس داخلة ضمن إقليم الديلم ، وقصبة بلاد الديلم (روذبار) أو (براون) ولا أثر لها الآن (كي لسترنج) .

(١) الـــري عاصـــمة إقليم الجبال في إيران وكانت على مقربة من طهران الحالية وزارها ياقوت سنة ٦١٧هـــ فرآها قد ضربها المغول ، ويذكر أن أهلها كان نصفهم شيعة والباقي سنة وكانت الحروب دائمة بين أهلها بسبب ذلـــك . ولما خربها المغول، قامت على مقربة منها طهران وأخذت مكانها ، وكانت قبل أن تصبح عاصمة للقاجار قرية من قرى الري .

جـــرجان ، فلم يقبل محمد بن زيد فوقعت الحرب بينهما ، وقتل على أثرها محمد بن زيد سنه ٢٨٧هـــ و صارت طبرستان وجرجان مرة أخري في ملك السامانيين حتى سنه ٣٠١هـــ .

وقـــد نجا من المعركة التي قتله فيها محمد بن زيد شخص من أهل بيته يسمى (الحســـن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر) بن زيد العابدين ، ويلقب (بالناصر) ويعـــرف (بالحســـن الأطـــروش[1]) ، وقد تركزت جهود العباسيين وأنصارهم بعد سقوت الدولة الطبرية على تعقب الناصر ومطاردته ولكنه نجح في الإفلات منهم إلي بـــلاد الديلم ومنها قاد عدة حملات عسكرية تهدف إلى استعادة طبرستان ، وتصور المصـــادر الإسلامية الحسن الأطروش في صورة الرائد الأول الذي نشر الإسلام بين الديالمـــة [2] ويبدو أن المصادر الإسلامية أعطته هذا الدور نظراً للأعداد الهائلة التي اعتنقت الإسلام بفضل جهوده ، وهذا لا ينفي بالضرورة جهود السابقين له في مجال نشـــر الإســـلام [3] ، وقـــد مكث الحسن الأطروش ١٣ سنة يجاهد في بلاد الديلم وطبرســـتان ويعـــيد تجمـــيع الزيدية من جديد ويدعو إلى الإسلام في هذه المناطق ، فاجتمع حوله خلق كثير وبنى فيهم المساجد وقوي شأنه بهم فدخل بهم في صراع مع عامل الدولة السامانية ، وبعد حروب طويلة وكفاح نجح بفضل شجاعتهم في إعادة طبرستان إلى الزيدية مرة أخرى سنة ٣٠١هـــ وشيد بها كثيراً من القلاع المنيعة .

ويـــثني الحســـن الأطـــروش على (شجاعة الديلم) وقوة عقيدتهم وحماستهم وإقدامهم لنصرة الإسلام فيقول في إحدى خطبه :

---

(١) يقـــال إنه لقب بالأطروش لأنه كان قليل السمع أي أنه كان يعاني من ضعف سمعه . (د.حسين مؤنس مـــن مقال له في مجلة أكتوبر حول تنقية أصول التاريخ الإسلامي، رقم ١٩ ضمن سلسلة مقالات ، العدد ٦٧٠ ، الأحد ٢٧ أغسطس آب ١٩٨٩م .

(٢) المسعودي ، ج٤ ، ص٣٧٣-٣٧٥ .

(٣) حامد غنيم ، انتشار الإسلام حول بحر قزوين ، ص١٢٩-١٣٠ .

ثم قاموا بنصرتي وناصبوا آباءهم وأبناءهم وأكابرهم الحرب في هواي واتباع أمـــري في نصرة الحق وأهله ، لا يولي أحد منهم عن عدوه ولا يعرف غير الإقدام ، فلو لقيت منهم ألف جريح لم تر مجروحاً في قفاه وظهره ، وإنما جراحهم في وجوههم وأقدامهم ، يرون الفرار من الزحف إذا كان معي كفراً ، والقتل شهادة وغُنْماً [١]".

وتـــوفي الحســـن الأطروش سنة ٣٠٤هـــ وظلت الإمامة في عقبه حتى سنة ٣١٦هـــ .

الدولة الزيارية : وآل الحكم بعد سنة ٣١٦هـــ إلى دولة زيدية لا إمام لها وهـــي الدولـــة الزيارية التي أسسها (مرداويج بن زيار) سنة ٣١٦هـــ ، والياً على الكـــرخ الواقعة في جنوب همذان ، وكان بويه والد على رئيس قبيلة مقاتلة في جبال الديلم ، وفي سنة ٣١٨هـــ التحق بخدمة مرداويج [٢] .

وكان الدور الذي قامت به الدولة الزيارية يختلف عن الدور الذي قامت به الدولة الطبرية ، فإن الدولة الطبرية كانت دولة زيدية غير معترفة بالخلافة العباسية ، ولهذا فإنها اقتطعت لنفسها قطعة من الأرض وأرست فيها قاعدة الهجرة الديلمية في الشمال وأنشأت حكومة قوية تشمل طبرستان وجرجان والديلم ودافعت عنها ضد الخلافة العباسية أو القوات الموالية لها من الطاهريين ثم السامانيين [٣]، فكانت لذلك علاقتها بالدولة العباسية علاقة عداء ، أما الدولة الزيارية فإن دورها كان عبارة عن توســـيع هـــذه القـــاعدة ، فمدت خط الهجرة الديلمية نحو الجنوب واستولت على أصفهان والري ونهاوند وهمذان ، وهذا الإقليم هو المعروف بإقليم الجبل أو الجبال ، ومـــع كونهـــا دولـــة شـــيعية زيدية المذهب ، إلا أنها استغنت عن الإمامة الزيدية ، واتصلت بالخلافة العباسية واعترفت بها ، وقبلت التقليد من الخليفة العباسي .

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٢ .

(٢) ينحدر مرداويج من أسرة حاكمة قديمة في هذه المنطقة .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٢٩-٣٤ .

والدولـــة الـــزيارية هي التي مهدت تمهيداً قوياً لامتداد الهجرة الديلمية إلى مركـــز العـــالم الإسلامي بالعراق ، وهي الهجرة التي تولاها البويهيون ، فإن الدولة البويهية التي تفرعت عن الزيارية هي التي تقدمت بأمواج الهجرة نحو الجنوب [١] .

وبعد القضاء على الدولة الزيارية سنة ٤٧٠هـــ في طبرستان والديلم استولى عـــلى كثير من قلاعهم الحسن الصباح من الإسماعيلية وكانت نحو خمسين قلعة على قمـــم الجـــبال وأمـــنعها قلعـــة (ألموت) وهي عاصمتهم وقد خربها المغول واتخذها الصفويون في القرن العاشر الهجري سجناً في أيام سليمان الصفوي ، و(قلعة ألموت) عـــلى ســـتة فراسخ من قزوين وفي سنة ٤٨٣هـــ صارت ألموت في حوزة (الحسن الصباح) الملقب بشيخ الجبل ، ولبثت هذه القلعة بعد ذلك مائة وإحدى وسبعين سنة أمـــنع حصـــون الإسماعيلية ثم استولى هولاكو خان المغول عليها وأمر بتخريبها سنة ٦٥٤هـــ وبعـــد سقوطها سرعان ما انهارت مقاومة قلاع الحشيشية الواحدة تلو الأخرى [٢] .

(١) حسن محمود ، ص٤٨٦-٤٨٨ .

(٢) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٥٥-٢٥٧ .

المغول (الإلخانيون) في فارس

نشأ المغول في بداية أمرهم كشعب بدوي في منطقة منغوليا وكانوا ينتجعون مواطن الماء والكلأ في القسم الشمالى من صحراء غوبى الواقعة في منغوليا ، ويعيشون على الصيد والقنص ويتغذون باللحم ولبن الخيل ، وكانوا في بداية أمرهم خاضعين للصين . حتى ظهر من بينهم قائد قوي هو جنكيزخان المولود في سنة ٥٤٩هـ ١١٥٥م .

وترجع قوة جنكيز خان العسكرية الى الجيش الذى كونه بنفسه وقضى به على الثورات الداخلية خلال ثلاثين عاما ووطد حكمه في قبائله والقبائل المجاورة حتى بسط سلاطانه على جميع القبائل القاطنة شمالى صحراء غوبى في أقصى شرق منغوليا ونصب نفسه " الملك الأعظم " أو " ملك الملوك " سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٦م) في مجلس رؤساء القبائل ، في (قره قزرم) عاصمة المغول ومعناها " الرمال السوداء " وذكر أن السماء هى التى أضفت عليه هذا الاسم ، وكان اسمه قبل ذلك " تموجين " وكان يومئذ في الواحدة والخمسين من عمره و وضع لشعبه دستوره المعروف (باليساق) .

وفي سنة ٦٠٧هـ (١٢١١م) شرع في فتح الصين ، وبعد فتح الصين انطلقوا لفتح تركستان الشرقية وأصبحوا على حدود دولة خوارزمشاه الإسلامية القوية التي تعرضت بدورها لهجماقم وتبين أنهم أضعف من المغول ، ثم انطلقوا إلى خراسان وأفغانستان وأذربيجان والكرج وجنوب روسيا .

وفي أثناء هذه الفتوح توفى جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م عن اثنين وسبعين عاما ، وكان قد وزع على أولاده الأقاليم التي فتحها وعين عليهم ابنه الثالث أوكتاى أو (أوغداى في نطق آخر) خانا أعظم مكان والده.

وقد عرف تاريخ آسيا أربع إمبراطوريات مغولية كبرى هي المعروفة بإمبراطوريات بلاد الأعشاب :

الأولى : هي إمبراطورية جنكيزخان سالفة الذكر التي نشأت في صحراء جوبي والأراضي الممتدة منها إلى صحراء منغوليا ثم غزا بلاد الصين وأتجه إلى منطقة خوارزم الإسلامية .

الثانية : إمبراطورية مغول القبلية الذهبية أو مغول القفجاق والفلجا .

الثالثة : إمبراطورية قوبلاى خان في بلاد الصين وكان بها الخان الأعظم ، ومنها أنطلق (هولاكو) وغزا بغداد وأزال الخلافة العباسية وأنشأ إيلخانية فارس وتقدم شرقا فغزا حلب وشمال الشام وخرب دمشق ولكن قائده كتبغا إنهزم أمام قوات المماليك في معركة (عين جالوت) سنة ١٢٦٠م .

الرابعة : إمبراطورية تيمورلنك وهى التي قامت سنة ١٣٦٠م وهو يزعم أنه حفيد جنكيزخان وكان مسلماً إسلاماً ظاهرياً ولكنه كان على طريقة جنكيز خان في الإرهاب والتدمير وغزا الدولة العثمانية وغزا الهند أيضا وبلاد إيران [١] .

وإذا كـــان المغـــول قـــد تغلبوا العالم الإسلامي عسكريا فإن المسلمين غلبوهم عقائديـــا وحضاريا وتلقف المغول الإسلام وخدموه بعدما أذلوه،لكن هذا أخذ وقتا طويـــلا وجهـــدا من دعاة المسلمين وتنافس أتباع الديانتين المسيحية والإسلامية في اجتذاب المغول إلى دينهم ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالوثنية وتركوا التخريـــب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ظهروا بمظهر التسامح مع أهـــالي الديـــانـــات الأخـــرى .

يطلـــق على كل حاكم من حكام المغول في إيران (إيلخان) ، وتدل على أن حاملها داخل في الطاعة التامة للقا آنات ومدين لهم بالولاء ، وقيل للأســـرة كـــلها

---

(١) دكتور حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص ٢٤١ .

"الإيلخانيون" ، وتنسب إلى مؤسسها أحياناً فيقال "الهولاكيون"

وكانت الإمبراطورية التي أسسها هولاكو تضم بجانب العراق وإيران إمارات الجزيرة والأناضول والممالك المسيحية بجنوب القوقاز في أرمينيا وجورجيا ، وتمتد من نهر جيحون إلى البحر المتوسط ، ومن القوقاز إلى المحيط الهندي ، وقد سمى هولاكو نفسه بالخاقان الكبير (خاقان بزرك) ، وحكمت أسرة هولاكو داخل هذه الحدود حكماً مستقلاً استقلالاً تاماً زهاء قرن من الزمان ، وكان الإيلخانيون يحرصون على أن يقتدوا بولاة إيران القدماء في حبهم للعلوم والفنون ، وكان هولاكو يقيم في "تبريز" عاصمته بعد فتحه بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وذلك أن أذربيجان كانت تسكنها قبائل من أصل تركي من قرون مضت قبل الغزو المغولي ، وهذه القبائل تغلغلت وسط السكان الأعاجم ، وقدمت ابتداء من القرن التاسع الميلادي الإمدادات العسكرية للخلفاء العباسيين في بغداد ، وكان أكثر من نصف جيش هولاكو يتألف من الأتراك الذين احتذبتهم تلك المنطقة اجتذاباً كلياً ، وأصبحت العاصمة تبريز حيث استقر الخان ، واستفاد الإيلخانيون من العلوم الإسلامية والعربية وذلك بتشجيع هذه العلوم أو على الأقل بعدم وضع العراقيل أمام انتشارها [٢].

ديانة هولاكو وخلفاؤه :

كان هولاكو يميل إلى البوذية ، وقد استقر في بلاط هولاكو عدد من الكهنة البوذيين ، وهذا الدين قد أخفق في مد جذوره وتثبيتها في آسيا الغربية ، لكنه أصبح مألوفاً للمغول في الصين ، ولما كانت زوجة هولاكو قد اعتنقت الديانة المسيحية كان الإيلخان غالباً ما يشترك في الأعياد المسيحية بنفسه ويحضر القداس ، وقد سمح ببناء كنيسة صغيرة في البلاط الملكي ، وأوقف الأوقاف لمصلحة الكنائس ، كما فضل المسيحيين على المسلمين في المعاملة ، وقد تمتعت الطوائف المسيحية الأخرى وهي

---

(١) لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ج٢ ، ص٤٨٠ .

(٢) بارتولد ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص٥٨ .

السريان واليعاقبة والأرمن وإلى حد ما الأرثوذكس في جورجيا بعطف الحاكم أيضاً . فقد تضاعفت أبرشياتهم (كنائسهم) ، وزاد نفوذهم وتعاظم ، وأصبح لهم الحق في السير في مواكبهم علناً ، وأن يؤسسوا كنائسهم وأديرتهم ويوسعوها ، بينما لم يكن المسلمون يجاز لهم مثل هذه الأعمال ، وتوفي هولاكو سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) .

وقد تنافس المسلمون والمسيحيون لتحويل المغول إلى دينهم ، وكانت عامة المغول تدين بالديانة الشامانية التي كانوا يعبدون فيها آلهة شريرة ، وكانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا ، رغم اعترافهم في نفس الوقت بإله واحد عظيم قادر لا يؤدون له الصلوات ، وكانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم ، ولم يكن دينهم يستطيع مقاومة الإسلام الذي يملك قوة الإقناع على يد دعاته [١] .

وتنافس أتباع المسيحية والإسلام لتحويل المغول إلى دينهم ، وكان السبق في البداية للمسيحية بسبب أن "جنكيز خان" تزوج من إحدى بنات رئيس قبيلة مسيحية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال ، على حين تزوج ابنه "أقطاي" من نفس الأسرة ، وكانت القوى المسيحية في الشرق والغرب تتطلع إلى المغول لمساعدتها في حروبها الصليبية مع المسلمين ، وكان ملك أرمينيا "هيتون **Hayton** " المسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع المغول بإرسال الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٦٥م) ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا الدين المسيحي ، وتبادل الخان الأعظم والبابا الرسائل الودية ، وكان البابا يحث زعماء المغول على التحالف من أجل القضاء على الإسلام [٢] .

ولكن ظهور الاختلافات الدينية المسيحية بين اللاتين والإغريق والنسطوريين والأرمن ، وامتدادها إلى معسكر المغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلاً في إحراز نجاح

---

(١) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٥٠-٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٥٤ ، وبارتولد ، مرجع سبق ذكره ، ص٥٨-٥٩ .

أكبر من ذلك النجاح ، وبينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح ، وبينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها ، كان الإسلام يوطـــد قدمه بين المغول ، وكانت "البوذية" قد أحرزت تقدماً في مجال المغول الذين دخلـــوا الصين ، وبذلك أخفقت حركة التبشير التي قامت بها الإرساليات المسيحية بـــين المغول ، هذا بالإضافة إلى سلوك دعاة المسيحية الأخلاقي الذين كانوا يشربون الخمـــر ويتصـــفون بالجشع والفسق ، وكان القساوسة يتاجرون بالمناصب الدينية ، ويجمعـــون الـــثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة ، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين .

وقـــد ارتفـــع شأن الشيعة على السنة ، ولم يتورع الشيعة عن الاستفادة من نهب بغداد غداة سقوطها في يد المغول ، وذلك لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبين أهل السنة ، وبدأوا يبنون لأنفسهم تنظيمات خاصة ، وينشطون في نشر عقيدتهم بين أهل السنة الذين كانوا يتفوقون عليهم عددياً .

وبعـــد هولاكـــو حكـــم أخوه "أباقاخان" (٦٦٣-٦٨٠هـــ) (١٢٦٥-١٢٨١م) الذي تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية مع أنه لم يتخذ المسيحية دينا له ، لكـــن امتلأ بلاطه بالقساوسة من المسيحين ، وكان يراسل "لويس" ملك فرنسا و "شـــارل" ملـــك صـــقلية ، وغيرهم من المسيحيين يطلب إليهم التحالف معه ضد المسلمين [١] .

لكـــن أخـــاه "تكـــودار أحمد" الذي حكم بعده (٦٨٠-٦٨٣هـــ) اعتنق الإسلام ، وبعث بنبأ إسلامه إلى سلطان مصر المملوكي "المنصور قلاوون" ، والتمس محالفة مصر [٢] ، وقد قامت ثورة في وجه تكودار أحمد على رأسها ابن أخيه أرغون الـــذي دبر قتله ، ثم خلفه على عرش فارس وما حولها ، وفي أثناء حكم أرغون

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٠ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج٨ ، ص٦٥-٦٨ .

(٦٨٣-٦٩٠هـ) استرد المسيحيون مكانتهم ولقي المسلمون الاضطهاد ، ومنعوا من شغل الوظائف الهامة التي كانوا يشغلونها ، وظل خلفاؤه على وثنيتهم حتى دخل "غازان" (٦٩٤-٧٠٣هـ) في الدين الإسلامي في سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٥م) وجعله دين الدولة الرسمي في فارس ، فتشجع رجاله واعتنقوا الدين الإسلامي ووزع المنح عليهم وزاد في عدد المساجد ، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي ، ويذكر ابن بطوطة في رحلته أن سيرة ذلك الملك كان لها تأثير كبير في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس وتوابعها [1] ، وبقي جميع حكام إيران الذين أتوا بعده من المغول مخلصين لهذا الدين .

وعندما أصبح "غازان" مسلماً كان عليه أن يختار إما أن يكون من أهل السنة أو من الشيعة ، فاختار أهل السنة ، وهذا هو المذهب الذي اعتنقه جميع أفراد الشعب تقريباً ، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح ، ولم يظهر أي تعصب أعمى كان يتسم به أهل السنة غالباً في معاملتهم للشيعة في خلال التاريخ الإسلامي ، ويقول بارتولد بأن غازان أتبع ذلك الموقف المغولي القديم وهو "عش ودع الآخرين يعيشون" [2] .

ولكن الحقيقة أن "غازان" كان في داخله يضمر الصداقة والحب للشيعة رغم إعلانه نفسه من أهل السنة ، فقد كان يؤيد بنشاط كثيراً من المؤسسات الشيعية ويزور عتبات كربلاء المقدسة ، وكان هذا في الغالب سياسة منه كحاكم عليه إرضاء الجميع .

غير أن وضع البوذيين أصبح مهدداً باعتناق غازان للإسلام ، إذ أن نسبة كبيرة من المغول قد اعتنقوا الإسلام وتبعهم غيرهم ، وهكذا لم تعد ترتفع أية قوة لتأييد ودعم البوذية ، فقد حولت المعابد البوذية إلى مساجد وأعيدت الأملاك

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص٥٧ ، وتوماس أرنود ، ص٢٦٥ .

(٢) العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص٧٢ .

الإســـلامية إلى أصحابها ، وقد جُرِّد الكهنة البوذيين الذين لم يبق منهم إلا القليل في الـــبلاد من امتيازاتهم السابقة ، وأما المسيحيون فقد نالهم قسط من العذاب إذ كان علـــيهم أن يكفـــروا عما جنت أيديهم من التجاوزات بتحمل الاضطهاد على أيدي مواطنيهم المسلمين ، وهذا رد فعل طبيعي ، وانتهى نفوذ البطريرك النسطوري "يابها لاها الثالث" في البلاط ، وأودع هذا البطريرك في السجن ردحاً من الزمن [١] .

وتوفي غازان سنة ٧٠٣هـــ (١٣٠٤م) وهو في الحادية والثلاثين من العمر ، ويعد أهم حاكم مغولي حكم إيران بعد هولاكوا ، وتولى بعد غازان أخوه "أولجاتيو" الـــذي اتخذ لنفسه اسماً إسلامياً إيرانياً هو (خدابنده محمد) وكان مسيحياً في صباه ، وقد اهتم بالعلوم وعلى الأخص التاريخ ، لأن التاريخ من العلوم التي تخدم الحكام في إعـــلاء شأنهم ، ومن أهم الكتب التي ألفت بعنايته وعناية أخيه غازان كتاب :"جامع الـــتواريخ" الـــذي ألفه الوزير رشيد الدين فضل الله ، وهو من أشهر رجال الإدارة المغولـــية ، وكتب كتابه هذا بالفارسية والعربية في الوقت نفسه [٢] ، وقد اعتمد فيه على السجلات المغولية ، وبه معلومات مفصلة عن تلك الفترة من تاريخ إيران .

وفي ســـنة ١٣٢٠م (٧١٠هـــ) تحول خدابنده محمد إلى المذهب الشيعي ، وزاد عدد الشيعة في إيران في تلك الفترة وفي بلاد ما وراء النهرين ، وتحسن وضعهم ، وتـــوفي سنة (٧١٦هـــ) ١٣١٦م ، فتولى بعده ابنه أبو سعيد الحكم ، وأعاد نفوذ أهل السنة والجماعة ذلك المذهب الذي اعتنقه هو ورجاله ، وهو أول حاكم مغولي يحمل اسماً إسلامياً عربياً ، وكان قاصراً ، وفي أوائل سلطنته أخذت دولة الإيلخانيين في الانهـــيار ، وذلـــك بسبب تدخل كثير من الأمراء والقواد والوزراء في الحكم ، وتـــوفي أبـــو سعيد سنة ٧٣٦هـــ (١٣٣٥م) ، وبعد موته وقعت الدولة في مشاكل

---

(١) المرجع السابق ، ص٧٣ .

(٢) نشر هذا الكتاب بالفارسية في ثمانية مجلدات ، المرجع السابق ، ص٧٥ .

وعدم الاستقرار ، وهي فترة الخانات المتخاصمين استمرت حتى سنة ٧٣٧هـ [١] ، وزالت بعدها دولة الإلخانيين .

ثم تولى الحكم في إيران والعراق الجلائريون سنة ٧٣٧هـ وظلوا يحكمون حتى سنة ٨١٤هـ (١٤١١م) ثم خلفهم حكام من التركمان حتى اجتاح تيمور لنك إيران والعراق سنة ٧٨٦هـ وحكم هو وأولاده وأحفاده زهاء قرن من الزمان حتى مطلع القرن العاشر الهجري حيث ظهر إسماعيل الصفوي ، واستولى على إيران والعراق من يد التيموريين والتركمان وغيرهم من الدويلات ، وأسس الدولة الصفوية سنة ٩٠٧هـ [٢] .

العراق تحت حكم المغول الإيلخانيين

حكم المغول الإيلخانيون في العراق من سقوط بغداد ٦٥٦هـ حتى سنة ٧٣٦هـ ، وتلقب هولاكو بعد دخوله بغداد بلقب "إيلخان" ، أي الخان الكبير ، وصار هذا اللقب وراثياً ، وأصبحت العراق تحت حكم الإيلخانيين ولاية مثل أي ولاية من الولايات التي كانت تخضع للمغول ، وكانت "تبريز" في أذربيجان هي العاصمة .

وكان الإيلخان يوجد في "تبريز" ويولي ولاة له في بغداد ، وكان الوالي يلقب بلقب "صدر" و "صدر الديوان" ، وكان يتمتع بسلطات واسعة حيث يمثل شخص الإيلخان ويقدم الأموال المقررة إلى خزانة السلطان في تبريز ، وقد عم الفساد الإداري ولاية العراق في هذه الفترة ، وزادت المصادرات .

---

(١) لين بول ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٤٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٥٢١ .

ما عدا فترة السلطان "محمود غازان" الذي اعتنق الإسلام (٦٩٥-٧٠٤هـ) وهو الذي شق الترع للري بين دجلة والفرات ، وأنشأ المدارس لدراسة العلوم الإسلامية في تبريز ، وأنشأ الأوقاف للفقراء والمساكين .

ونظراً لأن "هولاكو" دمر الحياة الزراعية في العراق بتخريبه للسدود والأنهار ، وتعذر إصلاحها ، فالأنهار أصبحت مطمورة بسبب تكاثر الطمي الذي كون ما يعرف في العراق بالبطائح (المستنقعات) التي تنمو فيها الغابات من البوص والغاب أو ما يسمى أحياناً بالقصب ، ويطلق على هذه الغابات الصغيرة المحاطة بالمياه الكثيرة "الأهوار" (١) ، وكان هذا سبباً في ضعف النشاط الزراعي ، وقد تسبب هذا أيضاً في مشاكل للعراق الحديث وتحتاج إلى جهود مضنية للتغلب عليها (٢) ، وقد انتهت فترة الإيلخانيين سنة ٧٣٦هـ .

وتولى الحكم بعدهم "الجلائريون" الذين حكموا سنة ٧٣٦هـ ، وتولى أول حاكم منهم سنة ٧٣٦هـ ، وهو حسن بن حسين ، فاستقل بالعراق وجعل بغداد عاصمته ، وكان الجلائريون يتبعون المذهب الشيعي ، وتعرضت العراق في هذا العصر لعاصفة مغولية أخرى قادها "تيمورلنك" أحد القواد المغول الكبار الذي ظهر على أسوار بغداد سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) ، ونجح في اقتحامها سنة ٨٠٤هـ ، ونالها من التدمير شيء كثير ، فأعاد الخراب الذي سبق أن قام به هولاكو ، ولم يستطع آخر حكام الجلائريون الصمود وهو أحمد ، ففر إلى مصر لاجئاً لدى السلطان برقوق سنة ٨٣٥هـ .

---

(١) الأهوار جمع هَوْر ، والهَوْرَ : بحيرة يفيض فيها ماء غياض تتسع ويكثر ماؤها . انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان .

(٢) د. أحمد شلبي ، مرجع سبق ذكره ، ج٧ ، ص ٧٥٧-٧٦٢ .

العراق تحت حكم التركمان :

التركمان قبائل أصلها من تركستان الغربية ، وكان جَدُّ هذه الأسرة يعمل في خدمة "أويس بن حسن الجلائري" وبعد وفاة أويس سنة ٧٧٦هـ استولى جدهم وهو "بيرام خواجة" على الموصل وبعض المناطق المجاورة لها وأصبح حاكماً حتى وفاته ٧٨٢هـ .

وكانت هذه القبيلة تعني بتربية الخراف السود ، ولذلك تعرف بالـ "قراقويونلو" ، أي الخراف السود ، فسميت بذلك والتصقت بها هذه التسمية ، وكانت "تبريز" عاصمة لهم ، وبغداد عاصمة تابعة لولايتهم العراقية التابعة لهم ، وقد حكمت هذه الأسرة بغداد حتى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) ، وانقرضت باستيلاء فصيلة أخرى من التركمان على العراق بزعامة أوزون حسن (أي حسن الطويل) ، سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) ، وكانت تعرف باسم نوع آخر من الخراف البيض التي يربونها في مراعيهم وهي "الآق قيونلو" .

وكان رعاة الخراف البيض عشيرة تركمانية كبيرة هاجرت من تركستان إلى أذربيجان ثم إلى نواحي ديار بكر ، ثم سكنت في النهاية الأراضي الواقعة بين آمد والموصل ، وكونوا دولتهم في أواخر القرن الثامن الهجري ، ومؤسس دولتهم الحقيقي هو بهاء الدين عثمان (٨٠٦-٨٣٨هـ) المعروف بـ"قراعثمان" .

ولما دخل تيمور لنك الأناضول انحاز إليه قرا عثمان وصحبه في معارك بالشام والأناضول ، فكافأه تيمور على خدمته بأن أعطاه ولاية ديار بكر .

وفي ديار بكر نشأ الأربعة الأوائل من حكام هذه الأسرة ، وحكموا العراق حكماً سيئاً أكثر من قرن من الزمان ، ولم يعرف العراق الاستقرار خلال هذا العهد ، وكان التطاحن مستمراً بين أمراء هذه الدولة ، أما الجانب الحضاري فكان مهملاً تماماً ، وساد الجهل في أنحاء العراق ومحيت آثار حضارته السابقة ، وكثرت حروبهم

مـع الفـرع الآخر من التركمان القراقيونلو ، حتى سادت في النهاية "الآق قيونلو" وامتد حكمهم ، فشمل بلاد العراق وفارس ، وديار بكر وأذربيجان .

وكـان انضـمام الآق قـيونلو إلى تيمور في هجومه على العثمانيين سببا في عدائهم للعثمانيين ، ولذلك كان أساس علاقتهم بالعثمانيين العداء .

ثم بـدأت العلاقـات بينهم وبين أسرة شيعية ناشئة سيكون لها شأن في بلاد فارس والعراق هي الأسرة الصفوية ، وهذا ما نوضحه فيما يلي

العراق والصفويون :

بعد أن أرسى إسماعيل الصفوي قواعد دولته الشيعية في فارس ، بدأ يفكر في فـرض سـيطرته عـلى العراق ، فاستولى على العراق سنة ٩١٤هـ لكي يفرض سـيطرته على العتبات المقدسة للشيعة في كربلاء حيث يوجد قبر الحسين بن علي ، وفي النجف حيث يوجد قبر الإمام علي كرم الله وجهه .

وأصـبحت العراق بذلك تابعة للصفويين ، ولا شك أن استيلاء الصفويين على العراق جعله يتخلص من حكم التركمان الذين كانوا أقرب إلى الوثنية منهم إلى الإسـلام [١] ، وبهـذا بـدأ الطابع الإسلامي الحقيقي يعود إلى العراق تحت الحكم الصـفوي ، إلا أن الخطورة كانت تكمن في أن الفرس بدأوا يتجهون بالعراق اتجاهاً فارسياً ، وكان هذا الاتجاه على وشك أن يعيد العراق إلى ما كان عليه قبل الإسلام ، فارسي اللغة والتقاليد ، لكن الذي أنقذه من ذلك هو تحرك الدولة العثمانية باتجاه العـراق ، وتم فـتحه سـنة ٩٤١هـ ، وبعد فتحه دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين .

العراق تحت الحكم العثماني :

ظـل العـراق مجال شد وجذب بين العثمانيين والصفويين حتى قام السلطان "سـليمان المشرع" على رأس حملة على العراق سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) وأتم فتحه

---

(١) د. أحمد شلبي ، ج٧ ، ص٧٧٦ .

ودخـل بغـداد ، وحـاول الحرص على عدم الإساءة إلى مشاهد الشيعة الإمامية بالعراق، ولذلك زار الكثير من مزاراتهم وعلى الأخص في كربلاء والنجف ، وأوقف علـيها الكـثير من مزاراتهم وعلى السليمانية على الفرات الأوسط لحماية العتبات المقدسة في كربلاء من مياه الفيضان في الربيع ، وزار قبر "الإمام علي" رضي الله عنه في النجف ، ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن إرضاء السنة كذلك .

وقبل أن يغادر السلطان سليمان العراق بعث إليه حاكم البصرة العربي بابنه "راشـد" يحمـل إليه مفاتيح البصرة رمزاً للخضوع ، وبذلك خضعت البصرة أيضاً للـنفوذ العـثماني ، ودخـل أمراء كل من القطيف والبحرين في طاعة العثمانيين ، وهكـذا خضـع العراق من شماله إلى جنوبه للحكم العثماني ، على الرغم من عودة الإيرانـيين إلى محاولـة استرداده المرة بعد المرة ، ولم ينته الصراع بين إيران والدولة العثمانية إلا في عام ١٧٤٧م حين خضع العراق نهائياً للحكم العثماني [١] .

وكـان العثمانيون يرسلون إلى العراق والياً يسمى الباشا على رأس الحكومة المحلية ، ويرسلون القاضي رئيس السلطة القضائية والدفتردار رئيس الإدارة المالية ، وكان كل هؤلاء من الأتراك ، وكل هؤلاء أعضاء بديوان يمثل مجلس شورى الولاية.

وظل العراق يحكم بالولاة القادمين من اسلامبول المعينون من طرف السلطان العثماني حتى سنة ١٧٤٩م حيث تولى الولاية زعيم المماليك الذين رباهم أحمد باشا وهـو سـليمان الذي كان نائب الوالي "كتخدا الباشا" ، وبه قامت دولة المماليك بالعراق عقب وفاة أحمد باشا ، واقتنى سليمان عدداً كبيراً من المماليك ، وألف منهم جيشـاً مدربـاً على حمل السلاح الحديث ، وعين كثيراً منهم في المناصب الإدارية واسـتبعد الموظفين العرب والأكراد من المناصب ، وبذلك ثبت حكم المماليك الذي استمر أكثر من ثمانين عاماً [٢] .

---

(١) انظر : للمؤلف ، الدولة العثمانية وعلاقتها بالعالم الإسلامي وأوربا ، ص٤٥ .

(٢) د. أحمد شلبي ، مرجع سبق ذكره ، ج٧ ، ص٧٨٧-٧٩٣ .

وكـــان داود باشا (١٨١٧-١٨٣١م) آخر باشوات المماليك في العراق ، واتجـه داود باشـا الاتجاه الاستقلالي الذي بدأه سليمان باشا أول حكام المماليك ، وحارب النفوذ البريطاني والتسلط العثماني على العراق ، وانتهز فرصة القضاء على جيش الانكشارية في اسلامبول ، فوضع خطة للقضاء عليهم في بغداد ونجحت هذه الخطة دون إراقة دماء .

فأدرك السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) أن مماليك العراق يتخذون طابعــاً استقلالياً ، فاتخذ قرار بعزل داود باشا سنة ١٨٣١م ، وأرسل جيشاً بقيادة "عــلي رضا" استولى على بغداد وقبض على داود باشا وأرسل إلى اسلامبول ، أما بقــية المماليــك فدبر "علي رضا" مذبحة لهم شبيهة بمذبحة المماليك في مصر على يد محمد علي سنة ١٨١١م .

وحكمت الدولة العثمانية العراق بعد المماليك بمجموعة من الولاة بعد علي رضــا مــا يقرب من قرن من الزمان أغلبهم لا يستحق الذكر سوى "مدحت باشا" الذي كان يلقب بـ"أبو الدستور" ، وقد جاء مدحت باشا إلى العراق سنة ١٨٦٩م ، فأقــام بهــا ثــلاث ســنوات قــام فيها بكثير من الإصلاحات ، فأقام المنشآت والمستشفيات ودور العجزة والأيتام ، وشيد المدارس ومد خط ترام بغداد ، وأصدر أول جــريدة عراقــية هــي "الزوراء" ، وأنشأ نظام البلديات للعناية بالإنارة والمياه والنظافة والحراسة ، وأسس المجالس المحلية ، وفرض نظام التجنيد الإجباري ، وقسم العراق إلى ثلاث ولايات هي :

١- ولاية بغداد .

٢- ولاية البصرة .

٣- ولاية الموصل .

واهــتم بتوطين القبائل الرحل ، ووزع الأراضي الزراعية عليهم ، لكن هذه الإصلاحات لم يكتب لها الاستمرار بسبب قصر مدة ولاية مدحت باشا[١] .

ومدحــت باشـا الــذي تولى بعد ولاية العراق سوريا لاحظ خلال ولايته الأضرار الناجمة عن نظام المركزية العثمانية المفرطة ، وشرح هذه الأضرار في تقاريره، وطلب من الدولة العثمانية الاقلاع عن هذا النظام إلى نوع من اللامركزية .

إلا أن الدولة تمسكت بنظام المركزية ، بل صارت تزداد تشدداً فيه سنة بعد سـنة ، فقضية المركزية واللامركزية لعبت دوراً هاماً في سياسة الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى [٢] .

ويلاحــظ أن مدحت باشا أثناء ولايته في العراق اهتم به بعيداً عن أسلوب المركـزية المقيـت ، وهذا هو الذي جعل مصر في عهد محمد علي تتقدم عن سائر الولايات العربية بعد انفصالها عن الدولة العثمانية في الشئون الإدارية الداخلية .

---

(١) المصدر السابق ، ج٧ ، ص٧٩٩-٨٠٠ .

(٢) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٩٤ .

الباب الثالث

الفصل الثاني

الدويلات في آسيا الصغرى وما وراء النهر

- الدولة الغزنوية .
- الدولة الأفغانية .
- الدولة الخوارزمية .
- الدولة العثمانية .

الدولة الغزنوية ٣٥١-٥٨٢هـ :

تنسب هذه الدولة إلى عاصمتها غزنة ، ومؤسسها مملوك تركي من مماليك السامانيين الذين تدرجوا في المراتب العسكرية إلى أن بلغوا مرتبة الإمارة وهذا الأمير يدعى (ألبتكين) فقد انتهت الدولة السامانية إلى ما انتهى إليه العباسيون من الاعتماد على الأتراك في إمداد جيوشهم ، وارتقوا تدريجياً إلى الرتب العليا في الجيش الساماني، ومن ثم انتقلوا إلى الإدارة المدنية حيث أمسوا بعد مدة وجيزة خطراً على الدولة ، ولقد عين ألبتكين في البداية قائداً عاماً في خراسان ابتغاء إقصائه عن العاصمة بخارى بعد أن عظم فيها نفوذه [1] ثم تولى إمارة غزنة سنة ٣٥١هـ من قبل السامانيين ، وبعد وفاته آلت الأمور في رئاسة الدولة إلى زوج ابنته ومملوكه ناصر الدين (سبكتكين) سنة ٣٦٦هـ ، فقد اتفق الجنود عليه كما يقول ابن الأثير ، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه ، فقدموه عليهم وولوه أمرهم ، وحلفوا له رأطاعوه ، فأحسن السيرة فيهم ، و ساس أمورهم سياسة حسنة [2] .

وترجع أهمية (سبكتكين) إلى أنه ولى جهوده العسكرية تجاه الثغر الهندي ، فحارب فيه باسم السامانيين أولاً فتوغل في سهول الهند الشمالية ، ولم يتجه بأعماله العسكرية إلى البلاد الإسلامية التي كانت تابعة للخلافة العباسية وتحت نفوذ السامانيين ، إلا عندما طلبوا معونته في هذا المجال لقمع حركات الخارجين عليهم في خراسان فقد انضم بقواته إلى (نوح بن نصر الساماني) لقتال الخارجين عليه في خراسان ، وفي قتال البويهيين الذين رغبوا في الاستيلاء على خراسان التي كانت في حوزة السامانيين ، واستطاع الغزنويون الانتصار على البويهيين وأعادوا إلى

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج٢ ، ص١١٨ .

(٢) الكامل ، ج٧ ، ص٨٥-٨٦ .

السـامانيين مدينة نيسابور ، وقد كافأ السامانيون (محمود بن سبكتكين) على جهده مع أبيه بأن عينوه والياً على خراسان .

و(محمود الغزنوي) بن سبكتكين هو الذي تولى السلطة في الدولة الغزنوية منذ سنة ٣٨٨هـ ، وبلغت قوة الدولة أوجها في عهده ، وعندما تولى سنة ٣٨٨هـ كانت الدولة السامانية قد مالت إلى الضعف بسبب الخلافات التي نشأت في داخل الأسرة السامانية فألغى محمود اسم السامانيين من الخطبة ، وخطب للخليفة العباسي (القادر بالله) الذي أنعم عليه بلقب (يمين الدولة) لأنه كان يرعى الركن الأيمن من المشرق الإسلامي ، ويعتبر محمود الغزنوي هو المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية .

وبظهور الدولة الغزنوية أصبحنا مع دولة تركية ، إيرانية الإدارة والثقافة لأن رجال الإدارة معظمهم من الفرس ، فالقائد وهو السلطان تركي والجيش من الأتراك في معظمه ، وكانت الدولة إيرانية الثقافة لأنها ترعى الكتاب الفرس ، وتتابع عمل السامانيين على الصعيد الثقافي .

وظهرت الدولة الغزنوية في المجال الإسلامي ظهوراً قوياً على عهد محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ) فهو الذي أحيا الجهاد الإسلامي في ثغر الهند ، ويؤثر عنه أنه غزا في بلاد الهند إثنتي عشرة مرة مدفوعاً بروح الجهاد في سبيل الله ، والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود والوثنيين واتخذ محمود الغزنوي لنفسه لقب (سلطان) [١] بعد أن كان يلقب بالأمير ، وظهر هذا اللقب على العملة التي كانت تحمل اسمه ، ولقب سلطان الذي اتخذه محمود الغزنوي هو اللقب الذي اتخذه السلاجقة وسار عليه الأتراك في الدولة الإسلامية واتخذه المماليك في مصر والعثمانيين بعد ذلك ، وكان ظهور هذا اللقب بصفة رسمية في بلاد الإسلام على يد

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص١٧٥-١٨٢ .

محمود الغزنوي ، أما الحكام من الفرس فقد اتخذوا لقب (ملك) كما فعل بنو بويه[١] وكلا اللقبين أقل من لقب الخليفة الذي ظل أعلى ألقاب الدولة الإسلامية حتى زوال الخلافة العباسية من بغداد .

وحـــارب محمـــود الغـــزنوي من أجل الخلافة في سجستان سنة ٣٩٣هـــ فاستولى عليها ، وأزال سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل سنة ٤٢٠هـــ وملك قزوين ودان له بالطاعة أمراء هذه الجهات ، وقد أرضى محمود الخلافة العباسية حين تتـــبع المخـــالفين لهـــا والخـــارجين عليها بالقتل والنفي من الرافضة والإسماعيلية ، والقـــرامطة وغيرهـــم ، كمـــا نفي المعتزلة إلى خراسان وضيق عليهم وأحرق كتب الفلسفة والنجوم ، ورفض أن يستجيب للفاطميين الذين حاولوا استمالته تخفيفاً من حملته على أشياعهم [٢] .

وفي كـــل ناحـــية كان محمود يفتحها كان يزيل كل المذاهب الخارجة على مذهـــب الســـنة والجماعـــة ، ومن هنا فقد قضي على كل أثر للتشييع أو الاعتزال وغيره في كل البلاد التي دخلها [٣] .

واســـتطاع محمود الغزنوي أن يبسط سلطان الإسلام على ما وراء كشمير والبـــنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية قاعدتها مدينة (لاهور) [٤] ويحكمهـــا ولاة مسلمون من قبل الغزنويين ، ومن المعروف أن هذه الأقاليم الشمالية

---

(١) أما الرواية القائلة بأن البويهيين أخذوا لقب "سلطان" فإنها تستند إلى ظن خاطئ ، ولم يرد هذا اللقب على مسكوكاتهم ، وإنما ورد عليها لقب الملك والأمير ، [معجم الأسر الحاكمة ، لين بول وآخرين ، ج١ ، ص٢٨٨] .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص٨٩ ، وحسن أحمد محمود ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٧٤ .

(٣) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣٤ .

(٤) تعـــني كـــلمة (لاهور) : بالأردية أرض الطهارة ، وقد دخل الإسلام مدينة لاهور على يد حملة بقيادة (محمـــد بـــن القاسم الثقفي) ، الذي غزا السند في أواخر القرن الأول الهجري ، وإبان الاحتلال البريطاني للهـــند كانت لاهور عاصمة لإقليم البنجاب ، وبعد ظهور دولة باكستان كانت لاهور عاصمة لباكستان الغربية (المؤلف ، العالم الإسلامي ، ج١ ، ص١٧٨) .

الهندية التي انتشر فيها الإسلام وهي السند والبنجاب والبنغال تكون ما يسمى الآن بدولة باكستان ودولة بنجلاديش .

وقــد توفي (محمود الغزنوي) سنة ٤٢١هـ بعد أن أنشأ دولة شاسعة تضم معظــم إيــران ومــا وراء الــنهر وشمــال الهند كله وكان يريد نقل عاصمته إلى (الكوجــرات) ، وتــرك ابــنه نائباً عنه في (غزنة) ، ولكن رجاله عز عليهم مفارقة موطنهم ، فصرفوه عن هذه الفكرة .

والحــق الســلطان (محمود الغزنوي) كان غازياً مجاهداً أخذ على عاتقه نشر الإسلام في بلاد الهند والقضاء على الوثنية فيها ، وبلغ في فتوحه " إلى حيث لم تبليغه في الإســلام راية ، ولم تتل به سورة ولا آية ، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مســاجد وجوامــع ، وأقام بدلاً من بيوت الأصنام مساجد الإسلام"[١] وقد جلب الفــتح الإســلامي للهند منافع كثيرة ومكاسب عظيمة قد فتح أمام طبقة المنبوذين نــافذة إلى التطلع والطموح والحرية ، لأن هذه الطبقة حرمت من الحقوق الإنسانية مــنذ أمد بعيد ، فدخلوا في الإسلام أفواجاً لأن الإسلام يسوي بين الطبقات ويفتح الأمل أمام كل فرد للتقدم لتحقيق حياة أفضل .

وقــد اعــترف بذلك جواهر لال نهرو في كتاب [٢] له قائلاً : "إن دخول الإســلام الهــند له أهمية كبرى في تاريخ الهند إذ أنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشــر في المجــتمع الهندوســي وأظهروا فروق الطبقات واحتقار المنبوذين وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة الــتي كان يؤمن بها المسلمون أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثرهم خضــوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرمهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية [٣] .

---

(١) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣٥ .

(٢) هذا الكتاب بعنوان : the Discovery of India ، ص٣٣٥ ، ص٥٢٦ .

(٣) محمد اسماعيل الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، ص٤٠-٤٢ .

وبــدأت الحياة العلمية تزدهر في دولة الغزنويين وكان بلاط محمود الغزنوي موئــل العلماء والأدباء ومنهم العتبي له كتاب اليميني والمعروف بتاريخ العتبي (محمد بن عبد الجبار) (ت٤٢٧هــ) مؤرخ عصر السلطان محمود الغزنوي والبيروني (نسبة إلى بيرون بالسند) (محمد بن أحمد) (ت٤٤٠هــ) صاحب كتاب تحقيق ما للهند من مقولــة مقبولة في العقل أو مرذولة والفردوسي الشاعر صاحب الشاهنامة التي كتب جزءاً منها في بلاط الغزنويين .

ثم خلفه ابنه محمد الذي تغلب عليه أخوه مسعود سنة ٤٢٢هــ الذي استمر في سياسة أبيه ، وجعل له نائباً في الهند يقيم في لاهور ، وظلت الدولة الغزنوية تقوم برســالتها حــتى انــتهى أمــرها على يد (الغوريين سنة ٥٨٢هــ) وبفعل ضربات السلاجقة الأتراك الذين كانوا إذ ذاك يتوسعون في هضبة إيران .

وتــولى الحكــم بعدهم (الغوريون) الذين كانوا من أتباع الغزنويين وكانوا يحكمــون (إقلــيم الغور) وهو إقليم جبلي عبارة عن الجزء الجنوبي من بلاد الأفغان الحالية يمتد ما بين غزنة وهراة ، وإذا كان (الغزنويون) هم أصحاب الفضل في تحطيم قــوى أمــراء الهند ، وفتح معظم الهندستان ، لأنهم كانوا يعتبرون بلاد الهند امتداداً لأملاكهم وكانوا دائماً يعودون إلى (غزنة) ، فإن (الغوريين) هم أصحاب الفضل في تثبيــت أقــدام الإسلام بالهندستان وكان سلاطينهم وقادتهم يقيمون في الهند بصفة دائمــة مــتخذين مــن دلهي (دهلي) عاصمة لهم ، ولهذا فهم يعتبرون أول الدول الإسلامية في الهند ، وبهم يبدأ تاريخ الهند الإسلامية [١] .

تغلب محمد الغوري على آخر سلاطين الغزنويين عام ٥٨٢هــ وأقام سلطانه في أراضيهم وغزا الهند وافتتح دهلي وغيرها واستمر عهده حتى سنة ٦٠٢هــ [٢] .

---

(١) حسين مؤنس ، ص٢٣٦ ، وتولى بعدهم دولة مماليك الهند سنة ٦٠٢هــ .

(٢) وقــد لعب أبناء أفغانستان دوراً جهادياً ممتازاً في نشر الإسلام في الهند على أيام الغزنويين والغوريين ، وانتشــر الإسلام في الهند بفضل جهادهم ونضالهم في هذه الأصقاع حيث كانوا عدة الحرب الطويلة التي خاضها كل من الغزنويين والغوريين .

وبـــرز في عهـــد محمد الغوري المماليك الأتراك الذين تولوا القيادة في عهده وأصـــبحوا أصـــحاب القوة من بعده فغدا (قطب الدين إيبك) سلطاناً في دهلي بعد وفـــاة محمد الغوري ، وأقام دولة عرفت في الهند بدولة مماليك الهند وانقرضت سنة ٦٨٨هـــ [١] .

ثم حكمـــت في الهـــند بعـــد المماليك دول ضعيفة — الخلجليون والتغلقيون واللوديـــون حـــتى سنة ٩٣٣هـــ /١٥٢٦م وذلك عندما ظهرت الحاجة إلى حاكم قـــوي يوقـــف الصـــراعات ويوحد الهند أمام الأطماع البرتغالية التي بدأ نزولها في شواطئ الهند منذ ٩٠٤هـــ (١٤٩٨م) في كاليكوت وديو وجوا وبومباي .

وقد وُجدت هذه الشخصية في (ظهير الدين محمد بن عمر شيخ مرزا الملقب بابر) ومعناها النمر ، وهو صاحب غزنة الذي اندفع بقواته إلى سهول الهند واستوى عـــلى دهـــلي وأســـس إمـــبراطورية المغول في الهند سنة ٩٣٣هـــ/١٥٢٦م والتي استمرت حتى سنة ١٨٥٧م/١٢٧٤هـــ (وكان بابر ينحدر من سلالة تيمور لنك) وهـــي الســـنة التي بدأ الإنجليز فيها يحكمون الهند ، وصارت تابعة للتاج البريطاني مباشرة وغدت مستعمرة بريطانية حتى الاستقلال سنة ١٩٤٨م .

وكانـــت الدولـــتان الغزنوية والغورية تركيتين ولكن قيامهما في محيط إيراني جعـــلهما تـــأخذان طابعاً إيرانياً ثقافياً ، فاللغة الفارسية كانت لغة الدولة والإدارة ومعظـــم النشاط الفكري ، وإذا كانت كتبت بعض المؤلفات في عصريهما بالعربية ولكـــن ذلـــك كـــان قليلاً واللغة الفارسية التي ازدهرت في عصريهما لم تكن هي الفارســـية الـــتي ســـادت أيام الساسانيين ، ولكنها كانت الفهلوية ، وهي الفارسية الجديدة المستعربة ، ومعظم ألفاظ الحضارة فيها عربية ثم أنها كتبت بالحروف العربية، وأحســـن مـــا كتـــب في تاريخ هاتين الدولتين ألف بالفارسية ، لأن الفارسية التي اســـتفاقت كانت لغة شعر وملاحم ، ولابد أن يمضي وقت حتى تصبح الفارسية لغة

---

(١) محمد السيد غلاب وآخرون : البلدان الإسلامية ....، ص٢٤٤-٢٤٩ .

تألـــيف علمي ، وهذا ما قاله أبو الريحان البيروني الذي عاش في ظل الغزنويين وألف لهـــم ولكـــنه كتـــب بالعربـــية ، وقرر أن العربية لا الفارسية هي لغة العلم والفكر والتأليف [1] .

---

(١) المصدر ال[illegible] [illegible] ٢٣٦ وما بعدها .

أفغانستان المجاهدة

أفغانســـتان دولة جمهورية أسيوية ، تقع في آسيا الوسطى ، تحدها إيران من الغرب ، وباكستان من الشرق والجنوب ، وتركمانستان وطاجيكستان من الشمال، ولأفغانســـتان حدود من جهة الشمال الشرقي وهي هضبة بامير مع الصين الشيوعية أي مع منطقة تركستان الشرقية الإسلامية ، التي استعمرتها الصين الشيوعية .

وأفغانســـتان بلـــد جبلي ، تنزل على جباله الثلوج في الشتاء ، وينزل عليها المطر في الربيع مع ذوبان الثلوج ، فتنحدر المياه من جبال أفغانستان —الواقع أغلبها في الوســـط — في أنهـــار صغيرة وكبيرة ، وتجري مياهها عابرة أراضي أفغانستان إلى أراضـــي الدول المجاورة ، وجبالها غنية بالأحجار الكريمة مثل الياقوت واللازورد ، وبعض المعادن كالنحاس والحديد ، وتبلغ مساحة أفغانستان (٦٥٠٠٠٠) كيلو متر مربع .

وتـــتكون أفغانســـتان الحالية من الأقاليم الإسلامية الرئيسية المعروفة ، وهي "كـــابل" ، و "قـــندهار" ، و "سجســـتان" ، و "تركســـتان" ، و "هندكوش" ، و "جـــيحون" ، و"هزارســـتان" ، وغير ذلك من المناطق الصغيرة ، وسكانها الحاليون أخلاط من الأفغان والفرس (طاجيك) ، والأتراك والمغول والبلوش ، واختلطت تلك الأجـــناس اخـــتلاطاً كبيراً ، فأصبح من الصعب تحديد العناصر المكونة لكل قبيلة ، واللغـــة الـــتي يتحدث بها الأفغانيون شعبة من اللغة الفارسية ، ما عدا إقليم جيحون الذي يتحدث أهله التركية .

ويديـــن الشـــعب الأفغاني كله تقريباً بالدين الإسلامي ، وعدد السكان في إحصاء عام ١٩٨٨ حوالي ١٦ مليون نسمة ، بنسبة ٩٩% من المسلمين ، أغلبهم على المذهب السني مع أقلية من الشيعة .

ولقـــد لعبت بلاد أفغانستان دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي ، فمنها انبعث المد الإسلامي الكبير إلى بلاد الهند ، على أيام "محمود الغزنوي" وخلفائه (٣٨٨—

٥٨٢هـ) ، وأيام الغوريين من بعدهم ، واتخذ المغول المسلمون الذين تحولوا إلى الإسلام في أرض أفغانستان من (غزنة) في أفغانستان قاعدة لهم في غاراتهم على الهند، ففي عهد "بابر المغولي" الذي أسس إمبراطورية المغول في الهند سنة ٩٣٣هـ (١٥٢٦م) ، وطد سلطانه في كابل ، وظلت "كابل" في يد خلفاء المغول نحو قرنين من الزمان .

وعليه فإن الفاتحين للهند على أيام الغزنويين والغوريين ، انحدروا من جبال أفغانستان العظيمة ، مع الأخذ في الاعتبار أن الحملات الأولى على الهند ، حدثت في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ، فكان من القواد الأوائل "الحارث بن مرة العبدي" الذي استشهد في أرض السند سنة ٤٢هـ ، وفي سنة ٩٣هـ أرسل "الوليد بن عبد الملك" "محمد بن القاسم" عن طريق "الحجاج بن يوسف الثقفي" في العراق إلى الهند ، فأرسى قواعد دولة إسلامية بها ، إلا أن التدفق الإسلامي الكبير على الهند حدث في عصر الغزنويين والغوريين .

فقد استولى "البتكين" على غزنة عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) من بلاد خراسان وأسس فيها دولة أخذت تتسع تدريجياً حتى ضمت كل أفغانستان الحالية وإقليم البنجاب من باكستان ، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة صهره "سبكتكين" الذي خلفه في الحكم (٣٦٥-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) وقد مد نفوذه إلى سائر خراسان وشمال بشاور ، واشتهر ابنه محمود (٣٩٠-٤٢١هـ/٩٩٩-١٠٣٠م) بحملاته على بلاد الهند التي بلغ عددها ١٧ حملة خلال ٢٧ سنة ، مستفيداً من موقع عاصمته "غزنة" على هضبة مرتفعة تشرف منها على سهول شمالي الهند التي كان يحن الوصول إليها عن طريق وادي كابل [١] .

---

(١) د. محمد السيد غلاب ، ود. حسن عبد القادر صالح ، د. محمود شاكر ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، نشر جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٧٩م ، ص٢٣٣ .

وهكـــذا شارك أسلاف الأفغانيين في نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله بعد اعتـــناقهم له وحسن إسلامهم ، وثبتوا على دينهم طوال القرون في مختلف الظروف وما بدلوا تبديلا .

ودخلت أفغانستان في حوزة إمبراطورية المغول أحياناً وإمبراطورية الصفويين في فـــارس أحـــياناً أخـــرى ، وقد اقتسمت الإمبراطوريتان الهندية والفارسية بلاد أفغانستان ، فكانت هراة وسجستان مع فارس ، وكانت كابل جزءاً من إمبراطورية المغـــول في الهـــند وتأرجحـــت قندهار بين نفوذ الفرس والمغول ، ولما توفي إسماعيل الصفوي سنة ٩٣٠هـــ (١٥٢٤م) ، وتوفي بابر سنة ٩٣٧هـــ (١٥٣٠م) وخلف بابر ابنه همايون ، وخلف طهماسب والده إسماعيل ، وظلت الدولتان تتنازع أراضي أفغانستان [١] .

وأهـــم شـــيء أن الأفغان ظلوا يحاربون الدولتين الكبيرتين ، وكانت القبائل الأفغانية تزداد في العدد والسلطان باطراد ، وقد تهيأت الفرصة أمام الجنس الأفغاني للبروز ، ولم يتأثر الأفغان كثيراً في جبالهم الشرقية بالغزاة الذين كان همهم الأول شق طـــريقهم عابرين الممرات إلى الهند ، ولما كان عددهم يتزايد شقوا طريقهم شرقاً إلى ســـهول الهـــند وبدءوا ينتشرون غرباً أيضاً ، والملاحظ أن هذه القبائل الجبلية ظلت تمـــارس حـــياة تكاد تخلو من أي نظام ، لكن شدة بأسهم كانت واضحة لدرجة أن الحكومـــة المغولية في كابل كانت تحكم بالاسم فقط ، ولها بعض السلطان في الوديان المكشـــوفة ، وقد تسبب الحكم المتقلب في بلاد أفغانستان بين الهند وفارس في تمكين القبائل القوية مثل : "الأبدالية" ، و "الغلزائية" ، و "نادرشاه" أن تظهر وتنازع على السلطان في أفغانستان .

فقد نجح (الأبدالية) قرب قندهار في الحصول على امتيازات من الشاه عباس الصـــفوي الأكـــبر ، واعترف بزعامة "سدو" الذي أصبحت أسرته السدوزائية هي

---

(١) انظر مادة أفغانستان في دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة المترجمة إلى العربية .

الأسـرة الحاكمـة ، وصهـرت أيضاً قبيلة (غلزائي) ونازعتها السلطة بالقرب من قـندهار، وظـل سلطانها يزداد حتى اعتلاء الإمبراطور "شاه عالم الأول" العرش ، وهـناك بدأ غلزائية قندهار يتآمرون معهم على الحكومة الفارسية ، وفي هذه الأثناء ظهر "ميرويس" الزعيم الغلزائي ، و "محمود بن ميرويس" الذي نصب نفسه حاكماً على قندهار [١] وبدأ يغزوا بلاد فارس .

فترة حكم الأفغان لفارس :

دخلت فارس في الفترة من ١١٣٥هـ حتى سنة ١١٤٢هـ (١٧٢٢-١٧٢٩م) تحت السيطرة الأفغانية وذلك عندما زحف "محمود بن ميرويس الأفغاني" على فارس ودخل أصفهان واستولى على المدن الفارسية الواحدة بعد الأخرى، وحاصر أصفهان مـدة طويلـة انتشرت بها المجاعة التي جعلت الناس يأكلون لحوم بعضهم البعض،مما جعل الشاه "حسين الصفوي" يتنازل عن العرش وتسليم المدينة سنة ١٧٢٢م،فكان ذلك إيذاناً بانتهاء الأسرة الصفوية التي حكمت فارس منذ سنة ٩٠٧هـ [٢] .

وأبقـى "محمـود الأفغاني" أوضاع الإدارة والموظفين الفرس مع إقامة بعض المراقبين من الأفغان ، ولكن كانت هناك قوى خارجية وداخلية تستعد للوثوب على الحكم الأفغاني في فارس : العثمانيون في الغرب ، والروس في الشمال ، ثم ولي العهد الصفوي طهماسب الذي كان يحاول تكوين قوة في الشمال للوصول إلى العرش .

وفكـر "مـير محمود" في القضاء أولاً على المطالب بعرش فارس ، ورغم أنه أرسـل قوات كثيرة إلى الشمال إلا أنه لم ينجح في القضاء عليه ، ومر محمود بفترة عصيبة حيث أنه كان يجد صعوبة في جمع عدد كافي من القوات لعملياته العسكرية ، فأفغانسـتان أصغر بشرياً من فارس ، وبغزو فارس استخدم "محمود" الغالبية العظمى

---

(١) المرجع السابق ، مادة غلزائي .

(٢) ستانلي لين بول ، تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د. أحمد السعيد ، طبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩م ، ج٢ ، ص٥٤٦ .

مــن طاقة أفغانستان البشرية المستعدة للجندية ، وزاد من سوء مركز محمود ثورات كثير من المدن الفارسية ضده .

وزادت الأطمــاع الروســية في فارس ، فوجه الروس جيشاً ضد الأفغان في فارس في وقت كان العثمانيون يتربصون لفارس في الغرب ، فهدد العثمانيون روسيا بالتدخل،الأمر الذي جعل روسيا تميل إلى عقد اتفاقية مع العثمانيين في سنة ١٧٢٤م لتقســيم فــارس ، وبمقتضى هذه الاتفاقية تستولي روسيا على المناطق الشمالية من فارس ويستولي العثمانيون على المناطق الغربية ، ونصت الاتفاقية على الاعتراف بولي العهد الصفوي الذي يحاول الوصول إلى العرش وهو "طهماسب" شاه أو ملكاً على فارس إذا اعترف بهيمنة كل من الروس والعثمانيين على المناطق التي استولوا عليها .

هذه الأخطار التي أخاطت بفارس وحاكتها محمود الأفغاني جعلته يندفع إلى إجراء مذابح للنبلاء وقوات الفرس والأسرة المالكة الصفوية وأخذ يفرض ضرائب جديدة وينهب متاجر الناس ، وكان الأولى به أن ينسحب بقواته عائداً إلى أفغانستان[١] .

وأدرك كــبار رجال الأفغان أن السلطان محمود يفقد قواه العقلية فاستدعوا ابن عمه الأمير أشرف من أفغانستان وأسندوا إليه ولاية العهد ، ثم رفعوه إلى العرش سنة ١٧٢٥م عندما أصيب محمود بالجنون التام .

ولما تولى أشرف حكم فارس بدأ عهده بإجراءات تصفية العناصر التي يخشى تآمــرها ، فقتل حرس محمود وكبار الموظفين الذين كانوا شديدي الصلة بمحمود ، كمــا قــتل الضــباط الذين وضعوه على العرش ، ومن عجيب ما فعل من أعمال وحشية أنه سمل عيني شقيقه خشية منه أن يزاحمه على الحكم .

في هــذا الجو الذي انتشر فيه الإرهاب ومظاهر الوحشية استأنف العثمانيون غــزوهم لفــارس سنة ١٧٢٦م مدعين أن هدفهم إعادة العرش إلى الشاه الشرعي

---

(١) د. محمــود حســن صالح منسي ، معلم تاريخ الشرق الإسلامي في العصور الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧م ، ص٥٤-٥٥ .

"حسين" ، فسارع اشرف بقتل حسين هذا ، وعندما التقى جيشه بجيش العثمانيين قرب همدان أشاع الفوضى والاضطراب في صفوف العثمانيين عندما أعلن مؤكداً أنه مثل العثمانيين يدين بالإسلام على المذهب السني ويدعوهم للاتحاد معه ضد عدوهم المشترك الصفويين الشيعة ، وقد أحدثت هذه الدعاية ثمارها ، فقد انضم كثير من قوات الجيش العثماني إلى جانب الأفغان ، كما رفض الجيش العثماني الاستمرار في الهجوم ، وكان من نتيجة ذلك عقد صلح مع العثمانيين مقتضاه تنازل أشرف عن الجزء الغربي والشمالي الغربي من فارس للعثمانيين [١] .

أما ولي العهد طهماسب الثاني الذي كان يقيم في شمال شرق إيران في حماية قبيلة تركمانية تسمى قبيلة القجار ، وكانت تؤيده وتناصره بزعامة "نادرخان" الذي صار يسيطر على طهماسب ، واسترد نادر أصفهان سنة ١٧٢٩م ، واستدعى طهماسب ليتولى العرش الذي كان في يد الأفغان المغتصبين لمدة سبع سنوات ، ونجح نادر في هزيمة السلطان أشرف قرب شيراز ، وبذلك انتهى العهد الأفغاني في فارس .

ولكن "نادر شاه" اتخذ حيال القبائل الأفغانية عامة سياسة التراضي وجند أعداداً كبيرة منهم في جيشه والذي جعله يستميلهم هو أنه سني المذهب مثلهم واستجار بهم في فارس إلى الاتجاه شرقاً لاحتلال أفغانستان حتى أصبحت أفغانستان كلها في قبضته سنة ١٧٣٩م ، وظل بقية حياته يعتمد اعتماداً كبيراً على جنوده الأفغان ، ولم يعتمد إلا قليلاً على جنوده الفارسية الذي كان يتوجس خوفاً منهم بحكم أنه كان سني المذهب [٢] ، وهذا مما دفع الفرس القزلباشية [٣] إلى اغتيال "نادر شاه" سنة ١٧٤٧م .

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، مرجع سبق ذكره ، مادة أفغانستان .

(٣) قزلباش : لفظة فارسية معناها أصحاب الرؤوس الحمراء ، وكانوا أتباع الصفويين ، فكان الصفويون يلبسون أتباعهم غطاء للرأس أحمر اللون به ١٢ ثنية إشارة إلى الأئمة الإثنى عشر من أئمة الشيعة الجعفريين وهو مذهب الإمامية .

أفغانستان في عهد أحمد شاه درّاني :

كـــان أحمد شاه دراني في بداية أمره قائداً من قواد نادر شاه ، وكان زعيماً لقبائل الأبدالية في جيش نادر شاه ، ولما اغتال الفرس والقزلباش نادر شاه لأنه كان يســيء الظـــن بالعناصــر الشيعية في جيشه ويعطف على الأوزبك والأفغان وعلى الأبدالــية بوجه خاص ، في هذه الفترة كان أحمد شاه قريباً من مكان حادث اغتيال سيده نادر شاه ، فهاجم في نفر من الأبدالية قافلة فارسية محملة بالأموال وجردها من الـــنفائس التي كانت تحملها ، ثم ارتحل مع أتباعه إلى أفغانستان ودخل مدينة قندهار وأعلن نفسه ملكاً على أفغانستان بعد أن تم انتخابه من زعماء الأبدالية ، واشترك في انتخابه أيضاً زعماء من قبائل أخرى ، وكان أحمد شاه في هذه الفترةيطلق عليه لقب أحمـــد خان ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، ومنذ انتخابه أخذ يطلق عليه لقب شاه و (دراني) أي (درة الدرر) .

وبعد تتويجه توجه نحو كابل فدخلها ، بيد أن قندهار ظلت العاصمة له طوال حكمه ، وابتني مدينة جديدة سماها " أشرف البلاد " مكان " نادر آباد " التي أنشأها نـــادر شاه ، وأخضع " غزنة " وأقام عليها حكاما من قبيلة دران ، وكان أحمد شاه يعتـــبر نفسه وارثا لأملاك نادر شاه الشرقية ، وهي البلاد الواقعة غربي نهر السند ، ولذلـــك وجه فتوحاته نحو الهند ، فاستولي علي " لاهور " سنة ١٧٤٨ م ، ثم رجع إلي كـــابل وشـــغل في السنوات الأربع التالية بشئون خراسان ، فاستولي علي هراة وتقـــدم نحو مشهد وفتحها وأقام عليها حفيد نادر شاه ، ونجح في عام ١٧٥٠م في غزو " نيسابور " [١] .

وفي ذلـــك الوقـــت كان نفوذ القاجار الذين استولوا علي ملك الصفويين في فارس يـــزداد فصدوه ولم يتقدم إلي أبعد من ذلك ناحية الغرب ، ويمكن لنا أن نستدل علي ذلك بأن آخر عمله ضربها في مشهد كانت في سنة ١٧٥٠م .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة أحمد شاه دراني .

وفي سنة ٦ .. م توجه أحمد شاه إلى الهند ودخل "دهلي" دون أي مقاومة ولم يمكث فيها سوى أربعين يوماً نهب فيها جنوده هذه المدينة ، وضربت عملة فضية وذهبية باسمه في سنة ١١٧٠هـ (١٧٥٦-١٧٥٧م) تخليداً لذكرى هذا الفتح ، وعاد أحمد شاه إلى أفغانستان بعد أن قام ولده تيمور حاكماً على ملتان ولاهور .

وتوفي أحمد شاه دراني في "مرغاب" بالتلال القريبة من قندهار سنة ١١٨٧هـ (١٧٧٣م) تاركاً خلفه إمبراطورية مترامية الأطراف في أفغانستان وفارس والهند ولكنها غير مأمونة ، وكان تيمور شاه قد تولى في حياة أبيه مناصب ذات خطر مثل منصب "السنظام" على لاهور وملتان وهو منصب تدل عليه شواهد من مجموعة متمايزة من العملة ، ولما توفي أحمد شاه كان ابنه تيمور في هراة ولم يستطع أن يستولي على قندهار العاصمة إلا بعد أن قبض على أخيه سليمان الذي كان ينافسه وقتله ونقل عاصمته إلى كابل وحكم عشرين عاماً خالية من الأحداث اضمحلت فيها قوة المملكة وتزعزع استقرارها ، وكان سلطان الحكومة المركزية على الولايات القائمة في الأطراف واهية ، ففي سنة ١١٩٦هـ (١٧٨١م) ازدادت قوة السيخ واستولوا على "ملتان" ، ولكن تيمور استردها في السنة نفسها .

وتوفي تيمور شاه سنة ١٢٠٧هـ (١٧٩٣م) وخلفه ابنه "زمان شاه" الذي ظل في الملك حتى خلعه أخوه "محمود شاه" سنة ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) وبدأت المنافسة بين محمود وأخيه شجاع الملك تضعف من قوة أفغانستان ، فبينما كان محمود يرقى عرش "كابل" كان شجاع الملك ينادي بنفسه ملكاً في بشاور سنة ١٢١٥هـ (١٨٠٠م) .

أفغانستان من ١٨٠٠-١٨٢٤م :

في هذه الفترة التي يقع معظمها في القرن التاسع عشر الميلادي بدأت أطماع الإنجليز تمتد إلى أفغانستان من الشرق ، وبدأت أطماع روسيا تمتد إليها من الشمال في وقت اشتد فيه الصراع بين أبناء تيمور شاه على الملك في أفغانستان وعلى

الأخص بين محمود وأخيه شجاع الملك ، فقد اعتلى محمود وشجاع الملك العرش ثم تـــزلا عنه غير مرة بسبب ما كان بينهما من تنافس ، فقد جلس شجاع الملك على العرش سنة ١٨٠٠م ، ثم انتزعه محمود منه سنة ١٨٠١م ، ثم كر شجاع الملك على محمـــود مـــرة أخـــرى سنة ١٨٠٣م ، وأخذ الملك منه ، وعاود محمود الكرة سنة ١٨٠٩م وأخذ الملك من شجاع الملك .

ودخـــل الصـــراع أخـــوان آخران لمحمود وشجاع هما : "سلطان علي" و "أيوب" فقد استطاعا أن يليا الحكم بضعة أشهر في سنة ١٨١٨م (١٢٣٣هـــ) .

الغزو الإنجليزي لأفغانستان :

بدأت أطماع الإنجليز تمتد إلى أفغانستان بحجة المحافظة على الهند وقاموا بحملة علـــيها ســـنة ١٨٣٩م لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من الروس ومن أطماعهم فيها لقـــربها منهم . غير أن الأفغان قاوموا الاستعمار الإنجليزي بشدة ، وحاول الإنجليز مناصـــرة فريق على آخر من الأخوة الطامعين في عرش البلاد وحاولوا إجلاس الشاه شـــجاع الملك على العرش سنة ١٨٣٩م ، وكانت هذه هي المرة الثالثة الذي اعتلى فيها كرسي السلطنة .

لكـــن الأمـــر لم يستمر له طويلاً حيث قتله الشعب الأفغاني ، واتجه الأفغان بقوهم إلى الجيش الإنجليزي سنة ١٨٤١م وكان مكوناً من ١٧ ألف جندي وهزموه هـــزيمة مـــنكرة لدرجـــة أنهم أفنوا هذا الجيش عن آخره وثبتوا ملكهم الجديد وهو "دوســـت محمـــد خان " على العرش سنة ١٨٤٢م وظل فيه حتى سنة ١٨٦٣م (١٢٨٠هـــ) [1] حيث توفي في الثانية والتسعين من عمره .

وتـــاريخ أفغانستان بعد "دوست محمد" هو تاريخ جهاد خلفائه في الاحتفاظ بالـــتاج والعـــرش وتوسيع البلاد وتنظيم الإدارة ، فقد حافظ دوست على علاقاته الطيـــبة مع الإنجليز ، وكان دوست ملكاً صالحاً على الرغم من أخطائه وهو الرجل

---

(١) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، المجلد الأول ، ج١ ، ص١٩٧-١٩٨ .

الـــذي اســـتطاع أن يقيم في أفغانستان حكومة وطيدة الأركان ، وقبل وفاته في عام ١٨٦٣م كان قد عهد لخامس أبنائه وهو "شير علي" بالحكم ، إلا أن فتنة قد شبت بيـــنه وبين أخويه الأكبرين "محمد أعظم" و "محمد أفضل" ومع "عبد الرحمن بن محمد أفضل" .

إلا أن "شـــير عـــلي" تمكن من السيطرة على أفغانستان كلها ، واعترفت به حكومـــة الإنجليز في الهند ، على أنه لم يرض عن المعاملة التي عومل بها من الإنجليز ، وذلـــك أنه لم يستطع الحصول على وعد محدود بتأييده على الدول الأخرى وخاصة في نـــزاعه مـــع فارس على منطقة "سجستان" ، فقد قام ضابط بريطاني بالتحكيم في مسألة حدود "سجستان" وانتهى هذا التحكيم سنة ١٨٧٣م بمنح فارس جزءاً كبيراً من أخصب الأراضي [١] .

كـــان هـــذا الموقـــف الانجلـــيزي سبباً في اتجاه "شير علي" إلى الروس فبدأ يفاوضـــهم ورفض أن يستقبل سفير بريطانيا ، وأدت هذه الأمور إلى قيام حرب بينه وبـــين الجـــيش الـــبريطاني استمرت من سنة ١٨٧٨م إلى سنة ١٨٨٠م وانتهت باســـتيلاء الجيش البريطاني على "كابل" وهرب "شير علي" إلى "مزار شريف" حيث تـــوفي ســـنة ١٨٧٩م بعد هزيمة جيشه على يد الإنجليز وأطلق الشعب سراح ابنه "محمد يعقوب" من السجن ونودي به أميراً على أفغانستان ، فتقابل الأمير الجديد مع القوات البريطانية المتقدمة وعقد معها معاهدة في ٢٦ مايو ١٨٧٩م تنازل بمقتضاها لحكومة الهند البريطانية عن أرض معينة بالقرب من ممر "بولان" ووادي "كرم" ووافق على أن يستقبل بعثة بريطانية في كابل .

لكـــن بعد أشهر قلائل شبت فتنة في "كابل" انتهت بذبح أعضاء هذه البعثة الـــتي أرسلها الإنجليز ، وأدى ذلك إلى قيام الحرب من جديد ، فاستولى الإنجليز مرة

---

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مرجع سبق ذكره ، مادة أفغانستان .

أخـرى عـلى "كـابل" وخلعوا "يعقوب خان" ونفوه إلى الهند ونصبوا مكانه "عبد الرحمن بن محمد أفضل بن دوست" .

ولقـد عاش الأمير "عبد الرحمن خان" هذا قبل توليته منفياً في "سمرقند" التي كانـت تحت يد الروس ، وكان قد ذهب إلى هذه المدينة منذ سنة ١٨٧٠م ، وكان يحصل سنوياً من الروس على ٢٥ ألف روبل كمساعدة ومعاش له ، وعلى الرغم من ذلـك فإنـه كـان متيقظاً عالماً بتاريخ الروس ويعلم جيداً أهداف ونوايا الروس في أفغانسـتان ، وكان يعلم أيضاً أن الاعتماد على الروس والصداقة معهم خطأ ، ومن ثم كانت أهم مساعيه منذ تسلم الحكم أن يمتنع عن الارتباط بأي نوع من العلاقات مع الروس وأعطى أوامره الصارمة إلى حراس الحدود الأفغان أن يراقبوا بشدة ذهاب وإيـاب الـروس على الحدود ، وأن لا يأذنوا لأحد منهم مطلقاً أن يدخل الأراضي الأفغانية [1] .

وبعـد تـولي "عبد الرحمن" الحكم بدأ الصراع بينه وبين ورثة "شير علي" ، فجاء ابن من أبنائه هو "أيوب" وجمع جيشاً وهزم به قوة إنجليزية هندية صغيرة ، إلا أن الجـيش الإنجلـيزي هزمه ودعم موقف عبد الرحمن في البلاد ، وقد حافظ "عبد الـرحمن" عـلى وحدة أفغانستان واستقلالها على الرغم من المشاكل التي صادفته في الداخـل والخـارج ، فلما أدركته المنية سنة ١٩٠١م سلم ابنه "حبيب الله" الحكم فأصبح ملكاً على أفغانستان لا ينازعه فيها منازع .

عصر حبيب الله خان (١٩٠١-١٩١٩م) :

تسـلم حبيب الله خان حكم أفغانستان بعد والده عبد الرحمن سنة ١٩٠١م في وقـت كـان التنافس فيه بين الإنجليز والروس شديداً ، ولكن مما أزال المخاوف ظاهـرياً أمام "حبيب الله" أن الدولتين الروسية والإنجليزية عقدت معاهدة بينهما ألا

---

(١) انظر كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" لمؤلف مجهول ، ترجمة د. عفاف زيدان ، مرجع سبق ذكره ، ص٩٥ .

تضم أي دولة منهما أراضي من أفغانستان أو تتدخل في شئونها ، ومن جانبه أيد الأمير في سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) المعاهدة التي سبق أن عقدها أبوه مع حكومة الهند البريطانية الأشراف على العلاقات الخارجية لأفغانستان نظير إعانة سنوية قدرها ١٦٠ ألف جنيه إنجليزي .

أما في الداخل فلم يعكر شيئاً تقريباً صفو السلام والأمن ، وحقق التعليم بعض التقدم ، والتزمت أفغانستان أثناء الحرب العالمية الأولى سياسة الحياد ، واجتهد "حبيب الله" ألا يقترب من الروس ، وكان الروس في هذه الفترة متجهين إلى إيران ، ونزلت قواته بكثافة في إيران ، ومع أن الإنجليز كانوا تعاهدوا بالحفاظ على إيران ، إلا أنهم غضوا الطرف عن العدوان وهذه التجاوزات ، ولم ينبسوا ببنت شفه ضد الروس [1] .

أما بالنسبة لإيران وحقوق الإسلام وحقوق الجوار فقد كان الوضع كما هو عليه المسلمون الآن تجاه قضية أفغانستان ، ففي الوقت الذي كان فيه الروس مشغولين بالقتل والعدوان والأعمال الوحشية ، كان المسلمون في كل أنحاء العالم في وضع المتفرج ، وفي بعض الأحيان كانوا يظهرون التأثر بالأقوال فقط ، هؤلاء هم المسلمون ينظرون والروس منصرفون إلى القتل والنهب ، وكأن الروس قد أدركوا هذا الوضع جيداً في ديار المسلمين منذ بداية ضعفهم والانصراف إلى أنفسهم وعدم الاتحاد والتعاون بينهم ، فكانت كل دولة بمفردها والآخرون منصرفون في غير اكتراث ولا مبالاة ، وكانت قوى الاستعمار تستفيد بكل ما كانت تملكه من مكر وحيل ، وضربت الدول الإسلامية ببعضها ، ثم أظهروا أنفسهم على أنهم أهل المروءة الذين يحرصون على عدم قلق المسلمين بالخدع والجرائم ، مع أن الاستعمار في ذلك

---

(١) العلاقات الأفغانية الروسية ، فالمؤلف مجهور رمز إلى اسمه بـ "حق شناس" ترجمة د. عفاف زيدان ، نشر دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة سنة ١٩٩٢م ، ص١٠١ ، وذكرت المترجمة بشأن إخفاء اسم المؤلف ما يلي : "اضطلع بتأليف هذا الجهد الكبير أحد المجاهدين بالقلم ، ولم يشأ أن يذكر اسمه وإنما استعار له اسماً هو : "حق شناس" ربما لظروف اقتضتها طبيعة الجهاد الأفغاني " ، ص١٤ .

الوقت كان في خوف من الإسلام واتحاد المسلمين على نحو ما يحدث اليوم من القلق الـــذي ينـــتاب جميع أنحاء العالم خوفاً من صحوة الأمم الإسلامية ، وتتعاون الدول الاستعمارية وتبذل أقصى جهدها في سبيل إضعاف المسلمين والقضاء على قوتهم [1].

وزادت أساليب الجاسوسية وانتشرت للروس الحدود لإثارة الاضطرابات في عهد الأمير حبيب الله خان ، وإليك نماذج مختصرة من هذه الأساليب الاستعمارية :

حاول الروس نشر منظمات الجاسوسية للوصول إلى أغراضهم في أفغانستان وتهيـــئة الأرض لتطبيق مخططاتهم الاستعمارية ، فبدأوا في التعرف على أوضاع البلاد وأحوال أهلها ، وأيضاً خصوصيات المجتمع والنواحي الثقافية والجغرافية ، ويحاولون تجنيد الأفراد لخدمتهم والتعاون معهم حتى الثقافة والجغرافية ، ويحاولون تجنيد الأفراد لخدمتهم والتعاون معهم حتى يكونوا في المستقبل مرشدين وفاتحين الطريق لهم ، وهذا الأمر من بديهيات المدرسة الاستعمارية الروسية ، وتحت اسم التبادل التجاري تتوغل روســـيا حـــتى تصل إلى المسائل الثقافية والاقتصادية والعسكرية ، ثم تهيئ مخططات للانقلاب وتضرب المؤسسات الوطنية وتسقط الحكومات وتوصل العملاء المأجورين الذين أدوا الخدمة للروس عن طريق الجاسوسية .

ومـــن جملة الوسائل التي استفاد بها الروس في شباك الجاسوسية المال والنساء والرشوة والتظاهر باعتناق عقائد الآخرين .

وفي عهـــد الأمير "حبيب الله خان" استخدموا أساليب متنوعة في الجاسوسية كمـــا يقول صاحب كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" ، فقد دخلوا إلى أفغانستان بطرق مختلفة وفي ألبسة متنوعة فقد نشرت مجلة "سراج الأخبار" ما يلي :

"من مدة يدخل الروس إلى أرض أفغانستان الطاهرة بأشكال وهيئات مختلفة، ولمـــا وجدوا أن أسهل طريق هو طريق الإسلام ، فقد احتالوا على الدخول باعتناق الإســـلام مـــع أن اعتناق الروس للإسلام بعد الآن من المستحيلات ، إذن فقد كان

---

(١) المرجع السابق ، ص١٠٢ .

مقصدهم الوحيد أن يعبروا من تركستان حتى يلاحظوا بدقة الطرق والمعابر في وادي خيـــبر ، ويأخذوا معهم ما جمعوه من المعلومات اللازمة ، وفي غاية الراحة والسهولة كانوا يوفقون في تحقيق هذا المقصد ، لأنهم حينما كانوا يعبرون من نهر "آمو"[١] كان الموظفون الأفغان يصحبونهم إلى كابل في ظل حراستهم" [٢] .

وقد سقط عدد كبير من جواسيس الروس في قبضة أفغانستان ، لكن الروس كـــانوا يغطون هذا بالحيلة والمكر والدهاء حتى لا ترفع أفغانستان رأسها بالشكوى والعـــتاب ، وكـــانوا من آن لآخر ينشرون في جرائدهم أخبار كاذبة بالقبض على جواسيس أفغان في روسيا مدعين أن المتهمين كانوا يقصدون مد أفغانستان بالخرائط والنظم العسكرية للحدود .

وحقـــيقة الأمر أن الروس كانوا يقبضون في روسيا وتركستان على عدد من الأفـــراد الـــثائرين ضد الدولة الذين ينادون بالحرية ، ولهذا السبب كانوا يقبضون عليهم وأقل جزاء لهم هو النفي إلى سيبريا . . .

وكـــانوا يتجسســـون على علاقات الأمير "حبيب الله خان" بجيرانه والدول المجاورة حتى يعرفوا ماهية هذه العلاقات ، وكانت روسيا تريد أن تنفذ إلى التعليم في أفغانستان وخاصة التعليم العسكري ، لكن الجرائد الأفغانية كانت تقول :

"إننا لا نستطيع أن نتعلم العلوم والفنون الحربية والعسكرية من دولة مجاورة بـــأي وجهـــة ، ويجب أن نتصور أن جلب ضباط من هناك هو هلاك لأنفسنا ؛ لأن الفرق التي رباها الروس في إيران تعتبر درساً عظيماً وعبرة عظيمة " [٣] .

---

(١) آمـــو : نهر عرفه اليونان باسم أكوس ، وعرفه العرب باسم "جيحون" ، وهو أهم الأنهار في آسيا الوسطى ، وينـــبع من جبال بامير ويصب في بحيرة أورال ، وقد أطلق العرب اسم "بلاد ما وراء النهر" على البلاد التي تقع خلف هذا النهر وهي البلاد الإسلامية المعروفة ببلاد التركستان ، المرجع السابق ، ص١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٠٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص١١٣ .

ولم ييأس الروس وبذلوا المساعي في عهد الأمير "حبيب الله خان" لإيجاد طريق إلى أفغانستان ، ومن بين هذه المساعي : العمل على إنشاء خط حديدي في أفغانستان يمتد إلى أوروبا ، وفي أكثر المشروعات كان كل من الإنجليز والروس يقترحون اقتراحاً وحيداً مشتركاً ، وكان ذلك دليلاً بارزاً على اتحاد نظرهما ومنافعهما المشتركة ، لكن هذه المخططات فشلت ومقترحاقم ردت ، وكان الأمير "حبيب الله" صامداً في ثبات وصلابة أمام الروس ، فكان يقف ويقاومهم في صراحة وشجاعة ، وفشل الروس في عملهم الدؤوب للإيقاع بالأمير في الشباك والتسلل بين الناس .

لكن الروس استطاعوا أن ينتصروا في النهاية على الأمير عن طريق العلاقات التجارية ، وقد دعم الروس شبكات الجاسوسية الخاصة بهم عن طريق التجارة ، وأعطوا امتيازات كثيرة للتجار الأفغان ، وكانوا يعملون على تخفيف الضرائب والأموال التي تجبيها الدولة من التجار ، وبهذا ارتفعت أرقام تجارة أفغانستان مع روسيا إلى أعلى رقم حتى أنه في عام ١٩٠٦م كان ميزان التجارة مع الروس قد وصل من حيث الواردات إلى خمسة ونصف مليون روبل ، ومن حيث الصادرات وصل إلى أربعة وعشرين مليون روبية ، أي ثمانية ملايين روبل ، وكانت السلع التي تصدر إلى الروس عبارة عن : الصوف ، والقطن ، والفاكهة الجافة والطازجة ، أما السلع التي كانوا يوردونها فهي عبارة عن القطع الحريرية الموشاة بالذهب ، والصوف والألومنيوم ، والزجاج ، والحلويات ، والعطور، والأحذية الطويلة الخاصة بالثلوج ، والأحذية العادية ، وأشياء أخرى مثل الساعات وأمثالها .

ونظراً لصمود الأمير "حبيب الله خان" أمام المطامع الروسية والإنجليزية ، فقد تم اغتياله بصورة غامضة في مدينة "لقمان" يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٣٧هـ (٢٠ فبراير سنة ١٩١٩م) وكان في هذه الفترة في معسكره في قلعة "كوش" .

ويـــرى مؤلف كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" أن قتل الأمير حبيب الله مهمـــا كان الدافع له والباعث عليه ، ومهما كانت يد الشخص التي نفذت هذا فإن بريطانـــيا وروسيا كلاهما قد اشتركت في هذه المؤامرة ، وكانت أهم البواعث على القتل هي الخوف من تنفيذ اتحاد الممالك الإسلامية [١] .

وصـــفوة القـــول أن الأمـــير "حبيب الله خان" كان أكثر الناس احتياطاً في علاقاتـــه مع الروس ، واستفاد من الخبراء والمهرة والأتراك في المشروعات العسكرية والصـــحية والاجتماعية والطباعة ، وحتى آخر دقيقة لم يسمح لأي روسي أن يدخل أفغانســـتان تحت اسم هذه الوظائف ،ولكن إقرار العلاقات التجارية مع الروس قد حطـــم هـــذا الســـد، وهيأ أجمل طريق وأحسن فرصة كان الروس في انتظارها منذ ســـنوات واستغلوها أبشع استغلال حيث كانت نهاية الأمير المحزنة والذي صمد في وجههم طويلاً .

وبعـــد اغتـــيال "حبيب الله خان" نادى أخوه "نصر الله" بنفسه خليفة له ، ولكـــن الابن الثالث للأمير الراحل واسمه "أمان الله" اعتقل عمه وسجنه وكان "أمان الله" قد حصل على تأييد من الجيش .

عصر الأمير أمان الله خان :

تولى "أمان الله خان" أريكة السلطان إبان الحرب الثالثة التي كانت دائرة بين الأفغـــان والإنجلـــيز ، وكانـــت متاعب الأفغان على أشدها ، ووصل بؤس الشعب وشقائه إلى غايته ، لكن "أمان الله خان" سعى بعد شهر فقط من تعيينه إلى عقد هدنة مـــع الإنجلـــيز ، واعـــترف الإنجليز رسمياً له باستقلال أفغانستان ، كما نجح في عقد معاهدة جديدة مع الاتحاد السوفيتي ، ومع ذلك استمر التوتر على الحدود الشمالية حـــتى سنة ١٩٢٢م ، وعلى الحدود الجنوبية الشرقية حتى سنة ١٩٢٤م ، وفي سنة ١٩٢٢م صـــدر الدستور الأفغاني في جمعية وطنية ، أعقبه في سنة ١٩٢٣م القانون

---

(١) المرجع السابق : ص١١٥ .

الخـــاص بـــإدارة الـــبلاد ، وفي سنة ١٩٢٤م قامت إجراءات لتوفير التعليم العالي للمرأة.

لكـــن قامـــت ثورة شعبية بزعامة "الملا عبد الكريم" ألغت إجراءات توفير التعلـــيم للمرأة ، وعدلت قوانين التجنيد ، لكن الثورة أخمدت في نهاية الأمر على أن الملك "أمان الله" اتخذ لقب الملك في ديسمبر سنة ١٩٢٦م [١] .

ولقـــد دعى "أمان الله خان" لعقد جمعية وطنية ثالثة بعد عودته من رحلة زار فـــيها كـــلاً مـــن الهند وأوربا والاتحاد السوفيتي وتركيا سنة ١٩٢٨م ، وتم إصدار دستور جديد للبلاد وإعلان برنامج للإصلاحات الاجتماعية والتعليمية .

وكـــان الأمـــير "أمـــان الله خان" نقطة تحول في تاريخ العلاقات السياسية الأفغانية الروسية ، فقد اتصل بالزعيم الشيوعي "لينين" عن طريق الرسائل والرسل ، وبذلك هيأ الفرصة لدخول الروس أرض أفغانستان وتحقيق أحلامهم القديمة ، وكان بذلك "أمان الله خان" أول حاكم لبلد إسلامي يبعث ببعوث ومراسلات إلى موسكو بعـــثة برئاسة "محمد ولي خان" وغادرت هذه البعثة كابل في سنة ١٩١٩م ووصلت إلى موســـكو في أكـــتوبر من العام نفسه ، واستقبلت البعثة استقبالاً حافلاً من قبل مســـئول الحـــزب عـــن الأمور الخارجية الذي قال لمحمد ولي خان :"إننا نعلم أنكم تحـــتاجون إلى المساعدة الخارجية الذي قال لمحمد ولي خان :"إننا نعلم أنكم تحتاجون إلى المســـاعدة ، وروســـيا مســـتعدة أن تعاونكم " ، وأظهر محمد خان الامتنان في الجـــواب، وبعـــد إظهار التمنيات الطيبة من أجل "لينين" قال : "إننا محتاجون جداً لمساعدة روسيا ونعلم أن مسلمي روسيا يتمتعون بالحرية الآن" [٢] .

وفكـــرت روسيا منذ بداية عهد أمان الله خان في المساعدات العسكرية لكي تصـــل إلى جيش أفغانستان ، فأرسلت بعثة روسية إلى كابل ومعها مذكرة أبدى فيها

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٦٥٨ .

(٢) العلاقات الأفغانية الروسية ١٨٢٦-١٩٨٤م ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٩ .

الــروس اســتعدادهم في أن يمدوا أفغانستان بالمال والسلاح والمهمات والمساعدات العلمــية عــلى أن تكــون أفغانستان مستعدة للتعاون والاشتراك مع الروس ضد بريطانيا، ولقد وصف صاحب كتاب العلاقات الأفغانية الروسية هذه الخطوة بقوله :

"إن إقدام الروس على تلك البداية كان بمثابة الخيط المتين الذي كانت تهدف روســيا إلى أن تقيد به إقدام رجال الدولة في أفغانستان وتستفيد من أهل بلادنا في تشييد آمالها الاستعمارية في المنطقة ضد بريطانيا " .

وكــان مــيل " أمــان الله خان " إلى الروس وآماله في الصداقة مع الاتحاد السوفيتي لا يرجع إلى حماية الروس لاستقلال أفغانستان ، ولكن لأن الروس في تلك الأيام برزت لهم مشاكل بعد الثورة ، وكان هذا الأمير المغرور المستبد يندفع فقط في عواطفه للقرب من الروس والصداقة معهم ، وكان يتظاهر باتخاذ موقف ضد الإنجليز وأرســل "لينين" رسالة أخرى ل "أمان الله خان" ، وعين "براوين" قنصلاً لروسيا في أفغانســتان ، وكــان من الروس البيض (أي من روسيا البيضاء) ، ولم يكن متفائلاً بالــنظم الروســية الجديــدة ، وكان يحذر "أمان الله خان" من القرب من الروس ، واســتقال من منصبه بعد عام وطلب الجنسية الأفغانية ، لكنه قتل في "غزنة" بتوصية من الروس وبمساعدة أفغانستان .

وفي الــثامن والعشــرين من فبراير عام ١٩٢١م وقع "أمان الله خان" أول معــاهدة بــين أفغانستان والاتحاد السوفيتي ، وفي السابع من نوفمبر ١٩٢٦م وقع "أمــان الله خــان" معاهدة أخرى تنص على حياد أفغانستان ، وكان الذي قام بعقد هــذه المعاهدة وزير خارجية أفغانستان "محمود بك الطرزي" ، وسميت هذه المعاهدة بــــ "معــاهدة بغمــان للحياد وعدم الاعتداء" ، ونصت المعاهدة في المادتين الثانية والثالــثة على أن أي نوع من التدخل المسلح وغير المسلح وإلحاق الضرر العسكري والسياســي بأحدهمــا للآخر يعتبر مرفوضاً ، وأيضاً أبدت أفغانستان رسمياً في هذه المعــاهدة رغبتها في بقاء الدول الإسلامية حرة ، ومنها "سلطنة خيوة" و "بخاري" ،

ولكـــن لم يمض زمن طويل حتى نقض الروس هذه المعاهدة واستولوا على "خيوة" و "بخاري" .

وكان رد فعل "أمان الله خان" على احتلال بخاري الذي أغضب المسلمين في أفغانســـتان هو أنه أرسل المساعدات العسكرية لهذه الدولة ، ولكن هذه المساعدات كانت قليلة ، ولذلك لم يكن لها أي تأثير ، وأجبروا "سيد عالم شاه" ملك بخاري على أن يرحل إلى "كابل" وظل بها حتى مات [1] .

أفغانستان بين العلمانية والإسلام :

أمـــا علاقة "أمان الله خان" بالإنجليز فقد كان متفاهماً معهم ، وكان هو أحد ثلاثـــة في الشرق يعول عليهم الغرب ويعقد عليهم آمالاً كبيرة في التغيير العلماني ، والـــثاني هـــو "مصطفى كامل" في تركيا الذي كان معاصراً له ، والثالث هو "رضا بهلـــوي" شاه إيران ، فقوى علاقته بهما ، ومنحه الإنجليز استقلالاً مزيفاً لأنه شجع العلمانـــية منذ عام ١٩٢١م (١٣٤٠هـ) ، ومضى قدماً في تغريب البلاد ، فأعلن سفور المرأة ونادى بتحريرها ، وكان شاباً طموحاً لا يعبأ بالشعب .

واســـتاء الـــناس من "أمان الله خان" بعد فترة قليلة ، وأخذ إحساس الناس بالنفور منه يتزايد بعد أن شاع بينهم أنه كان له يد في مقتل أبيه ، ولكن كانت لديه براعة في الاندماج مع الناس ومحاربته للفوضى والفساد الإداري الذي كان قد ظهر في أواخـــر أيـــام والده "حبيب الله خان" ، وكل هذا هيأ له الفرصة بالتمتع بمكانة خاصـــة عامـــاً أو عامين بين أهل "كابل" خصوصاً الشباب وطبقات المثقفين ، ولأنه اهتم بالمؤسسات التعليمية والتربوية .

وكـــان يحـــاول أن يقضي على مشاكل الناس عن طريق الأعراف والتقاليد القبلـــية ، ولذلك كون مجلساً كبيراً برئاسته ضم بعض قادة القبائل ، وقد أطلق على

---

(١) المرجع السابق ، ص١٢٢-١٢٣ .

هــذا المجلس "المجلس الكبير" ، ويضم أعضاء البرلمان وأعضاء مجلس القضاء الأعلى ومجلس الوزراء وقرارات هذا المجلس نهائية .

وســافر "أمــان الله خان" إلى إيطاليا هو وزوجته الملكة "ثريا" عام ١٩٢٧م وســافر إلى الهــند في نفس العام ومصر وفرنسا وسويسرا وبلجيكا وألمانيا وبريطانيا وبولندا وتركيا ، واستغرقت هذه الرحلة من ديسمبر ١٩٢٧م حتى يوليو ١٩٢٨م، وبقــي "أمان الله خان" في روسيا مدة طويلة ، وعند عودته أطلق يده في مشروعات ســريعة وخطــيرة عــندما رأى التقدم العلمي والفني لدى هذه الدول ، وأسرع في الــنهوض بأعمــال كــان قبولها في المجتمع الأفغاني غير ممكن ، ولم يراع الظروف الاجتماعية في أفغانستان ، فعلى سبيل المثال :

١- اختياره ليوم الأحد ليكون إجازة بدلاً من يوم الجمعة مقلداً بذلك "مصطفى كامل أتاتورك" .

٢- فرض التقويم الميلادي بدلاً من التقويم الهجري .

٣- فرض على الناس أن يكون تجوالهم في المدينة بلبس القبعة الأفرنجية.

٤- أمر الناس بأن يكون رفع القبعة دليل على التحية بدلاً من السلام.

٥- أمر بخلع الحجاب وهذا الأمر لم يستطع الناس أن يتقبلوه ، ورفعت الملكــة "ثــريا" النقاب عن وجهها ، وظهرت في المجتمعات بوجه عاري لأول مرة ، وأمر "أمان الله خان" أن يتخلى الناس جميعاً عن أزيائهم المحلية والدينية ويرتدوا الحلة ورباط العنق والقبعة .

وفي أعقــاب هــذا الأمــر قبض رجاله على كل من يرتدي العمامة ومزقوا عمامتهم ، وفي سلسلة هذه التغييرات أرسل عدداً من الفتيات للدراسة إلى الخارج .

وتســببت هذه الأعمال في إثارة غض الناس ونفورهم ، واعتبروها خروجاً على قيمهم الوطنية ودينهم ، وبلغ ضيق الناس وتبرمهم منه إلى الذروة في جميع أنحاء أفغانستان .

ونتـيجة لأعمـال "أمـان الله خان" التي تتنافى مع السنن والقيم والمقبولة اجتماعـياً وكذلـك محاكاته للتقاليد الأوربية التي لا أساس لها ثم التحلل من القيم الأخلاقـية والاجتماعـية ، نتـيجة لذلك ثار ضده أهالي أفغانستان في "منجل" و "خدران" سنة ١٩٢٣م ، واستمرت ثورتهم عاماً كاملاً ، ولكن في النهاية قضى على ثورتهـم ، وتم إعداد الكثير منهم ، وكانوا لا يملكون سلاحاً كافياً للمقاومة ، ولكن استمر غضب الناس وعصيانهم .

وفي شتاء عام ١٩٢٨م بدأت مدينة "جلال آباد" ومدينة "شينوار" في الثورة ، وامـتدت الثورة إلى "بروان" و "كابيا" واحتل عدد من الفلاحين والعياريب مدينة "كابل" تحت قيادة زعيم لهم يسمى "حبيب الله كلكاني" ، وفي يونيو ١٩٢٩م دخلوا القصـر الملكي ، وكان العلماء المجاهدون في أفغانستان هم الذين دعوا إلى الثورة ، وأول من رفع راية الجهاد ضده "الملا عبد الله" الأعرج ، ومعنى الملا في أفغانستان أي الشيخ ، و "محمد أفضل خان" ، ثم دخلت عائلة المجددي ساحة المعركة بقيادة المغفور لـه "محمـد صادق خان المجددي" والمرحوم "محمد معصوم خان المجددي" وانضموا واتحدوا مع العالم المستفيد والفقيه المعروف القاضي "عبد الرحمن خان اليغماني" الذي كان يرأس محكمة النقض ، فقاد هؤلاء الثورة ضد "أمان الله خان" وقد قبض عليهم جميعاً بواسطة جنود "أمان الله خان" وأحضروا إلى "كابل" ، وتم إعدام القاضي "عبد الـرحمن خان" واثنين من أبنائه وابن أخته بصورة وحشية مفجعة واستمرت محاكمة عائلة مجددي ، لكن هجم أهلهم وأنصارهم على "كابل" وأجبروا "أمان الله خان" أن يفـرج عنهم ويعتذر لهم ، وبعد ثورة الأهالي ضد أمان الله خان التي صاحبها القمع والتعذيـب والإرهـاب والتي قتل فيها مئات من العلماء والفضلاء انضم الناس إلى صـفوف قـائد الثورة "حبيب الله الكلكاني" وفضلوه على "أمان الله خان" ، وترك "أمـان الله خـان" القصر الملكي وذهب إلى "قندهار" وظل فيها حتى وعده الروس بالمسـاعدة ، وأرسـلوا إليه عدداً من الجنود مع سفير أفغانستان في "كابل" ، وقام

الـــروس بقصـــف نواحي "مزار شريف" و "حياة آباد" و "أيبك" و "تاشقر غان" ، وأصـــدر عـــلماء الديـــن فتوى بالجهاد ، وعلى إثر هذه الفتوى بدأ الناس وطلاب المـــدارس يـــرتدون الأكفان ويذهبون إلى الجهاد مكتحلي الأعين معطري الأجساد مفتخرين بارتداء خلعة الشهادة .

وفضـــل العـــلماء ومشاهير أفغانستان "حبيب الله الكلكاني" على "أمان الله خان" وشرفوه بلقب خادم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعوا على رأسه تـــاج الملك ، وهرب "أمان الله خان" إلى روما وظل منفياً بها ، ولكنه كان خالياً من الخبرة ، وليس لديه تجارب كافية ، وجمع حوله عدداً قليلاً من الأفراد لديهم خبرة أو تجـــربة ، فلم يستطع أن يهدأ الأوضاع الثائرة في البلاد ، ولكن الذين أحاطوا به — وكـــانوا رفاقه ومساعديه في الثورة — قد أطلقوا أيديهم في أعمال أضرت بسمعته ، وعـــلى الرغم من أن "حبيب الله" كان واحداً من العيارين في القرن العشرين الذين يـــثورون في وجـــه الطغاة الظالمين ، وكان النصر حليفهم ، ويرى البعض أن "حبيب الله" هـــو أول شـــخص وضـــع الأساس لثورة الشعب في أفغانستان ، لكن الروس والإنجليز عملوا على القضاء على نظام حكمه ، لأنه كان سيؤول إلى حكومة شعبية مستنيرة .

ولكـــن حبيـــب الله هذا كان مثل الشوكة في أعين الإنجليز ، ولهذا السبب كـــانوا يبحـــثون عن شخص جديد لا يستطيع أن ينفذ أوامر لندن ، ولذلك خلعوا "حبيب الله الكلكاني" بعد تسعة أشهر ، وأجلسوا "محمد نادر شاه" على أريكة الملك — وهـــو ابـــن "أمان الله خان" — الذي لم يستمر في الحكم طويلاً حيث اغتاله أحد طـــلاب الكلية الحربية ، فانتقل الحكم إلى ابنه الوحيد "محمد ظاهر شاه" وهو في سن المـــراهقة، وفي عهد هذا الملك الصغير قويت علاقة أفغانستان مع روسيا ، حيث تولى رئاسة الوزراء رجل طموح هو "محمد داود" ابن عم الملك المعروف بميوله الشيوعية ، ومـــن ثم فتح البلاد على مصراعيها أمام الروس ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً ، وتدفق

تالخبراء الروس إلى البلاد ، وأرسلت أفغانستان مئات الطلاب إلى روسيا سنوياً ليتعلموا وخاصة في المجال العسكري الذي احتكره الروس في أفغانستان تدريباً وتسليحاً ، ومن هنا قويت أطماع الروس في البلاد [١] .

وقد قام جواسيس "محمد داود" بأنشطة واسعة النطاق وخاصة الشباب المستنير ، وفي أثناء هذه الأحداث نهضت جماعة من المستنيرين المحبين للوطن المتحمسين له ، فأقاموا الندوات والمحاضرات في كل مكان ، وأطلقوا على "محمود خان" رئيس الوزراء المخلوع "أبو الديمقراطية" .

وبدأ "محمد داود" يجمع الأفراد حوله خصوصاً الوجهاء وذوي النفوذ وكل من يتفق معه في آرائه ونظرياته ، وبذلك يستطيع أن يوطد روابطه بمؤسسات الدولة والبرلمان ، وأنشأ لهذا الغرض نادياً يسمى النادي الوطني وأعلن أن أهداف النادي الوطني ، وأعلن أن أهداف النادي المذكور هو تأمين الوحدة الوطنية .

ولم تكد تمضي ستة أشهر على وزارة "محمد داود" حتى أطلق الروس أيديهم في أعمال أساسية ومشروعات بنائية ، وأنجزوها في سرعة وعجلة عجيبة ، وتم توقيع بروتوكول التجارة بين البلدين لمدة ثلاث أعوام واستقبلته الجرائد استقبالاً لم يسبق له مثيل ، وفي سنة ١٩٥٤م تم إنشاء مخبزين آليين بقرض من روسيا .

ولكن باكستان وأمريكا كانتا قلقتين من تغيير الأوضاع في أفغانستان ، والتقارب الزائد عن الحد بين "محمد داود" والروس ، وخصوصاً ما كان يتم في الخفاء من أحداث ، وقد أدى هذا إلى تصميم باكستان على طلب حماية أمريكا ، وكانت أمريكا أيضاً ترى أن مصالحها في خطر بالنسبة لنفوذ وتقدم الروس في المنطقة ، فكان لابد لها أن تساعد باكستان في المسائل العسكرية ، ومن ثم وقعت أمريكا معاهدة سنة ١٩٥٤م بينها وبين باكستان تعهدت فيها أمريكا بتدريب العسكريين الباكستانيين وتهيئة الوسائل الحربية لهم .

---

(١) انظر للمؤلف كتاب "المسلمون في آسيا الوسطى وإيران" ص١٨٩-١٩٠ .

بداية التنظيمات الشيوعية في أفغانستان :

وبـدأت التنظيمات الشيوعية تعمل في أفغانستان ، وكان "محمد داود" خير نصير لها ، ففي سنة ١٩٤٧م أسس الشيوعيون جماعة "ويش زلميان" أي "جماعة الشباب اليقظ" ، ومارست نشاطها ، وأصبح لها وجود في البرلمان ، وأصدرت صحيفة "نداء خلق" أي "صوت الشعب" ، وعندما اشتد ساعدهم قاومتهم الحكومة وعطلت صحيفتهم ، غير أنه عندما أصدرت الحكومة قانون الصحافة الحرة سنة ١٩٦٠م تشجعت الحركة الشيوعية ، وأخرجت صحيفة "خلق" أي "الشعب" . ورأس تحريرها "نوار محمد ترافي" ، الذي تولى رئاسة الجمهورية فيما بعد ، وكانت هذه الصحيفة لسان حال الحزب الشيوعي في البلاد ، الذي عرف منذ ذلك الوقت باسم "حزب خلق" ، وعلى الرغم من أن الملك جرد "محمد داود" من منصبه سنة ١٩٦٤م ، عقب إجراء تعديل دستوري ، إلا أن سلطته ظلت قوية في البلاد لمناصرة الشيوعيين له وأخذ يعمل سراً من أجل قلب نظام الحكم .

الانقلاب الشيوعي في أفغانستان :

وفي ١٧ من يوليو عام ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ) قام "محمد داود خان" مع أنصاره بانقلاب أنهى به الحكم الملكي ، وأعلن الحكم الجمهوري ، وأصبح "محمد داود" أول رئيس للجمهورية الأفغانية ، التي أطلق عليها زوراً "جمهورية أفغانستان الإسلامية" ، وعلى إثر قيام هذا الانقلاب تولى الشيوعيون أهم المناصب ، وقاموا بالدعاية للنظام الجديد ، وتمكنوا من البلاد في عهد جمهورية محمد داود ، وخاصة في مجال الاستخبارات والمجال العسكري ، ولم يكن الشيوعيون مخلصين لمحمد داود بقدر إخلاصهم لموسكو [١] .

وكان بالبلاد تنظيم إسلامي قوي لجماعة إسلامية ، استمدت تنظيمها من جماعة الإخوان المسلمين المصرية ، وأطلقت على نفسها "الجمعية الإسلامية الأفغانية".

---

(١) جريدة الشرق الأوسط السعودية ، عدد٤٥٧ بتاريخ ١٩٨٠/١/١م .

وأنشأها شاب من خريجي الأزهر هو "غلام محمد نيازي" [1] سنة ١٩٥٩م ، وآثرت هـذه الجمعية أن تعمل في السر نحو عشر سنوات ، ونشط فرعها الطلابي في الجامعة باسـم "الشبان المسلمون" ، واستطاعوا أن يخلصوا الجامعة من سيطرة الشيوعيين ، ومـن ثم عمل "محمد داود" قبل قيامه بالثورة حسابهم ، فاستمال أنصارهم في الجيش والحياة المدنية ، وأغراهم بأنه سيقيم حكماً إسلامياً إصلاحياً ، ولكن عندما بدأ يحس باستقرار وضعه ، ألغى من اسم جمهوريته عبارة "الإسلامية" ، واكتفى باسم "جمهورية أفغانستـان" ، وبـدأ يعـين الشيوعيين في مواقع السلطة ، فعارضه زعماء الحركة الإسـلامية ، وشـنوا عليه هجوماً بلا هوادة ، وقالوا بأنه غير مؤهل لقيادة جمهورية إسـلامية كما ادّعى من قبل ، وقالوا بأنه تربى في فرنسا ، في أحضان الحاقدين على الإسـلام ، وكـان معروفاً بالظلم منذ تولى المناصب ، ومكن الشيوعيين بعد انقلابه عـلى ابن عمه ، فأعلن داود أن زعماء الاتجاه الإسلامي أعداء للثورة ، وزج بهم في السجون ، وكانت هذه الردة هي التي مكنت للشيوعيين بدرجة أكثر من ذي قبل .

وخشيت روسيا من قوة الحركة الإسلامية على العودة ، فعملت جادة بمعونة أنصـارها في الداخـل على الإطاحة بمحمد داود الذي أدى غرضه المحلي من وجهة نظرها .

وعـلى الـرغم من أن محمد داود تنبه لخطئه المميت ، إلا أن ذلك كان بعد فـوات الأوان ، فقد كان الشيوعيون قد رتبوا أمورهم مع موسكو للانقضاض عليه بزعامة "نور محمد تراقي" .

وفي ٢٧ من إبريل عام ١٩٧٨م أطاح الشيوعيون بنظام داود ، وهكذا خان الشـيوعيون نصيرهم محمد داود ، الذي مكن لهم في البلاد ، وانقلبوا عليه وقتلوه ، وجميع أفراد أسرته وأقربائه دون رحمة ، حيث قتلوا في الساعات الأولى من الانقلاب

---

(١) عميد كلية الشريعة بجامعة كابل .

نحو ١٢٠٠٠ نسمة حسب ما يذكره المحللون ، وهناك من يذكر أضعاف هذا العدد من القتلى .

ولقد أعادت لنا هذه الانقلابات الشيوعية في العالم الإسلامي صورة ما كان يحدث في العصور القديمة والوسطى ، عندما يتخلص المنتصرون من خصومهم تخلصاً جسدياً بالجملة وبلا رحمة ، سواء منهم الصغير القاصر والكبير العجز ، وسواء أكان رجلاً أو امرأة .

وقـــدم الشـــيوعيون كبش فداء لحركتهم خوفاً من فشلها ، وهو رجل غير معـــروف يسمى "الجنرال عبد القادر" ، ليعلن على الناس قيام الانقلاب على أساس الإســـلام والعدالة والديمقراطية ، ورحب المغفلون بالانقلاب ، ولكن بعد يومين من وقوع الانقلاب ظهر قادته الحقيقيون من الشيوعيين على مسرح الأحداث ، فأعلنوا عـــن قـــادتهم ، وكان كلهم من الشيوعيين بزعامة "نور محمد تراقي" رئيس الحزب الشيوعي الذي أطلقوا عليه أبو الثورة الأفغانية .

وبعد عام ونصف من قيادة "نور محمد تراقي" تخلص الشيوعيون منه ، وذلك بعـــد عودته من موسكو في التاسع من أكتوبر عام ١٩٧٩م ، وقيل "إنه استقال من منصبه بسبب فقدان عقله وجنونه" ، والواقع أنه قتل بعد توديع "بريجنيف" (الرئيس الســـوفيتي) لـــه في مطـــار موسكو ، وطبع على جبينه قبلة وصفتها وكالات الأنباء والصحافة بأنها "قبلة الموت" التي تعود الروس أن يودعوا عملاءهم بها عندما يرغبون في التخلص منهم ، وفقاً لطبيعة الشيوعية التي لا تعرف خلقاً ولا جميلاً ولا وفاء .

وأتى الشيوعيون بعد تراقي بعميل آخر هو "حفيظ الله أمين" ، الذي اشتدت الـــثورة الإسلامية في فترته الوجيزة ، التي دامت نحو ثلاثة أشهر ، وعلى الرغم من كـــل ما قدم له من دعم روسي ، لم يستطع القضاء على الثورة الإسلامية في البلاد ، ولا الحد من توسعها وتقدمها إلى جهات جديدة ، ورأى الروس أنه فاشل تماماً .

وعـــند ذلـــك رأى الروس أنفسهم بين خيارين : إما التراجع ، أو التدخل المباشـــر ، فـرجحوا الخـــيار الـــثاني ، بعد أن جاءهم تقارير تشير إلى قتل كثير من المستشـــارين الـــروس ، وهـــروب بعض الجنود من الجندية ، وانضمامهم إلى الثوار بكـــامل أسلحتهم ، وتقدم الثوار فاستولوا على كميات كبيرة من السلاح الروسي ، واستيلاء الثوار على المناطق المتاخمة للاتحاد السوفيتي [1] .

الاحتلال الروسي لأفغانستان :

وزحـــف الروس على أفغانستان في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩م بجيش قوامه مائـــة ألـــف جـــندي ، لسحق المقاومة الإسلامية الّتي اعتبروها خطراً على المناطق الإســـلامية المـــتاخمة لأفغانســـتان ، والخاضعة لروسيا في تركستان الغربية ، ونصب الـــروس عمـــيلاً جديداً لهم ، بعد أن قتلوا "حفيظ الله أمين" ، وكان هذا العميل هو "بابرك كارمل" وهو زعيم حزب "برجم" ، وعين رفاقه في الحزب في مناصب الدولة، وكان بابرك ورفاقه يعيشون في المنفى .

موقف العالم الإسلامي من غزو أفغانستان :

أدرك المسلمون في العالم بعد غزو أفغانستان أن روسيا ماضية في الزحف على بقية الدول المجاورة : باكستان ، وإيران ، وتركيا ، وأن أفغانستان مأخوذة في الطريق إلى غيرها ، فدعا المسلمون إلى مؤتمر إسلامي يعقد في "إسلام أباد" في الثامن من ربيع الأول سنة ١٤٠٠هـــ (٢٦ من يناير عام ١٩٨٠م) .

وفي المؤتمـــر لم يســـتطع أن يفعلـــوا شيئاً لأفغانستان السلبية ، سوى إعلان الأســـف لمـــا حدث ، واستنكارهم للعدوان الأثيم الذي يعتبر خرقاً للقانون الدولي وميـــثاق الأمـــم المتحدة ، ونادى المؤتمر بالانسحاب الفوري الروسي ، ولكن ذلك الطلـــب من مصدر ضعيف وتفرق في الكلمة ، لا من مصدر قوة ، لأن بعض الدول الإســـلامية التي اجتمعت في المؤتمر ، والتي كانت تمشي في ركاب روسيا مثل سوريا

---

(١) جريدة الشرق الأوسط ، عدد ٤٦٩ بتاريخ ١٩٨٠/١/١٥م .

والـيمن الجنوبي وليبيا والجزائر لم تقبل حضور وفد رجال المقاومة الأفغانية للمؤتمر ، وكان هذا منتهى التخاذل والخوف من روسيا ، الذي أملاه الضعف ، ولم تكتف هذه المجموعة بهذا الموقف ، بل هددوا بإفشال المؤتمر إذا أقبل على إدانة روسيا ، وقال بعضهم إذا أدنا روسيا فيجب أن ندين أمريكا أيضاً ، ونتج عن هذا الموقف أن المشتركين في المؤتمر أخذوا يتضاربون بالأقوال لتجريح بعضهم بعضاً ، للتفريق لا للتجميع .

والمضحك المبكي أن المؤتمرين اختلفوا في بداية المؤتمر على اللغة التي تدار بها جلسات المؤتمر ، فالدول التي كانت في الماضي مستعمرات فرنسية طلبت بأن تكون لغة المؤتمر هي الفرنسية ، أما الدول التي كانت مستعمرة إنجليزية فقد أصرت هي الأخرى أن تكون لغة المؤتمر هي الإنجليزية ، ولذلك فإن دول العالم الإسلامي كان انقسامها في المؤتمر انقسام ... إلى روسيا أو أمريكا ، وفي مسألة اللغة كان انقسامهم انقساماً استعمارياً ، وليس هذا في اللغة فقط ، وإنما في الاتجاهات السياسية، والمشارب الأيديولوجية والثقافية (١) .

موقف الدول الغربية من الغزو :

على الرغم من تضارب المصالح بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي ، إلا أنهم يتفقون بشأن كثير من القضايا التي تمس المصالح الإسلامية ، وهذا ما حدث إبان اجتياح روسيا لأفغانستان في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٧٩م ، فعلى الرغم من أن النفاق الأمريكي أدى إلى اعتراض أمريكا الظاهري على عملية الغزو الشيوعي لأفغانستان ، ومنع بعض شحنات القمح الأمريكي عن روسيا ، وقاطعت أمريكا دورة الألعاب الأوليمبية في موسكو سنة ١٩٨٠م ، وغير ذلك من المظاهر الشكلية ، إلا أن أمريكا لم تتحرك عملياً لمساندة أفغانستان ، وإحساس المسلمين الذي لا يخطئ يجعلهم

---

(١) انظر للمؤلف : "العالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر" ، الجزء الأول ، ص١٧٩-٨٠ .

يدركون بأن أمريكا متخوفة هي الأخرى من الصحوة الإسلامية ، التي بدأت في العالم الإسلامي ، وهي متآمرة سراً على ضرب الأماني الإسلامية في كل مكان في العالم .

وقـــد وصـــف "مايكل آدمز" رئيس تحرير مجلة "ميدل إيست انترناشيونال Middle East International" أي مجلـــة الشـــرق الأوسط العالمية ، وصف سياسة النفاق الأمريكي هذه بقوله : "إن رد الفعل الأمريكي يقتصر على سلسلة من البـــيانات المتضاربة التي يرفضها حتى حلفاء أمريكا ، بوصفها ضرباً من النفاق العديم المغزى " [١] .

وأيما كان تقديرنا لموقف العالم الإسلامي وأمريكا ، فإن المعول عليه هو جهاد الشعب الأفغاني وصلابته أمام الشيوعيين ، هذا الشعب الذي لم تفسده أمراض المدنية الحديثة ، وتمكن بهذا الجهاد البطولي من القضاء على هيبة الاتحاد السوفيتي ، حتى قال الرئـــيس الأمـــريكي الأســـبق ريتشارد نيكسون في كتابه "الفرصة السانحة The Moment Seize" : "تمكنـــت المقاومـــة الأفغانية رغم ضعف تسليحها من وقف النفوذ الشيوعي ، وأجبرت موسكو على الانسحاب المهين من البلاد " [٢] .

وعـــندما رأت أمريكا صلابة الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفيتي ، وجدتها فرصـــتها الـــتي لا تعـــوض ، فقامـــت بتشجيع هذا الجهاد ، وتسليح الأفغان ، بل وأوعـــزت لحلفائها في العالم الإسلامي، وهم باكستان ومصر والسعودية ، بالسماح للمجاهدين المسلمين من بلادهم بالاشتراك في عملية الجهاد الإسلامي في أفغانستان ، وبـــدأت باكســـتان تســـتقبل الآلاف من المتطوعين وتدربهم على الحدود بينها وبين أفغانســـتان ، وبـــدأ العـــون مـــن مصر أيام الرئيس الأسبق محمد أنور السادات ، والسعودية على أيام الملك خالد بن عبد العزيز ، وباكستان على أيام الرئيس الأسبق ضـــياء الحـــق ، إلى أن وصل عدد المجاهدين المتطوعين حوالي ربع مليون مجاهد ، إلى

(١) من مقال الكاتب الإنجليزي "مايكل آدمز" في جريدة الشرق الأوسط السعودية بعنوان :"أين تقف يا ريجان؟ " ، عدد ١٩٨١/٩/٦م .

(٢) ص١٣ ، من الترجمة العربية لأحمد صدقي مراد ، نشر دار الهلال المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢م.

جانب الأفغان السجعان ، وانتهى الأمر إلى انسحاب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان انسحاباً مخزياً ، وانتهى به الأمر إلى الفقر واستجداء الغرب لقمة العيش ، ثم السقوط أخيراً ، كما سبق أن ذكرنا .

الموقف في أفغانستان بعد الانسحاب :

بعد انتصار الجهاد الإسلامي في أفغانستان ، بدأ الصراع الداخلي على السلطة ، وتفجرت الحرب الأهلية بين بقايا الشيوعيين بزعامة "عبد الرشيد دوستم"، ومن بقايا أنصار الرئيس الشيوعي المخلوع نجيب ، و "دوستم" من الأوزبك ، وهم طائفة قوية ولهم امتداد في دولة أوزبكستان ، ويأتيه الدعم من روسيا ، التي ما زالت متواجدة في البلاد الإسلامية المستقلة في وسط آسيا ونظراً لأنه شيعي فيأتيه الدعم من إيران ، والجبهة الثانية هي جبهة رئيس الجمهورية "برهان الدين رباني" ، المتحالف مع أحمد شاه مسعود وزير الدفاع السابق ، وهو قائد القوات لبرهان الدين رباني ، والجبهة الثالثة جبهة "قلب الدين حكمت يار" ، وهو من الباشتون ، وهم يشكلون أغلبية الشعب الأفغاني ، ولهم امتداد في باكستان ، وتدعمهم باكستان ، وهو رئيس الوزراء ، أما (رباني) فهو من الطاجيك الذين لهم امتداد في طاجيكستان [١] .

ومن جهة أخرى فإن النظام الحاكم في أوزبكستان يخشى بدوره من الاستقرار في أفغانستان ، ولذلك يحرص على التحالف مع موسكو ، ومع الشيوعيين في طاجيكستان ، وموقف روسيا واضح لأن يلتسن نفسه يقول "إن حدود روسيا الاستراتيجية هي حدود الجمهوريات الأسيوية الإسلامية " ، ويزيد الآن من التأكيد على هذا الاتجاه ما يعلنه رئيس المعارضة (فلاديمير جرينوفسكي) ، الذي يتزعم الآن حركة التعصب القومي والعرقي الروسي ، ويطالب بإخضاع الجمهوريات الإسلامية لروسيا ، أو إعادة ضمها إليها .

---

(١) جريدة الوفد المصرية ، الأحد ١٩٩٤/١/٩ ، من مقال للسفير صلاح بسيوني بعنوان "أفغانستان ١٩٩٤ ، لا مجال للتفاؤل" .

وليست الأمر يقتصر على روسيا ، فهناك قوى إسلامية مجاورة ، كإيران وباكستان ، كل منهما تود أن تلعب دوراً في أفغانستان ، بحيث تصل القوى الموالية لها إلى الحكم ، كل هذا يؤجل من الاستقرار في البلاد ، ولا يجعلها تجني ثمرة جهادها الطويل ضد الشيوعية .

ويلوح في الأفق شبح التقسيم ، فقد أعلن عبد الرشيد دوستم رغبته في تقسيم البلاد إلى أربع ولايات على أساس عرقي ، فتكون هناك :

١- ولاية بشتونية في الشرق والجنوب ، والبشتون يشكلون ما يقرب من ٤٠% من السكان .

٢- ولاية شيعية في مناطق هزاجار في وسط البلاد.

٣- ولاية للطاجيك في الشمال الغربي .

٤- ولاية للأوزبك في الشمال [1] .

وعلي هذا ، فالأمر يحتاج إلى مبادرة إسلامية من الدول الإسلامية ، لكي تضغط علي هؤلاء الزعماء ، لكي يجعلوا المصلحة القومية فوق كل اعتبار ، والبقاء علي وحدة أفغانستان ، في وقت تتربص فيه القوى لإفساد الأوضاع في هذه البلاد ،الذي قام بدور بطولي في إذلال الاتحاد السوفيتي ،واليوم تقوم روسيا بإعطاء السلاح لأنصارها لتطويل الصراع ،وجعل أفغانستان تنشغل بنفسها ، بدلا من أن تنشغل بالتدخل في الدول الإسلامية المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفيتي وما زالت روسيا تضغط عليها ،وتريد هيمنتها أن تستمر عليها .

العبرة المستفادة من جهاد الأفغان :

لقد أثبتت عملية الجهاد الإسلامي في أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتي قدرة المسلمين الكفاحية ، وأنهم ما زالوا قادرين أيضا علي تجميع أنفسهم من العالم كله ،

(١) جريدة الوفد المصرية ، الأحد ١٩٩٤/١/٩، من مقال للسفير صلاح بسيوني بعنوان :"أفغانستان ١٩٩٤، لا مجال للتفاؤل " .

لكي يواجهوا أعداء الإسلام بقوه وصلابة ، وهذه العملية كان يشاهدها الغرب بعين ملؤها الريبة والخوف ، وأدركوا أن الإسلام الذي هزمت دولة في كل مكان على يد الاستعمار الغربي لم يمت تماماً ، وأنه ما زال قوياً قادراً على الكفاح والنضال ، وأنها كامنة كالنار تحت الرماد ، تحتاج إلى من يشعلها من جديد ، ويدفعها إلى ساحات القتال .

ولقد أدركت أمريكا هذه الحقيقة المرعبة لها ، ولغيرها من الدول الاستعمارية ، ويشهد رئيسها الأسبق "نيكسون" بقوة النضال الإسلامي، التي ساعدت على قهر الاتحاد السوفيتي ، وقال ما معناه أن كفاح المسلمين للشيوعية كان أقوى من كفاح الغرب ، ذلك لأن المسلمين كافحوا الشيوعية من منطلق عقائدي ، ونحن حاربناها من منطلق اقتصادي ، فكانت حرب المسلمين لها أقوى ، "كان الدافع الغربي للمقاومة أكثر ميلاً إلى المصلحة النفعية "البراغماتية" " [1] .

والملاحظة التي يجب علينا أن نعيها كما وعاها الغرب ، هي أن المسلمين ما زالوا بخير ، لن تفتر عزيمتهم ، ولن تضعف همتهم ، وأنهم قادرون على الانتصار إذا أتيحت لهم أسلحة يدوية بسيطة ، ليست في مستوى الأسلحة الغربية الالكترونية الحديثة ، ولقد استوعبت أمريكا الدرس تماماً ، وأرادت بعد ذلك ومن ورائها عملاؤها في العالم الإسلامي ، أن تشتت جميع المجاهدين المسلمين الذين تجمعوا في أفغانستان ، على الرغم من أنها هي التي ساعدت في تجميعهم لمنازلة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان ، إلا أنها أدركت في النهاية بعد أن أدوا دورهم في القضاء على الاتحاد السوفيتي ، أنهم خطر على النظم العميلة لها في العالم الإسلامي ، وبالتالي فهم خطر عليها في النهاية ، وبدأت تتعقبهم في كل مكان في أفغانستان وباكستان وطاجيكستان وإيران والصومال .

---

(١) نيكسون ، الفرصة السانحة ، ترجمة أحمد صدقي مراد ، دار الهلال ١٩٩٢ القاهرة ، ص١٢٨ .

وعندما أرادت أن تسيطر على الصومال في عام ١٩٩٣م في حركة بهلوانية، أطلقـــت عليها "إعادة الأمل" ، أي إنقاذ الصومال من المجاعة ، فأرسلت إليها حوالي ثلاثـــين ألـــف جندي من قواتها ، وقالت زوراً بأن مهمتهم القضاء على الفوضى في الصـــومال ، وتوزيـــع المعونات الأمريكية للبؤساء والجوعى من الصوماليين ، إلا أنها كانـــت في حقيقة الأمر تهدف إلى السيطرة على هذه البلد الاستراتيجي الذي يقع في مدخـــل البحر الأحمر ، وتريد أن تأخذ منه رأس جسر إلى الدول الأفريقية ، ولكنها فوجئـــت بحركة مقاومة صومالية قوية ، لأن الشعب الصومالي كله يحمل السلاح ، وفوجئت أيضاً بالمجاهدين الأفغان الذين طاردتهم من قبل ، يظهرون لها في الصومال ، ويقضـــون على أمالها في هذه البلاد ، وإذا بالجنود الأمريكان يتساقطون على أيدي هـــذه المقاومـــة الشرســـة ، فأدركت أمريكا بسرعة ألا مقام لها في الصومال ، وإلا تحولت إلى أفغانستان جديدة ، أو فيتنام جديدة . فأعلنت بسرعة عن نيتها في الجلاء عن الصومال ، قبل أن تنال هزيمة مروعة ، في بلد تحاط بالبلاد الإسلامية في أفريقيا ، ولا تملـــك أمـــريكا أن تحاصـــرها حتى ولو تم لها حصارها من ناحية البحر ، فتبقى حدودها مع الدول الأفريقية مفتوحة ، لا سيطرة لدولة عليها .

إذن عـــلى العـــالم الإسلامي أن يدرك قوته ، كما أدرك أعداؤه ، وأن يجمع صـــفوفه ، وأن يقضـــي على مرض الفرقة ، ذلك المرض العضال الذي استشرى في العالم الإسلامي ، بسبب هيمنة الزعماء العملاء على مقدراته ، وعليهم أن يتخلصوا مـــن هؤلاء العملاء ، ويعينوا الأكفاء المخلصين لأوطانهم بطريقة ديمقراطية بعيدة عن الاســـتبداد بالـــرأي ، فليس أضر على العالم الإسلامي في زماننا هذا من الاستبداد والمســـتبدين ، فهـــم الذين أضروا بمصالحه ضرراً بليغاً لأنهم يزيفون إرادة الشعب ، ويكـــرهون الديمقراطية ، ولا يحكمون صناديق الانتخاب لكي تأتي بالأكفاء ، وكلما ذهبـــت أمـــة مـــنهم لعنتها أختها التي تأتي بعدها ، ويفتعلون المعارك مع غيرهم من الزعماء الآخرين في العالم الإسلامي ، هذه المعارك التي تقضي على الأخضر واليابس

في بلادهـــم ، وفي الـــنهاية يلجأون إلى الغرب لكي يصلح أمرهم ، ويصلح بينهم ، وهـــيهات أن يـــأتي لهم الصلاح من هذا الغرب المتربص بهم ، فهو الخصم والحكم ، وهيهات أن يأتي الخير من هذا الخصم الماكر ، فهو لا يرتضي حكماً إلا لمصلحته .

وعـــلى الرغم من انتكاسة الجهاد الأفغاني ، كما سبق أن أوضحنا ، وانقلابه إلى حـــرب أهلية ، يتقاتل فيها المجاهدون على المناصب الحكومية وعلى الرئاسة ، إلا أنني أعتقد أنهم سيميلون في النهاية إلى تحكيم عقولهم ، وخاصة إذا أدركوا أن روسيا الـــتي ورثت الاتحاد السوفيتي تتربص بهم ، ومن ورائها الغرب الرأسمالي ، ونسمع في الآونـــة الأخيرة (منتصف عام ١٩٩٦) عن أصوات تنادي بالوحدة ، على كل حال فمن سنن الله الكونية التي لا تتغير أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

حركة طالبان :

نشـــأت هذه الحركة في المنطقة الشرقية من أفغانستان على حدود باكستان وتكونت من شباب الطلاب المتحمسين للدفاع عن وحدة وحرية أفغانستان ، وكلمة طالبان جمع طالب على نحو الجمع في اللغة الفارسية بالألف والنون .

وحققـــت هـــذه المنظمة العسكرية انتصارات سريعة في المنطقة الشرقية من أفغانســـتان ، وفي أواخر شهر سبتمبر من عام ١٩٩٦م أصبحت على مشارف مدينة "كـــابل" عاصـــمة أفغانســـتان وتمكنت من اقتحامها والقضاء على مقاومة الجيش الحكومـــي بزعامة رئيس أفغانستان "رباني" ورئيس الوزراء "حكمتيار" وقائد الجيش "أحمـــد شاه مسعود" ، ثم أخذت تتعقب جميع المتصارعين قبلها على أرض أفغانستان وهـــم : "حكمتيار" المتحالف مؤقتاً مع "رباني" ، والجنرال "دوستم" الذي يصارعهما في الشـــمال الغربي صاحب المعسكر الشيعي ، وأعلنت عن إعلان دولتها في "كابل" ذات الصـــبغة الإسلامية المتشددة التي منعت النساء من العمل في المصالح الحكومية والمـــدارس ، وفرضـــت عليهم الحجاب أو على الأصح النقاب الذي يغطي الوجه ، ومنعت الخمور ، وأغلقت حانات الخمور ، وشددت على إقامة الصلاة في أوقاتها في

المساجد ، وأوكلت إلى مراقبين من رجالها يراقبون تنفيذ هذه الإجراءات ، وكل من يخالف يعاقب بشدة .

وصفوة القول أنها أعلنت تنفيذ قواعد الشريعة الإسلامية بقوة ، حين ذلك ارتج جيرانها وانزعجوا ، وعلى الأخص الجيران الشماليون ، وهم دول وسط آسيا جمهوريات "طاجيكستان" ، "أوزبكستان" ، "قيرغيزستان" ، و"قازاقستان" ، بل وانزعج الجار الجنب القديم وهو روسيا الاتحادية ، وحاولت جمع دول وسط آسيا في مؤتمر عقد في "آلماأتا" عاصمة قازاقستان لتهديد حركة طالبان إذا ما هي اقتربت من حدود دول وسط آسيا ، ولكنها لم تنجح — أي روسيا — في جذب "تركمانستان" التي لها حدود طويلة مع أفغانستان في الجنوب الشرقي .

ومن العجب أن إيران هي الأخرى انزعجت من حركة طالبان ، وأعلن رئيسها "هاشمي رفسنجاني" أن حركة طالبان حركة رجعية ، مع أنها تطبق قواعد الشرع الإسلامي مثل إيران ، ولكن "رفسنجاني" وصفها بأنها رجعية نظراً لأنها انبثقت من الحدود الشرقية من أفغانستان بتعاون مع باكستان ، ومن العجب أن تركمانستان الموجودة على حدود أفغانستان في الشمال رحبت بالتغييرات الجديدة في أفغانستان ، ولذلك فإنها لم تحضر مؤتمر دول الكومنولث الروسي في "آلما أتا" التي سبق أن أشرنا إليها .

من ذلك نرى أن استيلاء حركة طالبان على السلطة في معظم مناطق أفغانستان قد حرك قادة آسيا الوسطى فيفي التوجه نحو روسيا لملء الفراغ خشية انتقال عدوى حركة طالبان إلى دول وسط آسيا .

وأول من أطلق صيحة التنبيه للخوف القادم في روسيا كان هو الجنرال "ألكسندر ليبيد" مستشار الأمن القومي الروسي ، فقد فاجأ ليبيد الساحة السياسية الروسية بقوله : "إن النجاحات العسكرية لجماعة طالبان ستشكل خطراً على أمن روسيا بقوله : "إن النجاحات العسكرية لجماعة طالبان ستشكل خطراً على أمن

روسيا ، وعلى روسيا أن تدعم مادياً القوى المناهضة لطالبان ، ومنها قوات :"أحمد شاه مسعود" ، والجنرال "رشيد دوستم" ، و "حكمتيار" رئيس وزراء أفغانستان وضرورة اتخاذ إجراءات دبلوماسية عاجلة ، وإلا فإن ما جرى في الشيشان سيكون بمثابة (دمل) صغير في مقابل (الخراج) المرتقب في أفغانستان إذا جازت المقارنة بين الشيشان في الماضي وأفغانستان في المستقبل وما حولها ، وتأثير هذه الأخيرة على أمن روسيا " .

وقد مضى ليبيد إلى حد القول بأنه إذا قامت جماعة الطالبان بدعم من باكستان بالاقتراب من حدود طاجيكستان وأوزبكستان فإنهم سيطالبون بانتزاع جزء من أرض أوزبكستان ومنها منطقة "بخارا" حيث يقع مزار وقبر الإمام البخاري وبذلك على حسب تشخيص "ليبيد " تستطيع حركة طالبان تدمير مواقع الحراسة الروسية بحيث تصبح الفرقة ٢٠١ الروسية المرابطة على الحدود بين أفغانستان وطاجيكستان صغيرة جداً في الدفاع عن دعم "رحمانوف" رئيس جمهورية طاجيكستان وهو الذي يواجه بمعارضة أصولية طاجيكية داخلية تجد دعماً لها من قوى مناظرة لها من أفغانستان .

وعلى إثر تشخيص الجنرال "ألكسندر ليبيد" هذا اجتمع رئيس جمهورية روسيا الإتحادية "يلتسين" برئيس وزرائه "تشرنو ميردين" حيث كلفه بإجراء اتصالات مع قادة دول آسيا الوسطى لتنسيق المواقف إزاء الوضع المستجد في أفغانستان وتداعياته على الحدود الطاجيكية الأفغانية وعقد اجتماع قمة دول ستة في "آلما أتا" عاصمة "قازاقستان" يومي الجمعة والسبت الرابع والخامس من أكتوبر سنة ١٩٩٦م .

وفسرت مبادرة روسيا بأنها تعبير عن الشعور بكامن الخطر عن بعد ، وباقتراب هذا الخطر للمساس بمصالحها وميثاق طشقند الخاص بالدفاع المشترك

لرابطة كومنولث الدول المستقلة ، ويلاحظ أن الأسيويين من أعضاء الرابطة يطلبون من روسيا أن تكثف حضورها العسكري في "طاجيكستان" تجنباً للعدوى المحتملة .

والحقيقة أن الخطر لا يكمن في تقدم حركة طالبان إلى طاجيكستان أو اقتطاع أرض أوزبكية مثل منطقة بخاري كما يرى "أليكسندر ليبيد" بل إن المعضلة الأشد خطورة هي تغلغل نفوذ حركة طالبان في كل آسيا الوسطى ومشارف "قازقستان" وتخوم روسيا الاتحادية ، وإذا تم ذلك فإن الاضرابات لا محالة ناشبة وستعم المناطق المشار إليها بأسرها ، لأن دول وسط آسيا تمكنت الرجعية الشيوعية من السيطرة عليها على الرغم من رغبة المسلمين فيها من العودة إلى إسلامهم ، لكن روسيا ساعدت زعماء عملاء لها من الشيوعيين في السيطرة على هذه البلاد ، فهي ملغمة بألغام مثل البراكين ، وسيكون الانفجار مروعاً .

ولعل هذا هو الذي جعل "نزر سلطان نزار باييف" زعيم "قازاقستان" يدعو إلى الوقوف بصرامة ضد انتشار نفوذ طالبان ، وطالب "إسلام كريموف" رئيس أوزبكستان بضرورة التحرك لدعم أنصار رباني وحكمتيار ودوستم [١] .

بينما قال "صابر مراد نيازوف" رئيس جمهورية تركمانستان : "إن تركمانستان لا تنظر إلى طالبان كأعداء ، وهذا واضح أنه يريد أن يتقي شر طالبان .

ولكن روسيا لا تستطيع أن تقف عسكرياً أمام طالبان وتأمين حدود آسيا الوسطى ، لأن روسيا ما زالت تئن من حرب الشيشان ؛ إضافة إلى أزمة الجيش الروسي وعجزه عن إطعام نفسه ، وصدق ليبيد حين قال : الجيش الجائع لا يستطيع أن يحارب"

---

(١) انظر: حديث عبد الملك خليل عن مؤتمر "آلما أتا" في جريدة الأهرام ، عدد ٨ أكتوبر سنة ١٩٩٦م تحت عنوان :"روسيا وأفغانستان والشعور بالخطر عن بعد" .

وهـــذه الـــتطورات هي التي جعلت رحمانوف رئيس جمهورية طاجيكستان يســـارع إلى عقد هدنة مع المعرضة الإسلامية التي تناضل في الجبال بالمنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد ، ووعدها بالمشاركة في الحكم .

تـــرجع أصـــول حركة طالبان إلى قبائل الباشتو ، وهي القبائل المنتشرة في جنوب وشرق أفغانستان ، وعلى صلات عرقية بقبائل الباشتو في باكستان ، والذين انـــزعجوا من هيمنة الأوزبك والطاجيك في أفغانستان وكذلك بعض القبائل الشيعية عـــلى الحـــدود الغربية مع إيران ، وحركة طالبان مدعومة من باكستان والسعودية وأمـــريكا بالســـلاح والمال ، ومن هنا جاءت معرضة إيران لها ، وأمريكا تريد تأمين خطـــوط أنابيـــب للبترول تعبر أفغانستان وباكستان إلى الخليج العربي في طريقها إلى أمـــريكا والغرب ، وبذلك تكون بديلة للخطوط المقترحة عبر إيران ، وهكذا تلعب المصالح الأمريكية بمستقبل البلاد الإسلامية .

مشاكل أفغانستان الجغرافية :

لمـــا كانـــت أفغانستان من الدول الداخلية في آسيا ، وكانت تحيط بها قوى ودول وإمـــبراطوريات أقوى منها مثل الدولة العثمانية وإيران في الغرب وروسيا في الشـــمال ، وإمبراطورية الإنجليز في الهند في الشرق ، فإن صراعاً دار بين هذه القوى المحيطة بأفغانستان على النفوذ والطمع في أرض أفغانستان ، ولما كان أهل أفغانستان لا تلـــين لهـــم قـــناة فقـــد اشتركوا في الصراع الدائر على أرضهم ، وأحياناً كانوا ينتصـــرون فيـــتوغلون في أرض الهند قبل استيلاء الإنجليز عليها ويحكمون الأجزاء القريـــبة منها ، وأحياناً أخرى كانوا يتوغلون في المناطق الغربية في الأراضي الإيرانية ويستولون عليها ويحكمونها ، وهذا كما حدث أثناء فترة حكم "محمود الأفغاني" ابن مورويس الذي سبق أن أشرنا إليه .

وفي كثير من الأحيان كانت هذه القوى تتوغل في داخل أراضي أفغانستان ، وهـــذا مـــا حدث للإنجليز في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وحدث أيضاً

ذلك من الروس في ذلك القرن ، وحدث من الإيرانيين أيضاً ، ولكن تاريخ الصراع بين الأفغان وبين هذه القوى دل على أن الأفغان لا تلين لهم قناة ، ولا ينامون على ضيم وظلم يلحق بهم ، وإنما يستيقظون لرد عادية الظالمين والمستعمرين لبلادهم ، ولا يهدأ لهم حال إلا إذا أخرجوا الغزاة من أرضهم ، وهذا ما حدث في تاريخنا المعاصر عندما دخل الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٨٠م غازياً لهذه البلاد ، فاستمر الأفغان في حربه نحو عشر سنوات متتالية تم فيها إخراج الروس — أي السوفييت — على أعقابهم خاسرين ، وتسببت هذه الحرب في انفراط عقد الاتحاد السوفيتي .

لكن تظل مشكلة الجغرافيا تحكم مصير هذا البلد المناضل لأنه يعتمد على اتصاله بالخارج على القوى المحيطة به ، وهي متقلبة النزعات والمصالح .

ومن هنا فإن عبر التاريخ تقول إن الجغرافيا مؤثرة في مصير أي منطقة ، وعبر التاريخ الوسيط والحديث لمنطقة وسط آسيا تقول إن منطقة أفغانستان لم تنعم بالاستقلال طويلاً وذلك بسبب أنها منطقة داخلية تحكمت فيها على مر الزمن قوى كبيرة كانت مجاورة لها كالفرس والعثمانيين والروس والمغول ، ونظراً لأنها داخلية فاتصالها بالخارج يكون صعباً وقت الأزمات الشديدة ، وهذا واضح في كثير من الأزمات العسكرية التي واجهت أفغانستان في العصور الوسطى والحديثة ، فإنها تقع فريسة لجيرانها الأقوياء أو المهيمنين على الأوضاع ، وهذا واضح الآن في الصراع الدائر في أفغانستان بعد إخراج الاتحاد السوفيتي وتدخل كل من إيران وروسيا وباكستان لنصرة فريق على آخر مما يؤثر في نتائج الصراع ، ولهذا يتحتم على أفغانستان أن تتحالف مع قوة عظمى من هذه القوى المحيطة بها ، ومع ذلك فإنها لا تسلم من الجيران الآخرين الأقوياء بسبب تغير الأوضاع السياسية وتطلعهم للنفوذ في أفغانستان .

إلا أن مؤلف [1] كتاب "العلاقات الأفغانية الروسية" من عهد الأمير دوست محمـــد خـــان حتى ببرك ١٨٢٦-١٩٨٤م ، يذكر سبباً آخر غير متاعب الجغرافيا والموقع ويجعلها سبباً في شقاء الأفغان فيقول :

"إن الشـــقاء والتعاســـة اللتين يشعر بهما الأفغان سببهما أن جميع زعمائهم والمالكين لأزمة الأمور في بلادهم ، خصوصاً من بداية القرن التاسع عشر إلى الآن ، لم يتمـــتعوا بحرية الفكر والعمل ، وكانوا دائماً يقعون تحت تأثير بريطانيا أو روسيا ، وكـــان هذا الأمر سبباً في أن أفغانستان وحكامها منذ زمن بعيد حتى الآن مثل الدمي في أيـــدي الاســـتعمار ، ولم يستطيعوا مطلقاً أن يخطوا خطوة إلى الأمام مستندين إلى قوتهم بعيداً عن حدود رغبات الاستعمار . والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول : الأنانـــية وطلـــب الجاه للحكام وعدم الاعتماد على قدرة الشعب وشورته .

الثاني : المصلحة الشخصية والرغبة في البقاء في الحكم .

وكـــان إدراك ومعرفة هذا الضعف والذلة لأمراء بلادنا وسيلة فعالة لروسيا وبريطانيا ، فكان لهما في بلادنا موطئ دائم ، واجتهد كل منهما للحفاظ على منافعه أن يغـــير ســـير نهضتنا الاجتماعية والسياسية والوطنية ، وكان نتيجة هذه اللامبالاة وعدم الاكتراث أن فقدنا جزءاً من حدودنا الجغرافية ، بل انتهى بنا الأمر أن احتلت كل بلادنا جغرافياً وسياسياً بواسطة الاستعمار ، وكفار هذه الذنوب والأخطاء التي ارتكبها هؤلاء الحكام الذين لم يتبصروا العواقب تدفعها دولة أفغانستان المظلومة من

---

(١) تذكـــر الدكتورة : عفاف زيدان مترجمة هذا الكتاب من الفارسية إلى العربية أن مؤلف هذا الكتاب أحـــد المجاهدين بالقلم ، ولم يشأ أن يذكر اسمه ، وإنما استعار له اسماً هو : "حق شناس" ، ربما لظروف اقتضـــتها طبيعة الجهاد الأفغاني ، ورغم معرفة الدكتورة عفاف بالمؤلف فإنها احترمت رغبته في عدم ذكر اسمه ، والكتاب مطبوع بالعربية في القاهرة سنة ١٩٩٢م ، ونشرته "دار الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ، انظر مقدمة المترجم لهذا الكتاب .

دمائهـــا ، وقـــد ذهـــب ملايـــين الناس فيها ضحية لهذه السياسات غير الوطنية ، والقرارات الشخصية غير الواعية التي قام بها حكامنا قروناً وأعواناً [(١)] .

---

(١) حسق شناس : العلاقات الأفغانية الروسية ، ترجمة الدكتورة عفاف زيدان ، نشر دار الزهراء للإعلام العربي — القاهرة ، ص٧١-٧٢ .

الدولة الخوارزمية

نشأت الدولة الخوارزمية في إقليم خوارزم الذي يقع على الطرف الشمالى الغربى لإقليم ما وراء النهر ، وعاصمة خوارزم هى (الجرجانية) وأهل خوارزم يسمونها بلغتهم (كركانج) فعربت الى الجرجانية وكانت عاصمتهم في الأصل تسمى المنصورة فجرفها نهر جيحون ، فأخذت الجرجانية مكانها ،وقد أطلق المؤرخون على العاصمة بعد أن اكتسحها المغول وقتلوا جميع من فيها ولم يبقى من معالمها شيئ أطلقوا على العاصمة الجديدة مدينة خوارزم ، ومن المحتمل على ما يظهر أن خوارزم الجديدة قد أختير لها موضع جديد وسرعان ما صارت خوارزم الجديدة قصبة الأقليم ، وقد وصفها أبن بطوطة في المئة الثامنة للهجرة (١٤م) [1] .

وبلاد خوارزم كما وصفها ياقوت شتاؤها شديد بحيث أن نهر جيحون يتجمد في الشتاء والقوافل والعربات تسير عليه ، والنهر لا يتجمد كله وإنما الطبقة العلوية من الماء وأسفله جارٍ ، ويحفر أهل خوارزم في الطبقة الجليدية العلوية ويستخرجون منه الماء لشربهم وأعمالهم .

ويذكر ياقوت أيضا أن أبنيتهم ليس لها أساسات إنما يقيمون أخشاب مقفصة ثم يسدونها بالبن والغالب على أهلها الطول والضخامة وفي رؤوسهم عرض ، ولهم جباه واسعة ، وطباع أهلها مثل طباع البربر .

وسكان خوارزم في الأصل شعوب آرية لم تلبث أن تسربت إليهم أعداد غفيرة من العنصر التركى الذى بدأ يزحف على شرقى العالم الاسلامى في بداية القرن الثالث الهجرى بصورة أصبح معها المتكلمين باللغة التركية أو اللهجات التركية الشطر الأكبر من سكان البلاد (خوارزم) ، ولم يكن في مقدور ملوك خوارزم الدخول في قتال دون الاعتماد على المرتزقة من الأتراك .

---

[1] كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٩٢ .

ولعب أهل خوارزم دورا كبيرا في مجال العلاقات بين الجماعات البدوية التي تقـــع عـــلى حدود ما وراء النهر وبين النفوذ الإسلامي الذي بدأ يتدفق على إقليم خوارزم ولم يجد الخوارزميون بداً من أن يذعنوا بالطاعة للمسلمين حرصا على تجارتهم ويذكـــر (الـــبلاذرى) أن بعض ملوكهم كاتب (قتيبة بن مسلم) بعد توغله في البلاد ليستعين به على بعض المشاكل في داخل خوارزم ، وتم فتح خوارزم على يد قتيبة بن مسلم في سنة ٩٣هـــ .

ونمت العلاقات بين المسلمين والخوارزميين وأثمرت وانتهت بإسلامهم ويذكر الدكتور حسن محمود أنه لا يستطيع أن يحدد بالضبط الفترة التي شهدت هذا التطور الخطـــير وإن كـــان يـــرجح أن ذلك تم في أيام السامانيين وأصبحت خوارزم بلداً إســـلامية، بل شهدت قيام دولة إسلامية مستقلة فقد حكمتها أسرة مسلمة في الفترة الممتدة من سنة ٣٤٠هـــ إلى سنة ٤٠٧هـــ [١]

وكان للتجار الخوارزميين الذين اعتنقوا الإسلام نشاط كبير في نشر الإسلام في حـــوض الفولجا والقوقاز واستغلوا صلاتهم القوية بشعوب حوض الفولجا والقوقاز في نشر الإسلام ، والمؤرخ الروسي (بارتولد) يرى أن الحركة الإسلامية بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري الذي شهد توطد الصلات بين خوارزم والخزر .

كانت بداية دولة خوارزم شاه سنة ٤٩١هـــ ، وأول ملك منهم هو "محمد بـــن أنوشتكين" ، وكان والده "أنوشتكين" مملوكا لأمير السلاجقة ملكشاه فترقى في بلاط ملك شاه وتم تعينه في وظيفة (الطشتدار) أي المشرف على الأواني السلطانية ، وكانـــت نفقات إدارة الطشتدار من ميزانية خراج خوارزم ، لذا فإن (أنوشتكين) قد حمـــل أيضـــا لقب حاكم خوارزم على الرغم من أنه لّما يكن في واقع الأمر قد تولى الحكم في خوارزم .

---

[١] الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ١٩٠ .

وفي سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) تم تعيين قطب الدين محمد بن أنوشتكين حاكما على خوارزم بأمر السلطان (سنجر) السلجوقي بعد اغتيال حاكمها عقب ثورة عليه ، ويذكر ابن الأثير أن قطب الدين أشتهر بالعدل وبتقريبه لأهل العلم ، وظل قطب الدين تابعا مخلصا لسنجر السلجوقي ، ولقب بلقب خوارزم شاه وبقي هذا اللقب بعد ذلك علما على الأسرة .

ولما توفى قطب الدين خلفه ابنه (أتسز) عام ٥٢٢هـ (١١٢٧م) ويعد هو المؤسس الحقيقي لأسرة شاهات (ملوك) خوارزم ، وكان أتسز في الأعوام الأولى من ولايته التابع المخلص للسلطان سنجر السلجوقي ، وظل يعمل على تدعيم سلطانه في خوارزم ، غير أن السلطان سنجر لم يزل أن تغير عليه بفعل حاسديه فقام بحملة عليه في خريف سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) واجتاح خوارزم بحجة أن (أتسز) أراق دماء المسلمين في (جند) رهى ثغر من ثغور الإسلام وأهلها يدافعون عن ثغور الإسلام ، غير أنه كان في واقع الأمر يريد السيطرة على جند الواقعة على نهر سيحون لإخضاع الرحل المجاورين [1] .

وكان عصر أتسز امتداداً لقوة أبيه لأنه كان يقود الجيوش في أيام أبيه فقربه السلطان "سنجر" وعظمه وتقوى به في حروبه فظهرت كفاءته وشهامته فزاده علواً وتقدماً ، ويعتبره البعض بداية لتوارث ملك خوارزم شاه ، وفى سنة ٥٣٣هـ وقع الخلاف السابق بينه وبين السلطان "سنجر" فسار السلطان لمحاربته فانهزم خوارزم شاه وملك السلطان "سنجر" خوارزم وأقطعها إلى ابن أخيه سليمان شاه ، ورجع "سنجر" إلى (مرو) .

فانتهز أتسز خوارزم شاه الفرصة وعاد يستولى على خوارزم ومدن كثيرة من (خراسان) كانت تحت سيطرة السلطان "سنجر" ، وتسببت هذه الحروب في

---

[1] بارتولد ، تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ص٤٧٣-٤٧٤ .

زيـادة النزعة الإستقلالية لدى آتسز عن السلاجقة وقد نجحت جهوده بعد صراع طويل ، واستطاع أن يمد نفوذه حتى مدينة (جند) على نهر سيحون سنة ٥٥٢هـ.

ولمـا آل الأمـر إلى ابـنه علاء الدين تكش (٥٦٨-٥٩٦هـ)حقق نصرا عظـيما حين قضى على ملك السلاجقة في إيران وحل محلهم ، وهذا الانتصار وضع الدولـة الخوارزمـية في مواجهـة الخلافة العباسية ، فطالب خوارزمشاه بامتيازات السـلاجقة في دولة الخلافة وهي : ذكر اسمه في الخطبة وفرض نفوذه السياسي على بغـداد مـثل ما كان يفعل الأتراك والبويهيون والسلاجقة الذين حرصوا على هذه الامتـيازات الـتي لم يطالب بها حكام الولايات الغربية في الشام ومصر ؛ إذ كانوا يحافظون على هيبة الخلافة .

وتوفى السلطان "أتسز خوارزم شاه " في سنة ٥٥١هـ وترك ابنه "أرسلان" الذى استمر فى الحكم حتى سنة ٥٦٨هـ .

وتنازع على الملك بعده ابناه "سلطان" وأخيه "علاء الدين" وكثرت الحروب بينهما وظلت حتى ظهر ابن علاء الدين الذي يسمى "قطب الدين خوارزم شاه" سنة ٥٩٦-٦١٧هـ الذي أخذ لقب أبيه علاء الدين ، واستطاع أن يوسع رقعة مملكته فوصـلت إلى ما وراء النهر حيث هزم ملوك ماوراء النهر وضم بلادهم إلى سلطنته سنة ٦٠٧هـ وانتصر على الغوريين في إقليم الغور واحتل (غزنة) سنة ٦١١هـ [1] فوصلت مملكة خوارزم إلى أقصى اتساعها .

صراعهم مع الخلافة :

لم يكد الخليفة العباسي يستريح من نفوذ السلاجقة حتى جوبه بمطالب علاء الديـن وكان يريد أن ينعم بالاستقلال ولما لم يجبه الخليفة إلى تحقيق مطالبه شن حملة دعائـية ضد الخلافة العباسية واعتبرها غير شرعية واستصدر فتوى شرعية بأن خلافة بني العباس غير شرعية وأن العلويين من نسل الحسين أولى بها، وطالبه بإعادة الخلافة

---

[1] لين بول ، تاريخ الدول الاسلامية ،ج٢ص٣٧٥،وأحمد شلبي ج٧ص٧٤٠-٧٤١

إلى هــؤلاء ، و ـادى في عدائه وحاول العثور على شخص من نسل الحسين لكي ينصبه خليفة ولكنه جوبه بالغزو المغولي لدولته .

غارات المغول :

كـان ابتداء خروج المغول على أيام علاء الدين سنة ٥٩٦-٦١٧هـ (١٢٢٠-١٢٣١م) ، له معهم وقائع كثيرة ، وكانت حدود مملكته قد اتسعت من حـدود العراق الى تركستان فكان تحت ملكه بلاد "غزنة" و "سجستان" و "كرمان" و "طبرستان" و "جرجان" و "خراسان" وبلاد فارس .

وفي هـذه الأثناء كان المغول الضاربون في شمال آسيا الغربي يزداد عددهم لقـوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه وكانوا يعيشون في الخـيام أو في العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها ، وكانوا بارعين في اسـتعمال الخناجر والسيوف و ـسهام يطلقونها من فوق جيادهم التي تسابق الريح ، وكانوا يأكلون كل ما يستطيعون أكله مثل الفئران والقطط والكلاب ودم الآدميين حـتى القمل نفسه ، ونظمهم جنكيز خان (ومعناه الملك العظيم) بما فرضه عليهم من القوانـين الصـارمة حـتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس وقادهم لفتح آسيا الوسطى الممتدة من نهر الفلجا إلى صور الصين العظيم .

والمغـول شعب كبير موطنه منغوليا وهم من الأمة الطورانية ومنه تتفرع معظم بطونهـا وأفخاذهـا ، واسم التتر مرادف للترك في كتب التاريخ الأوربية والأدبيات الأوربـية ، حـتى أن الأوربـيين يعدون قبائل الترك كافة تترا ، ومنهم العثمانيون والتركمان وغيرهم [1] ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون إن (تتارخان)و(مغل خان) مـثل (ربيعة) و(مضر) في الأمة العربية العدنانية ، وعلى ذلك فإن (مغل) و(تتار) من الأتـراك ، ولافرق بين مغل وتتار لأن الكل أتراك ، ويقولون بأن (النجه خان) أحد

---

[1] محمد الخضري ، الدولة العباسية ، ص ٤٦٧.

ملوك الترك في الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما (مغل خان) و(تتار خان) وقد كان بين أبنائهما حروب طويلة انتصر فيها المغول في النهاية ووحدوا الشعبين على يد (جنكيز خان) المغولي [1] .

وحـــاول جنكيز خان أن يلم شعث قومه وفكر في ترقية هذا المجتمع بوضع قانون ليكون لهم دينا يسيرون عليه فوضع لهم (اليساق) أو ما يسمى أحيانا (الياسة) وهـــى كـــتابهم الذى إليه يرجعون في معاملاتهم مع بعضهم وكانت عندهم أحكامه صارمه على الجميع لا يستجيزون أن يخلّوا بشئ منها .

وقد ذكر المقريزى طرفا من هذه القوانين في كتابه الخطط فقال:" إن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق ، لما غلب الملك (أونك خان) ، وصارت له الدولـــة ، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه (ياسه) ، ومن الناس من يسميه (يســـق) ، والأصـــل في اسمه (ياسه) ، ولما تم وضعه ، كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم ، وكان (جنكيز خـــان) لا يـــتدين بشيء من أديان أهل الأرض ، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره ، فصار الياسه حكما باتا بقى في أعقابه لا يخرجون عن شئ من حكمه".

" وأخبرني العبد الصالح الداعي الى الله أبو هاشم أحمد بن البرهان ـ رحمه الله ـ أنـــه رأى نســـخة من الياسه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد ومن جملة ما شرعه (جنكـــيزخان) في الياسه أن : من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين أثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها ، فإنه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهـــم قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان في يده قـــتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويُمْرَس قلبه الى أن يموت ، ثم يؤكل

---

[1] المرجع السابق ، ص٤٦٨

لحمـــه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحه المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو أى شئ من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال ، وكان وراءه أحد ، فإنه يترل ويناول صاحبه ما سقط منه ، فإن لم يترل ولم يناوله قتل " .

" وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبي طالب - رضى الله عنه - مؤنـــة ولا كلفـــة ، وأن لا يكـــون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كُلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى ، وألزم قومه ألا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المســناول منه أولا ، ولو أنه أمير ، ومن يناوله أسير ، ألزمهم ألا يتخصص أحد بأكل شـــئ وغـــيره يراه بل يشركه معه في أكله ، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بشبع على أصـــحابه ، ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه ، وأن من مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينـــزل ويأكل معهم من غير إذنهم ، وليس لأحد منعه " .

" وألـــزمهم ألا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشئ يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم ، بل يلبسونها حتى تبلى ومنع أن يقال لشيء إنه نجس ، وقـــال : جميع الأشياء طاهرة ، ولم يفرق بين طاهر ونجس ، وألزمهم أن لا يتعصبوا لشـــيء مـــن المذاهـــب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وإنما يخاطب الســـلطان ومـــن دونـــه ، ويدعـــى باسمه فقط ، وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال ، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حـــتى الإبـــرة والخـــيط ، فمن وجده قد قصر في شئ مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه".

" ألـــزم نساء العساكر بما بالقيام بما على الرجال من السخرة والتكاليف في مـــدة غيبتهم في القتال ، وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للســـلطان ، ويؤدونها إليه ، وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار

عـــلى السلطان ليختار منهم لنفسه وأولاده ، ورتب لعساكره أمراء ، وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئات وأمراء عشرات ، وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليهم ملـــك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يُلقى نفسه الى الأرض بين الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ، ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم ألا يـــتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل ، ومن تغير عن موضعه الـــذى يرسم له بغير إذن قتل ، وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة" .

" وجعل حكم الياسه لولده جغطاى بن جنكيزخان فلما مات إلتزم من بعده أولاده وأتـــباعه حكـــم الياسه ، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك دينا، لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه " [١].

هــــذه خلاصة ما أورده المقريزى (ت ٨٤٥هـــ) عن قوانين المغول (الياسه) وهـــي خلاصة وافيه ، وبعد المقريزى جاء المؤرخ الفارسي (عطا ملك الجويني) (ت ٦٨١هـــــ) فأعطانـــا معلومـــات أزيد في ناحية هامة لها أكبر الأثر في حياة المغول العســـكرية هي مباريات الصيد التي كانوا يهتمون بها اهتماما كبيرا كلما فرغوا من القتال وكانت هذه المباريات هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم وكانوا يأخذونها وسيلة لـــتمرين أنفسهم على حمل السلاح وخوض المعارك ، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما يفعلونه وقت الحرب ، ويقفون صفوفا منتظمة كما يفعلون في ميادين القـــتال ، وكـــان يشـــرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يصطحبون معهم النساء والسراري ، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات ، وتمتد هذه المباريات مـــن شهر إلى ثلاثة أشهر ، ولا يسمحون بالإهمال أثناء هذه التدريبات ، ويعتبرون الصيد جزءا لا يتجزأ من حياتهم ويحرصون على ممارسته منذ الصغر [٢] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ص١٤٦-١٤٧ .

(٢) د. فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ، طبعة دار النهضة العربية ببروت سنة ١٩٨٠م ، الجزء الأول ص٣٤٢- ٣٤٤ .

والملاحـــظ عـــلى هذه القوانين أنها حافظت على حقوق الأفراد بين المغول ومنعت من الطغيان والاستبداد وساعدتهم على التماسك والاتحاد أثناء حروبهم وهذا مـــا سنشاهده من سلوكهم أثناء حروبهم . غير أنها تلغي شخصية الفرد وتحجر على حريته .

واندفع المغول ناحية الغرب إلى الثغور الإسلامية لا يصدهم أحد ، وعلى الرغم مـــن قيام الدولة الخوارزمية وقوتها إلا أنها لم تستطع أن تسد مسد السلاجقة في مجال حمايـــة الخلافة العباسية عندما ضعف السلاجقة ، وذلك في مواجهة العناصر الشرقية التركية والمغولية بل على العكس ناوأت دولة الخلافة العباسية وكانت في نزاع دائم معهـــا في وقـــت انفتح فيه ذلك السد العظيم الذي كان بينها وبين العناصر الشرقية التركـــية والمغولـــية ، واندفعت تلك العناصر كأنها السيل الآتي المندفع لا يرده عن مقصـــده شيء يقودهم (جنكيزخان) موحد التتار والمغول ، وأزاحوا من أمامهم كل من يقف في سبيلهم ، وذلك في أوائل القرن السابع الهجري .

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الإسلامي بل بالإنسانية كما قرر تلـــك الحقـــيقة المؤرخ عز الدين بن الأثير في لهجة باكية مؤثرة في معرض كتابته عن تلك الأحداث سنة ٦١٧هـــ (١٢٣٠م) فيقول : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكـــر هـــذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلـــك فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا . فـــنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليـــالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولاما يدانيها "

وواتـــت جنكـــيز خـــان الفرصة للهجوم على خوارزم ، فقد أرسل في سنة ٦١٥هـــ(١٢١٨م) قافلـــة تجارية من المسلمين الموجودين تحت حكمه تحمل سلعا تجاريـــة وعـــند وصولها إلى مدينة (أترار) الواقعة في حكم خوارزم شاه على الساحل الغـــربي لنهر سيحون وهي ملتقى طرق التجارة بين شرق آسيا وغربها ، وكان واليها يســـمى (قادر خان) وهو ابن خال السلطان محمد خوارزم شاه فتصرف تصرفا أحمقا حيث قتل تاجرين من تجار المغول فيما وراء نهر جيحون وطلب جنكيز خان من علاء الدين أن يسلم إليه الوالي لمحاكمته فرفض علاء الدين هذا الطلب وقتل رئيس البعثة المغولـــية ورد بقـــية أعضائها محلوقي اللحى ، فلم يكن من جنكيز خان إلا أن أعلن الحرب على خوارزم شاه وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام سنة ٦١٦هـــ (١٢١٩م) .

وهـــناك قول يذهب إلى أن الخليفة العباسي (الناصر٥٧٥-٦٢٢هـــ) هو الذي أغـــرى المغول بالهجوم على علاء الدين لتمرده عليه ، وإذا صح هذا فيكون الخليفة هو الذي جلب على المسلمين أعظم كارثة حلت بالمسلمين في التاريخ ، وعلى العموم فـــإن الخلافـــة العباسية لها سوابق في هذا المجال فهي التي سبق لها استدعاء البويهيين والسلاجقة من قبل للاستعانة بهم على تثبيت ملكها ضد المخالفين لها.

وقد استعد السلطان علاء الدين لمجابهة المغول بجيش قوامه ٤٠٠ ألف جندي انتظر بهم عند (جند) ، أما المغول فقد قسموا قواهم إلى أربعة جيوش ووضع جنكيز خان على كل جيش أحد أبنائه وقاد هو جيشا .

وكـــان الجيش الأول بقيادة جوجي ابن جنكيز خان وتقابل هذا الجيش مع جـــيش علاء الدين عند جند وهزمه وفر علاء الدين على إثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك وراءه ١٦٠ ألف جندي قتلى في ساحة المعركة .

أما الجيش الثاني فكان بقيادة أجتاي ابن الخان الذي توجه نحو أترار التي كان واليها سببا مباشرا في هذه الحرب واستولى عليها ونهبها.

أما الجيش الثالث فكان بقيادة تولوى ابن الخان يبلغ عدده ٧٠ ألفا توجه به نحـــو خراسان وخرب كل ما مر به من المدن وكان المغول يضعون الأسرى في مقدمة جيوشـــهم ويخيرونهـــم بين قتال مواطنيهم من أمامهم أو قتلهم من خلفهم ، وفتحت (مرو) خيانة وأحرقت عن آخرها ودمرت مكتبتها التي كانت مفخرة الإسلام .

أمـــا الجيش الرابع فكان بقيادة جنكيز خان نفسه والذي توجه به إلى بخاري وحرقها عن آخرها وسبى آلافا من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفا من رجالها واستسلمت له سمرقند وبلغ حين وصل إلى أبوابها ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة .[1]

ويذكـــر ابـــن الأثير أن عساكر علاء الدين الذين كانوا معه قد خذلوه عند ملاقاة المغول لهم فكانوا قد ملئوا رعباً وخوفاً من المغول فتفرقوا عنه عند أول التحام بالمغول ، فقد كان جيش المغول متماسكا من جنس واحد بينما جيش علاء الدين من أصـــناف شتى من الترك والفرس والبدو وغيرهم فلم يكن مترابطا مثل جيش المغول وهذا مما كان له أكبر الأثر في هزيمة جيش خوارزم .

ولـــا ملك المغول سمرقند سير ملك المغول الى علاء الدين جيشا في نحو ٢٠ ألف فارس وقال لهم : " اطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتـــأخذوه " ، وهؤلاء العساكر يسمون بالتتر المغرِّبة لأنهم ساروا نحو غرب خراسان للـــتفريق بيـــنهم وبين غيرهم ، فلما عبروا نهر جيحون وأصبحوا فى مواجهة عساكر خـــوارزم شاه ، تفرق عساكر خوارزم شاه وطلبت كل طائفة منهم جهة وفر أيضا خوارزم شاه لا يلوى على شئ .

ولـــا يـــئس المغـــرِّبة من إدراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوهـــا في أســـرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وقتلوا وسبوا ونهبوا وأحـــرقوا الـــبلاد ولما فرغوا من مازندران اتجهوا نحو (الرى) فرأوا في الطريق والدة خـــوارزم شـــاه ونساءه ومعهم أموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها أحد ، وكان

---

(١) ول ديورانت ، ج٢ ، من المجلد الرابع ص٣٧٧-٣٧٨ .

سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل الى أصفهان وهمذان وبلاد الجبل لكي تمتنع بها ، فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها إلى الرى ، ونهبوا ما معهم من غريب المتاع ونفيس الجواهر وسيروا الجميع إلى جنكيز خان بسمرقند .(١)

في الوقت الذى كان علاء الدين يهرب سريعا في نفر من خاصته وقصدوا "نيسابور" ولكنه ما كاد يصلها حتى وصل الخبر أنهم في أثره فانتقل إلى بحر طبرستان ومنها إلى بخارى ومنها إلى سمرقند وغيرها ، حتى توفى في قلعة بـ "همذان" سنة ٦١٧هـ (٢) ويذكر "لين بول" أنه توفى في إحدى جزر بحر الخزر (بحر قزوين) .

وأثناء زحف المغول على دولة خورزم تم تحطيم أعظم المدن في مجال الحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها من المدن التي كانت عامرة بالعلماء والكتب ودور العلم التي كانت زاخرة ومزدهرة بالحركة العلمية فحطم المغول كل هذا فأصبح أثرا بعد عين فسبحان من له الدوام .

وكان علاء الدين قد دخل المذهب الشيعي سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) وكان يتأهب قبل احتكاكه بالمغول لمحاربة الدولة العباسية ، لكن ظهور المغول بغتة على حدود بلاده الشمالية جعله لا يستطيع تنفيذ مقصده وتوفى (٣) .

ويذكر المؤرخون عن علاء الدين أنه كان عالما يحترم العلماء ويكرمهم ويحبهم ويحسن إليهم وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات كما يقول عنه "ابن زينى دحلان" (٤) ، وإنما كان همه في الملك وتدبيره وحفظ رعاياه ، وكان معظما لرجال الدين مقبلا عليهم متبركا بهم ، ونقل عنه في

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص٣٣٥ ، حوادث سنة ٦١٧هـ ، طبعة دار الكتاب العربى بيروت سنة ١٩٨٣م .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٣٣٤ .

(٣) "لين بول" تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . ج٢ ، ص٣٧٥ .

(٤) تهذيب تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية ، ص٩٥ .

ذلك حكايات كثيرة منها : أنه دخل عليه رجل من خدام حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فعظمه تعظيما كثيرا وأجلسه بجانبه وصار يأخذ يده ويتبرك به ويمر بها على وجهه كما يذكر "ابن الأثير" (١) ، وتولى الحكم بعده ابنه جلال الدين .

جلال الدين خوارزم شاه :

تولى جلال الدين الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦١٧هـ ، ولجلال الدين هذا وقائع كثيرة مع المغول فقد تغلبوا عليه كما تغلبوا على والده من قبل فصاروا يطلبونه من كل ناحية حتى أنه فر إلى الهند وظل بها حوالي ثلاث سنوات وكانت له في هذه المدة عدة مغامرات عجيبة مع حكام الهند .

وكان يجب على جلال الدين أن يتعلم منّ الدروس التي خاضها أبوه فيما يتعلق بنزاعه مع الخليفة هذا النزاع الذي كان سببا في ضعف الدولة ، فكان يجب عليه أن يقوى ارتباطه بالخليفة وجيرانه من حكام المسلمين ليتقوى بهم ولكنه لم يفعل ذلك بل كرر اخطاء أبيه كما سنرى .

ففي سنة ٦٢٨هـ وصل إلى العراق ثم إلى ديار بكر حيث كان يحكم أخوه غياث الدين ، ووجد غياث الدين نفسه مضطرا للخضوع لأخيه جلال الدين وكانت هناك فرصة لكي يقوم بتعمير ما خربه المغول وإعادة الأمن والسلام للبلاد التى حكمها آباؤه من قبل .

بل إنه على العكس من ذلك تنازع مع الخليفة العباسى (الناصر) وهذا ما أضعفه وأضعف الخلافة أمام الزحف المغولى ، وعاد المغول للظهور في بلاد الإسلام إبان هذه الصراعات الداخلية المتلاحقة، وبينما كان جلال الدين يتأهب لملاقاتهم إذ شب النزاع بينه وبين أخيه غياث الدين فتركه غياث الدين وسط جنده وعاد إلى (كرمان) عام ٦٢٥هـ وفيها لقي حتفه نتيجة لبعض المكائد (٢) .

---

(١) عز الدين ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ،ج٩، ص٣٣٤-٣٣٥ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة جلال الدين خوارزم شاه .

وتقــابل جــلال الدين مع المغول وظل الصراع سجالا بينه وبينهم وتفرقت عســاكره وظــل ينتقل من "الموصل" الى "سنجار" و "أربل" وغير ذلك من البلاد ، فسبحان من بدل الأمن خوفا والعز ذلاً والكثرة قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء .

ويــنقل "أحمــد بن زيني دحلان" عن "ابن الوردي" أن جلال الدين خوارزم شــاه انتهت به المطاردة إلى بيت بعض الأكراد ليختفي عنده فلما عرف الكردي أنه السـلطان قتله وقال الكردي أن ذلك بسبب أنه قتل أخا له وذلك في ٦ من شوال ســنة ٦٢٨هــ ، وكان جلال الدين آخر الملوك الذين تسموا (خوارزم شاه) ومدة ملكهم ١٣٨ سنة تقريبا [١] من سنة ٤٩٠هــ حتى سنة ٦٢٨هــ .

وهكــذا نرى أن عامل الفرقة بين المسلمين هو المرض العضال الذي يقضى على قوتهم ، وهو الذي ساعد المغول في اجتياح بلاد المسلمين والقضاء على حضارة الجــزء الشرقي منها ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك . في وقت تمكن فيه الصليبيون من بلاد الشام وعاثوا فيها فسادا .

---

(١) أحمد بن زيني دحلان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

شجرة نسب ملوك خوارزم شاه

١- أنوشتكين

↓

٢-قطب الدين محمد ٤٩١-٥٢٢هـ(١٠٩٧-١١٢٧م)

↓

٣-أتسز ٥٢٢-٥٥١هـ(١١٢٧-١١٥٦م)

↓

٤- آيل أرسلان ٥٥١-٥٦٨هـ(١١٥٦-١١٧٢م)

↓

٥- سلطان شاه محمود ٥٦٨هـ = ١١٧٢م

↓

٦- تكش ٥٦٨-٥٩٦هـ(١١٧٢-١٢٠٠م)

↓

٧- علاء الدين محمد ٥٩٦-٦١٧هـ(١٢٠٠-١٢٢٠م)

↓

٨- جلال الدين منكبرتى ٦١٧-٦٢٨هـ(١٢٢٠-١٢٣١م)

الدولة العثمانية

الظروف والملابسات السياسية التي ظهر فيها العثمانيون:

كانت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس والصين القديمتين ولم يكن في استطاعتها أن تتخطى أسوار إحدى هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ولكنها ظلت تقوم بدور الوسيط في نقل الحضارة بينهما ، وكانت قوة الإمبراطورية الفارسية تحول بينهم وبين التدفق غرباً إلى بلاد الشرق الأدنى .

وبعد أن اخترقت الجيوش الإسلامية حزام فارس إلى موطن الأتراك فيما وراء النهر وبلاد خوارزم ، أقبل الأتراك يدخلون في رحاب الإسلام ، وعندما أخذت الدولة الإسلامية في الضعف في العصر العباسي الثاني ، أحست العناصر التركية بضعف السلطة المركزية بدأت تحاول إنشاء دولة تركية إسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنهارة ، (ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية في ظل الخلافة العباسية وهي الدولة السامانية [١]) "٢٦١-٣٨٩هـ" وعاصمتها بخارى .

وكان قيام هذه الدولة حافزاً لكثير من القبائل التركية على الزحف إلى منطقة الشرق الأدنى في أوائل القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) وكان من أهمها عناصر القبائل السلجوقية في القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) وعلى أثر ذلك زاد النفوذ التركي السلجوقي في البلاط العباسي واستبد السلاجقة بالخلفاء في بغداد وكان للسلاجقة فضل في توحيد الدولة الإسلامية وقاموا بتوسيع أملاكها على حساب الإمبراطورية البيزنطية ، وتمكنوا من هزيمة الدولة البيزنطية في موقعة ملاذكرد في سنة ٤٦٢هـ (١٠٧١م) ووصلت أملاكهم إلى بحر مرمرة وسيطر

---

(١) حسين مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، ص١٨-١٩ .

السلاجقة بعدها تماماً على آسيا الصغرى (الأناضول) وصار الأناضول مهجراً تقصده العناصر التركية زاحفة من وسط آسيا [١] .

غير أن ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الأتراك السلاجقة ما لبث أن انهار بعد وفاة (ملك شاه) السلجوقي سنة ١٠٩٢م فقد انقسمت الدولة السلجوقية بعده إلى دويلات صغيرة مزقت الكيان السلجوقي ، وعرفت هذه الدويلات بدويلات الأتابكة ، وفقد أمراء السلاجقة سلطانهم بعد أن استبد بهم الأوصياء عليهم المعروفون بالأتابكة .

وشهدت أحداث القرن الثاني عشر الميلادي (٦هـ) ظهور عماد الدين زنكي أتابك الموصل ، ومن بعده ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي الذين حاولوا توحيد الشرق العربي ضد الزحف الصليبي ، كما شهد هذا القرن أيضاً سقوط الدولة الفاطمية الشيعية في مصر ، واستيلاء صلاح الدين الأيوبي على التركه الفاطمية في مصر.

وفي أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر (٧هـ) دخل في الأناضول عنصر جديد هو العنصر المغولي ، إذ لم يكد المغول ينتصرون على السلاجقة في معركة (كوسة طاغ) الجبل الأقرع سنة ١٢٤٣م حتى أخذوا يوطنون قبائلهم وجيوشهم في الأناضول [٢] .

وكان يقابل هذا التكاثر المستمر في الجانب الإسلامي نقص مستمر في الجانب المسيحي في الأناضول ، حتى صار المسيحيون منذ القرن الثالث عشر (عناصر تذكارية) في جنوب الأناضول [٣] بسبب إسلام بعضهم وهجرة البعض الآخر .

وقد تركزت العناصر المغولية وسط الأغلبية التركية بالأناضول ، حتى إذا ما دالت دولة (الإيلخانيين) المغولية التي أسسها (هولاكو) في الأناضول سنة

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ص (ط) .

(٢) المرجع السابق ، ص (ي) .

(٣) المرجع السابق ، ص (ل) ، (م) .

١٢٥٣هـ [١] ، خلت العناصر المغولية بحسب أماكنها الجغرافية في خدمة الإمارات المختلفة التي تمخض عنها الوضع السياسي في نهاية القرن الثالث عشر ، وتقدر تلك الولايات بنحو ست عشر ولاية (أو دويلة) على الأقل وكان من بينها ولاية آل عثمان .

ولا زالت هناك بعض المشكلات التي تتصل بقيام الدولة العثمانية وتحتاج من الباحثين إلى كثرة التوفر على دراستها لحلها أو الإجابة عليها إجابة معقولة ، ولعل من أهم هذه الأسئلة : في أي زمان اعتنق العثمانيون الإسلام ؟ .

وتجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذي أنجب أسرة عثمان والذي يعتبر – بالضرورة – النواة الأولى للدولة العثمانية ، عنصر غزي أي تركي لا يفترق في ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة [٢] ، وتنتمي أسرة عثمان إلى قبيلة (قابي خان) التي تنقلت روحاً من الزمن إبان القرن الثالث عشر في الأناضول بقيادة زعيمها سليمان جد عثمان ثم بقيادة ابنه ارطغول من بعده ثم بقيادة عثمان وكانت هذه القبيلة تخضع نظرياً لا عملياً لسلاطين (قونية) .

وشهدت العناصر التركية بآسيا الصغرى فترة من الاضطراب بسبب الزحف المغولي على الأناضول مما سبب لها كثيراً من التنقل والترحال الإجباري من مكان إلى آخر ، وبعد موت (جنكيز خان) فكر سليمان شاه جد عثمان في العودة بقبيلته إلى موطنه الأصلي بآسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية ، بيد أنه غرق عند فخاضة على نهر الفرات قرب حلب ، ودفنته أبناؤه بجوار قلعة جعبر داخل الحدود السورية الحالية عام ٦٢٦هـ (١٢٣١م) وما زال قبره هناك معروف باسم (ترك مزارى) أي مزار الترك [٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣-٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٨ .

(٣) انظر: ساطع الحصري ، الدولة العثمانية والبلاد العربية ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٦٠ ، ص١٣-١٤ .

وبعـد موت سليمان انقسم بنوه من بعده ، فمنهم من فضل مواصلة المسير إلى مقصـد أبـيهم ، ومنهم من آثر البقاء في تلك النواحي، وكان على رأس الفريق الثاني ارطغول بن سليمان الذي قاد رجاله متوغلاً في آسيا الصغرى .

وتروي الحوليات العثمانية أنه بينما كان ارطغول يسير بمن تبعه من قبيلته في وهـاد الأناضول شاهد جيشين يقتتلان أحدهما من المغول بقيادة (أوكتاى بن جنكيز خـان) والآخر بقيادة علاء الدين السلجوقي (١٢١٩-١٢٣٥م) (سليمان قونيه) . فدفعته غريزته الحربية للتوقف لمشاهدة هذا المنظر المألوف لدى القبائل الحربية ، وظل يرقب الموقف حتى تحقق من انكسار الجيش السلجوقي وعندئذ أسرع بالانضمام إليه وهـاجم جـيش المغول بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوبهم وأعمل فيهم السيف ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغولي [1] وكان ذلك في عام ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) وبعـد المعركة عقدت أواصر الصداقة والمحبة بين علاء الدين السلجوقي وأرطغـول ، وكافـأه علاء الدين على مساعدته له باقطاعه قطعة من الأرض على حدود الدولة البيزنطية قرب مدينة (بروسه) تسمى (اسكيشهر) ومنحه لقب (سلطان أونى) أي مقدمـة السلطان لوجود قبيلته في مقدمة جيوشه واتخذ ارطغول الهلال — شـارة السـلاجقة — شـعاراً له على أعلامه وبيارقه ، هو الرسم الذي لا تزال ترفرف به أعلام الأتراك حتى الآن[2] .

وصـار علاء الدين يعتمد في حروبه مع مجاوريه وخاصة الدولة البيزنطية ، عـلي أرطغول ورجاله ، وكان عقب كل انتصار يمنحه أرضاً جديدة ، وكانت هذه الإمارة الصغيرة (اسكيشهر) هي مهد الدولة العثمانية ، ففيها ولد عثمان بن أرطغول سـنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) الذي ينتسب إليه الدولة العثمانية ، وفيها دعم ارطغول إعدام قبيلته في الأناضول وفيها تمكن من تحويل قومه من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام

---

(١) انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٣٩-٤٠ .

(٢) انظر : د.عبد السلام عبد العزيز فهمي . السلطان محمد محمد الفاتح ، دمشق ١٣٩٥هـ ، ص ١٢ .

الدولة المستقرة التي بدأت تنمو وتتسع بالتدريج على حساب الإمبراطورية البيزنطية بالأناضــول حــتى أصــبحت إمبراطورية مترامية الأطراف وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ .

ولـمـا تــوفى أرطغول سنة ٦٨٧هــ (١٢٨٨م) خلفه في حكم الإمارة ابنه عــثمان ، فســار على نهج والده في تدعيم سلطانه في إمارته الناشئة باتصاله الوثيق بخلفاء علاء الدين السلجوقي وواتته الفرصة عندما تحطمت هيبة سلاجقة الروم أمام غــارات المغــول وفر آخرهم سنة ٦٩٩هــ (١٣٠٠م) هارباً ولجأ إلى الإمبراطور البيزنطي الذي غدر به وقتله ، فاستقل بإمارته ، ولم يلبث أن ضم إليها بقية الإمارات التركــية الأخرى التي قامت بالأناضول بعد الغزو المغولي ، واندمجت هذه الإمارات التركية في إمارة عثمان على توالي الأيام وسموا أنفسهم عثمانيين أيضاً ، وبذلك ورث العثمانيون سلاجقة الروم متوسلين في سبيل ذلك حيناً بالمصاهرة وحيناً بالمال ، وحيناً بالقهر والغلبة .

وتدعمــت حــركة عــثمان دينــياً عندما اتصل بشيخ الطرق الصوفية في الأناضــول ، وهــو الشيخ (أدبالي) أدب عالى وأكثر من التردد عليه . وكان رجلاً صالحاً من العلماء المسلمين والمتعمقين في الدراسات الدينية ، وكان هذا العالم يقيم في قــرية مجــاورة لمدينة (اسكيشهر) وفي خلال زياراته له تعمقت أواصر المحبة بينهما ، وتوجــت هذه الصلة بأن تزوج عثمان ابنة هذا الشيخ واسمها (مال خاتون) ثم قلده الشيخ سيف الجهاد في سبيل الله ، وبذلك قويت حركة العثمانيين روحياً وأصبح لها دعــاة يقــوون مــن روح جنودهم المعنوية الأمر الذي يجعلهم يستبسلون في الجهاد ويحتقرون الموت في ساحات القتال .

وإذا كان أرطغول والد عثمان قد بنى أساس الدولة العثمانية ودعمها سياسياً باتصــاله بعــلاء الدين السلجوقي ، فإن عثمان قد دعم الدولة بروح الجهاد الديني عندما اتصل بشيخه ووالد زوجته الشيخ أدب عالي ، وتحمس عثمان لعقيدته الدينية

وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين وصارت تلك السمة الدينية وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين ، وصارت تلك السمة الدينية من الصفات البارزة الملازمة لسلاطين آل عثمان فيما بعد ، وصار من رسومهم بإستانبول أن يتقلدوا سيف عثمان من أمام جامع أبي أيوب الأنصاري حيث تتم البيعة لهم .

ومن ناحية أخرى أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة ، مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك .

وأخذ عثمان يوسع أراضيه بالتدريج مستغلا الفوضى والإهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول ، وكان أول صدام بينه وبين البيزنطيين في معركة (قويـن حصار سنة ١٣٠١م) ولم تستطع بيزنطه لمدة طويلة أن تتحرك ضد عثمان ، فقد كانت مشغولة بالقلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان ، وسقطت في يد العثمانيين أماكن كثيرة كان عليها أن تدافع عن نفسها بقواها المحلية ، فسقطت (بروسة) في سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) وفي هذه السنة توفي عثمان في بروسه ودفنه بنوه فيها بعد تدعيم مركز دولته في الأناضول ، وولي الحكم بعده ابنه (أورخان) .

وقد وجد آل عثمان هناك مجالاً واسعاً لتوجيه نشاط عشيرتهم الفتية نحو الحرب والجهاد لفتح الأقاليم البيزنطية وادخالها في حوزة الإسلام وإقدامهم على الجهاد بهذه الصورة صار يجذب إليهم عدداً غير قليل من المتطوعين من مختلف الإمارات التركية الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية [١] .

وسار العثمانيون في حكمهم على هدي الإسلام ، وكانوا متحمسين له ، وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في مستقبل عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون ، فقد عبأهم الإسلام

---

(١) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص١٦ .

بشـــعور إســـلامي دافق جعلهم متحمسين للإسلام ، واجتمع لهم إلى جانب العاطفة الدينـــية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين ، وقـــد اســـتمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون [١] .

وقـــد اســـتفاد العثمانـــيين عندما اجتازوا الدردنيل سنة ١٣٤٥م في عهد (أورخـــان) وأخـــذوا يتغلغلون في القارة الأوربية في البلاد التي اسموها "روم ايلى" (روملى في المراجع العربية) أي ديار الروم ، فقد كانت تلك البلاد تعتبر من الوجهة الشـــرعية دار حرب وجهاد ، فيسوغ فيها الاسترقاق ، ولذلك ابتكر آل عثمان في عهـــد أورخان ، طريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد (فأخذوا يقومـــون مـــن وقت لآخر ، بعادات على ما وراء حدودهم ، في البلاد "النصرانية" بقصـــد استرقاق الأطفال ، وكانوا يعودون من تلك الغارات بعدد كبير من الأطفال الصغار الذين كانوا يودعونهم في مؤسسات خاصة لتنشئتهم نشأة إسلامية عسكرية ، وكـــان هذا الجيش هو الذي عرف بالإنكشارية (وهذه الكلمة محرفة من التركية "ين تشـــري" بمعنى النوع الجديد أو النظام الجديد)[٢] وكان أفراد هذه الطائفة لا يعرفون – بطبـــيعة الحال – شيئاً عن أصلهم ونسبهم ، فما كانوا يشعرون بارتباط نحو أسرة غـــير أســـرة الجـــيش الـــذي ينتسبون إليه ، وكانوا ينشأون على الديانة الإسلامية ويتشبعون بفكرة الجهاد منذ نعومة أظفارهم ، يؤمنون بأن الجهاد من فرائض الإسلام ، فيذهـــبون إلى ســـاحات القـــتال وهم يقولون في قرارة أنفسهم : "إما غازي وإما شـــهيد" بمعـــنى أن عليهم إما أن ينتصروا على الأعداء فيكونوا من الغزاة ، وإما أن يموتوا خلال الحرب ، فيدخلون في زمرة الشهداء الأبرار .

---

(١) د. عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص٥٣٩ .

(٢) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦–١٧ .

وصفوة القول أن هذا الجيش كان ينشأ للحرب والجهاد ويستعد لذلك من كـل الوجـوه المادية والمعنوية ، ويعتبر هذا الجيش في نظر بعض المؤرخين أول "جيش دائم" عرفه التاريخ [١] .

وبعـد أن عبر العثمانيون الدردنيل واستولوا على (غاليبولى) استوفدوا كثيراً من أتراك الأناضول وكذلك بعض العشائر التركمانية فوطنهم هناك ، وفر قسم من أهـل (تراقـيا) أمام الزحف العثماني وعمر الأتراك القادمون من الأناضول أماكنهم الخالية .

وبـدأت بـيزنطة التي احتفظت بمركزها كعاصمة قروناً طويلة تحس بالخطر العـثماني بأوسع معانيه ، ولما ولي (مراد الأول) العرش في سنة ١٣٥٩م (٧٦١هـ) كـان الأتـراك قـد استقروا نهائياً على ساحل أوروبا متخذين من (غاليبولي) نقطة مـتقدمة لعملياتهم الحربية وتقدمت الفتوحات في (تراقيا) ووفق مراد في مدة سلطنته الـتي اسـتمرت حتى سنة ١٣٨٩م (٧٩٢هـ) في تحقيق غايته وهي بسط سلطان العثمانيين بصورة ثابتة على البلقان .

وسـارت فتوحات الدولة العثمانية بسرعة حتى عهد السلطان الرابع بايزيد الأول (٧٩٢-٨٠٥هـ) (١٣٨٩-١٤٠٢م) ويمكـن لنا أن نقرر أن الدولة في عهده صارت إمبراطورية راسية القواعد في الأناضول والبلقان بيد أن الدولة اعتراها في عهـده التوقف مدة من الزمن بسبب الحرب التي قامت بينها وبين (تيمور لنك) الـذي انتصـر عـلى بايزيد في معركة (أنقرة) وأسره سنة ١٤٠٢م وعلى أثر هذه الموقعة تنازع أولاد بايزيد السلطان فاستقل كل واحد منهم بجزء من أجزاء المملكة ، ثم انتهى هذا التنازع بانتصار السلطان محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) (١٤٠٢-١٤٢١م) على أخوته .

---

(١) ساطع الحصري ، مرجع سبق ذكره ، ص١٧ .

وفي عهـد السـلطان (محمـد الأول) بدأ عهد جديد من الفتح فقد تغلغل العثمانـيون في شـبه جزيـرة الـبلقان حتى أتموا فتح جميع أقسامها ، ثم توسعوا في الأناضـول حـتى أوصـلوا حدودهم إلى جبال طوروس ، وأصبحوا متاخمين لدولة المماليك .

وقد توج العثمانيون هذه الانتصارات بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م على يد السلطان محمد الثاني (٨٥٥–٨٨٦هـ) (١٤٥١–١٤٨١م) الذي استحق لقب الفـاتح منذ ذلك التاريخ ، ولما شاع خبر فتح القسطنطينية في الآفاق فرح المسلمون وأرسـل يلطـان المماليك إلى السلطان العثماني بالتهنئة والحق أن محمد الفاتح حقق بفـتح القسـطنطينية أمنـية ظلت تراود المسلمين منذ صدر الإسلام وكان من أول الأعمـال التي قام بإنجازها محمد الفاتح بعد فتحها عمل يرمز إلى هذه الحقيقة ويمثل كفـاح المسلمين الأوائل الذين حاولوا فتح عاصمة الدولة البيزنطية ، إذ بادر الفاتح إلى تشـييد مسجد للصحابي الجليل (أبو أيوب الأنصاري) الذي استشهد عند أسوار القسـطنطينية في أوائل المحاولات الإسلامية لفتحها في القرن الأول الهجري ثم دفن أمام أسوارها (سنة ٥٠هـ/٦٦٩م) .

ويذكـر القرماني المؤرخ في كتابه "أخبار الدول وآثار الأول" بصدد التعرف على قبر أبي أيوب الأنصاري : أن السلطان محمد الفاتح التمس معرفة القبر باجتهاد أحد الصالحين الذين رافقوا محمد الفاتح في حملته الموفقة ويدعى (الشيخ شمس الدين) فأمـر السـلطان بأن تبنى قبة فوق القبر وألحق بها جامعاً فخماً هو من أهم المساجد الإسلامية الآن في استانبول .

والحـق أن السلاطين العثمانيين قلموا بفتوحاهم في أوروبا تحدوهم إلى ذلك عاطفـة دينـية جياشة تتأجج بها صدورهم ، ومما يروى عن السلطان (بايزيد الثاني) ٨٨٦–٩١٨هـــ (١٤٨١–١٥١٢م) إنه كان إذا انتهى من غزوة من غزواته جمع ما على ثيابه من غبار واحتفظ به ، ولما أحس بدنوا أجله أمر بأن تصنع من هذا الغبار

الذي دأب على جمعه لبنة فضربوا له به لبنة صغيرة أوصى السلطان بأن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن ، وكأنه أراد أن يستأنس بالحديث القائل "من أغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار" .

سرعة المد العثماني :

اكتســح الغــزو العسكري العثماني العالي العربي في سرعة غير عادية ، ففي فترة وجيزة من الزمن كان قد غطى الجزء الأكبر منه فلم يترك سوى جيبين رئيسيين لم يخضــعا له لا اسمــاً ولا فعلاً وهما المغرب الأقصى في أقصى الغرب وساحل الخليج العربي ابتداء من الحسا والكويت حتى عمان في أقصى الشرق .

فقــد ترتــب على خضوع مصر والشام للعثمانيين وزوال دولة المماليك أن دخــل (الحجــاز) تلقائياً وسلمياً ضمن الدولة العثمانية ، ذلك أن الحجاز كان تحت الســيادة الاسمية للمماليك وكان الحجاز يتلقى من مصر كل عام كميات من الغلال عــلاوة على الأموال المخصصة لأهالي الحرمين الشريفين ، ومرتبات إشراف الحجاز وكانــت قافلة الحج المصري تذهب كل عام إلى الحجاز ومعها المحمل المصري وتحمل معها الخير والرخاء لأهل الحجاز .

وبعــد انهــيار دولة المماليك أمام الزحف العثماني رأى (الشريف بركات) شــريف مكــة أنه لا ضير عليه من أن يتجه بولائه إلى العثمانيين وخاصة أنه سيكون لهــذا الاتجــاه فائدة في استمرار تدفق الخيرات من مصر على الحجاز ، ولذلك فإنه عــندما دعــاه السلطان سليم للدخول في طاعة العثمانيين استجاب على الفور لهذه الدعــوة ، وأوفد ابنه وشريكه في الولاية (أبونمى) يحمل مفاتيح الحرمين الشريفين إلى الســلطان ســليم في القاهرة تعبيراً عن الولاء ، فمنحه السلطان سليم تفويضاً بحكم مكــة حيث صارت الخطبة باسم سليم ، وأمر بقتل (حسين الكردي) وإلى جدة من قــبل الســلطان الغــوري ، وبذلك حظيت الدولة العثمانية بشرف حماية الحرمين الشــريفين وأضــيف لقب السلطان (حامي الحرمين الشريفين) وهذا الأمر كان من

الأمـــور الـــتي تحافظ الدولة العثمانية عليه وعلى بقاء الحرمين الشريفين في حوزتها ، وأصبح تعيين شريف مكة من مهام الدولة العثمانية .

ودخلـــت (بـــلاد اليمن) تحت السيادة العثمانية سلمياً في بادئ الأمر كما حـــدث بالنســـبة للحجاز ، وذلك عندما أصدر السلطان سليم أمراً سلطانياً بتثبيت (اســـكندر الجركســـي) أو المخضـــرم المملوكي والياً على اليمن مثلما كان في عهد المماليـــك إلا أن الـــنزاع استمر بين القواد الجراكسة في اليمن الأمر الذي أدى إلى زعزعة النفوذ العثماني مما دفع العثمانيين إلى إرسال حملة بقيادة (سليمان باشا الخادم) ســـنة ٩٤٥هـــ / ١٥٣٨م فكانـــت أول حملة حقيقية على اليمن ودخلت عدن بترحيب حاكمها (عامر بن داود) الظاهري الذي كان في نزاع مع إمام اليمن إلا أن الجـــنود العثمانيين أعملوا فيها النهب والسلب ، كما غدر سليمان باشا بأمير عدن الذي ساعدهم على دخولها مما كان له أسوأ الأثر على سمعة العثمانيين في بلاد اليمن، ولكن سليمان باشا فشل في استدراج الإمام (شرف الدين) إمام اليمن ، وظل النزاع قائمـــاً في اليمن بين الزيدية والعثمانيين وظلت الاضطرابات والثورات تعم اليمن بلا هوادة حتى عام ١٦٣٥م.

وظـــل العـــراق مجـــال الصراع بين العثمانيين والصفويين حتى قام السلطان (ســـليمان المشـــرع) على رأس حملة على العراق عام ١٥٣٤ دخل بغداد وحاول الحرص على عدم الإساءة إلى مشاهد الشيعة بالعراق ولذلك زار الكثير من مزاراتهم والوقـــف علـــيها الكثير من الأوقاف كما بنى سد السيمانية على الفرات الأوسط لحمايـــة العتـــبات المقدسة في (كربلاء) من مياه الفيضان في الربيع وزار قبر (الامام عـــلي) رضـــي الله عـــنه في النجف ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن ارضاء السنة كذلك ، وقبل أن يغادر سليمان العراق بعث إليه (حاكم البصرة) العربي بابنه راشد يحمـــل إلـــيه مفاتـــيح البصرة رمزاً للخضوع وبذلك خضعت البصرة أيضاً للنفوذ العثماني ودخلت في حوزة الدولة العثمانية وهكذا أخضع العراق من شماله إلى جنوبه

للحكم العثماني على الرغم من عودة الإيرانيين إلى محاولة استرداد المرة بعد الأخرى ولم ينته الصراع بين إيران والدولة العثمانية إلا في عام ١٧٤٧م حيث خضع العراق نهائياً للحكم العثماني .

العثمانيون والمغرب العربي :

وإذا كـان العثمانـيون قد استخدموا السيف وسيلة في ضم المشرق الأدنى إلـيهم فـإن طريقتهم لضم شمال أفريقيا قد تمت بوسائل أخرى ، ويرجع ذلك إلى ظـروف المغرب العربي ، في ذلك الوقت كان المغرب العربي يئن في نفس الفترة التي اشـتدت فـيها انتصارات العثمانيين في البلقان والمشرق العربي من هزات واضحة أصـابته في الأندلـس ، وأصابته على سواحله الطويلة الممتدة جنوب الحوض الغربي للـبحر المتوسط لقد كان سقوط (غرناطه) في يد المسيحيين سنة ١٤٩٢ نقطة تحول خطـيرة في تـاريخ هذا الإقليم الإسلامي ، واضطر بعدها الأندلس إلى الاختيار بين القتل والتعميد ، (كانت معظم معاقل المسلمين في الأندلس قد سقطت ، الواحدة تلو الأخرى في أيدي الأسبان) وأسرع عدد كبير من العرب بالخروج من الأندلس فراراً بمـا تمكن من حمله ملتجئاً إلى مواني شمال أفريقيا ، وكانت خطة الأسبان تتلخص في القضاء نهائياً على الحكم الإسلامي في الأندلس بل حتى القضاء على الأهالي المسلمين هـناك تمهـيداً لإقامة دولة تعتمد قبل كل شيء على مواطنين أسبانيين مسيحيين ، وتشـمل هـذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب العربي واحتلال موانيه المطلة على الـبحر المتوسـط ، واحتلال أقاليم أفريقيا السوداء الواقعة إلى جنوبه ، إن لم تتمكن الدولة الكاثوليكية من احتلال المغرب العربي نفسه وتحويله إلى المسيحية .

ولقد حاول أبناء المغرب العربي الدفاع عن سفن المهاجرين ووقف هجمات سـفن المسيحيين على أساطيلهم وموانيهم وعملوا أكثر من ذلك على الثأر والانتقام من المسيحيين وسفنهم بعد كل حادثة تقع للمسلمين الفارين من وجه الأسبان ، وقد

أطلــق الأوروبيون في كتبهم على أعمال المسلمين المغاربة في الدفاع عن الأندلسيين اسم القرصنة ولكن اسمها الحقيقي هو الجهاد البحري .

واحتل البرتغاليون بعض الموانئ في المغرب الأقصى وبدأ الأسبانيون في احتلال طـــرابلس الغرب وكان البرتغاليون قد احتلوا (سبته) سنة ١٤١٦م واحتل الأسبان المرســـى الكـــبير سنة ١٥٠٥م ثم هجموا على (وهران) سنة ١٥٠٩م حيث قتلوا ٤٠٠٠ مســـلم وأســـروا ٨٠٠٠ واحتلوا إحدى الجزر الصغيرة المواجهة للشاطيء ولضـــربه منها بالقنابل ولم تكن هذه الجزيرة تبعد عن الساحل إلا بمسافة ٣٠٠ متر وهي الجزيرة التي أصبحت فيما بعد نواة لبناء مدينة الجزائر عاصمة الجزائر الحالية.

وإبـــان هذا الصراع بين المسلمين والأسبان والبرتغاليون في المغرب تطلعت أنظار المغرب العربي إلى إخوانهم المسلمين في المشرق العربي من أجل توحيد صفوفهم في كفـــاحهم المصـــيري أمام الخطر الأوروبي المتزايد ، وقد كان من أبرز الأسماء التي لمعـــت في تـــاريخ المغرب العربي في تلك الفترة هما الأخوان (عروج) و (خير الدين برباروســـا) اللذيـــن دافعا عن المغرب العربي دفاعاً مستميتاً أمام المد المسيحي ، ولما وجـــد (خير الدين برباروسا) صعوبة مقاومة الأسبان وجد من الأفضل أن يدخل في خدمة السلطان العثماني ويعمل باسمه ومن ثم طلب حماية السلطان (سليم) وقد منحه السلطان سليم لقب (بك بكوات أفريقية) وأرسل إليه عدداً من الجنود الانكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالي في الدولة العثمانية نفسها لمساعدته في عملياته الحربية في غرب الـــبحر المتوســـط ، وقد تمكن (خير الدين) من أن يستولي على المنطقة الساحلية من الجزائـــر واســـتولى عـــلى القلعة التي بناها الأسبانيون على جزيرة مواجهة للساحل الجزائـــري ووصل هذه الجزيرة بالبلاد سنة ١٥٢٩م ، وأصبحت نواة لمدينة الجزائر الحالـــية ، وقـــد عمل خير الدين على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحـــركة وأصـــبح أسطوله مرهوب الجانب في الحوض الغربي للبحر المتوسط ومنحه الســـلطان العـــثماني لقب (قبودان باشا) وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية ،

وقــام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال أفريقية فاحتل (تونس) وطرد منها مولاي الحســن حلــيف الأسبان ، وأصبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد أصــبح رئيســاً لدولــة كبيرة وإن كانت متحدة مع الإمبراطورية العثمانية وأصبح الحــارس الأمامي للإمبراطورية العثمانية في غرب البحر المتوسط وكانت تسنده جميع قوات هذه الإمبراطورية في صراعه مع المغرب ، وهكذا بدأ ظهور الأتراك العثمانيين في شمال أفريقيا.

أما مراكش فقد نجحت في صد كلا من الضغطين الأسباني والعثماني وكانت هــي الدولــة العربــية الوحــيدة في المغــرب العربي التي لم تخضع للحكم العثماني واســتطاعت دولة (الأشراف السعديين) في مراكش الاحتفاظ باستقلالها واعتزازها بنزعتها الإقليمية واتخذت من حدودها الطبيعية حاجزاً يفصلها عن جيرانها وبخاصة في الشــرق وأصــبح المغرب الأقصى هو القطر الوحيد الذي لم يتحد مع بقية الأقاليم العربــية والإسلامية رغم استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح ووحدة التاريخ بين شعوب المنطقة كلها .

والواقــع أن الأشراف السعديين في مراكش قاموا بدورهم في الجهاد الديني ضــد الأسبان والبرتغال غير أنهم لم يقتنعوا بالانضمام إلى الدولة العثمانية والانضواء تحت لوائها لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق من العثمانيين بزعامة العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، وإذا كانت الظروف تفرض على أحد القوتين الخضــوع للقــوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل في أحقية الأشراف في الســيادة ، ومــن ثم وقــع صدام مؤسف بين الأشراف السعديين في مراكش وبين الجزائــريين وحاولت كل دولة منها النيل من الأخرى وكان الموقف يقتضي وحدتهما أمام الزحف الأوروبي على العالم الإسلامي .

وصــفوة القول أن الدولة العثمانية قد تمكنت من السيطرة على غالبية العالم العــربي في ســرعة غــير عادية وكانت هذه السرعة نتيجة عدة عوامل في مقدمتها

الضعف الداخلي والخطر الخارجي ثم التجاوب الديني أو الوشيجة الدينية التي لولاها لكـــان مصير الغزو العثماني منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والمسيحية الســـابقة كـــالمغول والصليبيين وبسبب هذه الوشيجة الدينية وخطورة المد الأوروبي كان التجاوب وكانت السرعة .

المراجع والمصادر

١- إبراهيم باشا رفعت (ت١٩٣٥م) ، مرآة الحرمين .

٢- ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

٣- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، طبعة بيروت .

٤- أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة .

٥- إحسان الهي ظهير ، الإسماعيلية .

٦- أحمد أمين (ت ١٩٥٤م) ، (فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام) .

٧- أحمد بن إياس (ت ٩٢٩هـ) ، بدائع الزهور .

٨- أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ .

٩- أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام .

١٠- د. أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي .

١١- أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ، القاهرة سنة ١٩٧٦م.

١٢- أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٦٣٣هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب .

١٣- أحمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد .

١٤- أحمد بن علي المقريزي (ت١٤٤٢م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

١٥- أحمد بن محمد بن خلكان (ت٦٨١هـ) وفيات الأعيان .

١٦- أحمد مجاهد مصباح ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ١٩٧١م.

١٧- أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والأندلسي .

١٨- أرمينيوس ، تاريخ بخارى .

١٩- د. السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن .

٢٠- بارثولد ، تلاكستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي .

٢١- بانيكار ، آسيا الوسطى والسيطرة الغربية .

٢٢- بديع جمعة وأحمد الخولي ، تاريخ الصفويين وحضارتهم .

٢٣- البغدادي (عبد القاهر بن طاهر ت ٤٢٩هـ) ، الفرق بين الفرق .

٢٤- توماس أرنولد (ت ١٩٣٠م)، الدعوة إلى الإسلام .

٢٥- جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) " نهاية الأرب في فنون الأدب " .

٢٦- د. جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا .

٢٧- حامد غنيم ، العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين .

٢٨- د. حسن إبراهيم حسن ، وأخيه علي ، (النظم الإسلامية — تاريخ الإسلامي السياسي)

٢٩- حسن أحمد محمود وأحمد الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي .

٣٠- د. حسين مؤنس ، الأطلس الإسلامي .

٣١- خير الدين الزركلي ، الأعلام .

٣٢- الخطيب البغدادي (أحمد بن علي ت٤٦٣هـ) ، تاريخ بغداد .

٣٣- دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية .

٣٤- د. رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر .

٣٥- ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية .

٣٦- السالمي ، تحفة الأعيان .

٣٧- ستانلي لين بول ، معجم الأسر الحاكمة الإسلامية ، ترجمة أحمد السعيد ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩م .

٣٨- سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي .

٣٩- شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي .

٤٠- الشهرستاني ، الملل والنحل .

٤١- د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي .

٤٢- صالح مسعود أبو يصير ، جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٩م .

٤٣- عادل خفاجة،الأثر العربي في اللغة السواحلية ، مجلة الأزهر،عدد شعبان ١٤١٥هـ يناير ١٩٩٥ .

٤٤- عبد الحي ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب .

٤٥- عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر .

٤٦- عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠م .

٤٧- عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ جدة .

٤٨- عبد القادر محمد بن عبد القادر الجزيري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ .

٤٩- عبد الهادي التازي ، جامع القرويين .

٥٠- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية .

٥١- عز الدين ابن الأثير ، الكامل في التاريخ .

٥٢- عفاف زيدان ،(ترجمة) العلاقات الأفغانية الروسية ، لمؤلف مجهول ، نشر دار الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة سنة ١٩٩٢م .

٥٣- علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، الفصل في الملل والنحل .

٥٤- علي عبد الواحد وافي ، شرح مقدمة ابن خلدون .

٥٥- عمر الدسوقي ، إخوان الصفا وخلان الوفا .

٥٦- عمر رضا كحالة ، (جغرافية شبه جزيرة العرب – معجم قبائل العرب) .

٥٧- عيسى بن لطف الله ، رَوح الروح (مخطوطة) .

٥٨- د. فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، طبعة دار النهضة العربية بيروت ، سنة ١٩٨٠م .

٥٩- القزويني ، آثار البلاد .

٦٠- قطب الدين النهروالي ، [البرق اليماني في الفتح العثماني – الإعلام بأعلام بيت الله الحرام] .

٦١- القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

٦٢- كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية .

٦٣- لوثروب ، حاضر العالم الإسلامي ، والأمير شكيب أرسلان بعنوان شرقي أفريقيا .

٦٤- محمد أبو زهرة ، الوحدة الإسلامية .

٦٥- محمد اسماعيل الندوي ، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية .

٦٦- محمد إسماعيل جمال الدين ، دولة الإسماعيلية في إيران .

٦٧- د. محمد السيد غلاب و د. حسن عبد القادر صالح و د. محمود شاكر ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٩٧٩م .

٦٨- محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك

٦٩- محمد الخضري ، الدولة العباسية .

٧٠- محمد بن شديد العوفي ، العلاقات بين الفاطميين والعباسيين .

٧١- محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

٧٢- .... الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع .

٧٣- محمـــود حســـن صالح منسي ، معالم تاريخ الشرق الإسلامي في العصور الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٧٤- مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية .

٧٥- المؤلف د. مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر في الحياة المصرية .

٧٦- .... ، العالم الإسلامي في العصر العباسي .

٧٧- .... ، العـــالم الإســـلامي في التاريخ الحديث والمعاصر.

٧٨- .... ، اليقظة الإسلامية في العالم الإسلامي .

٧٩- .... ، المسلمون في آسيا الوسطى وإيران .

٨٠- .... ، الدولـــة العثمانـــية وعلاقـــتها بالعـــالم الإسلامي وأوروبا.

٨١- المقري ، (نفح الطيب — أزهار الرياض) .

٨٢- المقريزي ، الخطط .

٨٣- موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، من الترجمة العربية لعبد الرحمن حميدة .

٨٤- ناصر خسرو ، سفرنامه .

٨٥- نظام الملك ، سياسة نامه ، ترجمة د. السيد محمد العزاوي .

٨٦- نيكســـون ، الفرصة السانحة ، ترجمة أحمد صدقي مراد ، دار الهلال ، ١٩٩٢م بالقاهرة .

٨٧-- ياقوت الحموي ، معجم البلدان .

٨٨- يحي بن الحسين ، أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن .

٨٩- جريدة الأهرام المصرية

٩٠- جريدة الشرق الأوسط السعودية .

٩١- جريدة الوفد المصرية .

٩٢- مجلة الوثيقة ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، يناير ١٩٨٧م .

فهرس الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب
٩٩/١٠١٩٥

I.S.B.N
977 - 19 - 9367 - 4